

إنجيل المسيح حسب البشير يوحنا

مقدمة

سُمِّي إنجيل يوحنا بالإنجيل الروحاني، بسبب عمق نظرتة لسر المسيح. ويظهر هذا السر بصورة واضحة من خلال عرض يوحنا للآيات المسيحانية. فالآيات بالنسبة للإنجيل الرابع هي المفتاح لقراءة هذا الإنجيل المميز. ويُعلن الكاتب في نهاية مؤلفه أنه لم يذكر كل الآيات التي قام بها يسوع أمام تلاميذه والتي بدورها تُعلن كل سر المسيح، وإنما اختار منها ما اختار «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ» (٢٠: ٣١).

فرازة الإنجيل الرابع

يهدف الإنجيل، كما الأناجيل الأخرى، إلى حث القارئ على الإيمان بأن يسوع المسيح هو «ابن الله». وصحيح أن مضمونه يتألف من الآيات والأعمال التي قام بها يسوع، والتي يمكن للبحث التاريخي أن يتوصل إليها؛ ولكن في الإنجيل الرابع اختلافات عديدة مع الإزائيين. فمن حيث الترتيب الزمني، يصعد يسوع ثلاث مرات إلى أورشليم بمناسبة الفصح (٢: ١٣؛ ٥: ١؛ ٧: ١٤)، مما يعني مدة ثلاث سنوات؛ في حين يذكر الإزائيون سنة واحدة. ومن حيث الترتيب المكاني، يذكر يوحنا رحلات متعددة بين الجليل وأورشليم، ويعطي لأورشليم واليهودية مكاناً مميزاً (بيت عنيا ف. ١١ و ١٢؛ وأفرام ١١: ٥٤)؛ كما يهتم بشكل بارز بالسامرة وبعبور الأردن (١: ٢٨؛ ١٠: ٤٠؛ ٤٢). وثم أن يوحنا يركز على تجذر يسوع في تيار يوحنا المعمدان، فيعلن منذ البدء أن التلاميذ الأولين هم من تلاميذ المعمدان، وأن يسوع مارس العماد بمعزل عن هذا الأخير (٣: ٢٢-٢٦). وبالإضافة إلى ذلك يجد القارئ اختلافات في المحاكمة بين نصوص الإزائيين والنص اليوحناوي، فيعطي يوحنا لبيلاطس دوراً محورياً؛ ويحدد تاريخ موت يسوع ليس يوم الفصح، بل مساء العيد (١٩: ١٤، ٣١، ٤٢)؛ ويتجاهل نص الإفخارستية، ليركز الأهمية على حدث غسل الأرجل (ف. ١٣)؛ في حين يتوسع في تعليم إفخارستي في الجليل (ف. ٦) بمناسبة الفصح الثاني (٦: ٤). وتكثر الاختلافات المتعلقة ليس فقط بالوثائق؛ بل بتفسير حياة يسوع. فيسوع لا يمارس أبداً طرد الشياطين، ولا يقوم بالعجائب؛ بل بسبع آيات (semeia): منها اثنتان لا يذكرهما سواه (عرس قانا ف. ٢؛ وإقامة لعازر ف. ١١)، وثلاث يشترك فيها مع الإزائيين (إشباع الجموع ف. ٢١؛ وتهدة العاصفة ف. ٦؛ وشفاء ابن خادم

الملك ف. ٤)، واثنتان مشابهتان للتقليد الإزائي (شفاء أعمى ف. ٩؛ ومريض بيت حسدا ف. ٥). وثم أن القارئ لا يجد في الإنجيل اليوحناوي تعليماً بالأمثال، ولا تعليماً عملياً على شاكلة الموعظة على الجبل، ولا تطويبات، ولا صلاة ربانية، وإلخ. في حين أنه يجد العديد من الخطب التي أخذت مكاناً بين العشاء الأخير والآلام، مما يُضخم موضوع «الوصية» أو «خطب الوداع» المعروفة في يهودية ما بين العهدين. وتكمن فرازة الإنجيل الرابع في الخطب الطويلة المتمحورة حول عبارة «أنا هو».

ويقرأ يوحنا أحداث الآلام في ضوء القيامة. فالمسيح الملك، واع تماماً بالأحداث: ففي بستان جثسيماني، نجد أن الحراس هم من يقعون أرضاً (١٨: ٦)؛ وفي المحاكمة أمام بيلاطس، يسوع هو الملك (١٩: ١٣)؛ وعلى الصليب هو من يقرر زمان موته ويحوّله إلى فيض الروح القدس (١٩: ٢٨-٣٠). وهكذا، لا يعود لنص التجلي الأهمية الكبرى؛ لأن الآلام الممجّدة حلت مكانه.

وبالإضافة لخطب الآلام الطويلة، نجد في الإنجيل الرابع مقاطع فريدة. فمنها ما يجمع بين العمل (الآية) والقول (تفسّر العمل) كما في حدث مريض بيت حسدا (ف. ٥)، أو في حدث إشباع الجموع (ف. ٦). ونجد أيضاً مقاطع طويلة من الحوارات كما في الحوار مع نيقوديموس (ف. ٣)، والحوار مع السامرية (ف. ٤). وهناك نصوصاً قصصية تأتي بمناسبة معينة يتدخل فيها العديد من الأشخاص، وتتقدم فيها الحوارات بشكل معمق ومعقد كما في نص الأعمى منذ ولادته (ف. ٩)، ونص إقامة لعازر (ف. ١١).

ولإنجيل يوحنا ترتيب خاص به. ويتمثل هذا في مقاطع طويلة نوعاً ما، أو في ظاهرة درامية تتعّد فيها الشخصيات، أو في التداخل بين العمل والحوار والخطب الذاتية. وهناك حالات تتراوح بين أكثر من أسلوب كمثال خطاب تقطعه أسئلة قصيرة تطلق الخطاب من جديد. وهذه الأسئلة التي تبدو قليلة الذكاء، تعود إلى أساليب كتابية يمكن تلخيصها بـ«سوء الفهم»، و«الحكمة»، و«الكلمات المزدوجة المعنى». وبالخلاصة يمكننا التأكيد أن في الإنجيل الرابع أسلوباً متطوراً يدل على تأليف مدروس ومتتابع.

ولغة يوحنا فقيرة بعض الشيء. إذ تبدو بعيدة عن الواقع، وعن أسلوب الوصف الذي نخبره على سبيل المثال في إنجيل مرقس؛ وتبدو أيضاً، من الناحية الأدبية، أبسط من لغة لوقا. فبعض المفردات الخاصة بالإزائيين مفقودة تماماً عنده مثل: «تاب» (metamelomai)، و«الملكوت» (basileia)، و«مَثَل» (parabole)،

للعبور نحو الأمم (را. أع ١٣: ٤٦) من خلال الانتقال من الإطار اليهودي-الفرسّي إلى مسألة الخلاص عبر مفهوم وعبارات هلينية. وقد أخذ ش. دود على عاتقه العمل على العلاقات بين الإنجيل الرابع والديانات الهلينية مما يُظهر التجذر الهليني لليوحناوية، وحواره مع العالم الوثني.

ولكن أوسكار كولمان، أبرز كيف أن الإنجيل الرابع يُظهر تجذراً فلسفياً ثابتاً، وخاصة في المنطقة اليهودية. ففيه العديد من أسماء الأماكن اليهودية مثل: بيت حسدا، وغبّاتا، وجلجلة، ومجدل. وهو يُبدي معرفة محدّدة للأماكن، والمؤسسات، والأعياد الدينية، ويعطي أهمية كبرى للعالم اليهودي الذي، على الرغم من العلاقة المتوترة معه، تبقى علاقة حميمة. وفي هذا الإطار أظهر شارل بيرو تأثير التيار المعمداني في الإنجيل الرابع في مقابل قمران والإسنيين، وهو ما يبدو واضحاً في نظرة الإنجيل الرابع إلى الإسخاتولوجية المحققة. فهو يضع تطهير الهيكل في بداية رسالة يسوع العلنية ٢: ١٣-٢٢، مما يعني أن المسيح حل مكان الهيكل، وأن جسده الحي هو الهيكل الجديد؛ في حين أن أعضاء جماعة قمران كانوا لا يزالون ينتظرون ترميم الهيكل وإعادة الطهارة الأصلية إليه. وفي حين أنهم كانوا يتبعون شريعة طهارة قاسية، بحيث تعددت عندهم طقوس التطهير بالمياه وقد تشددوا في الانفصال عن الآخرين؛ كانت التيارات المعمدانية تتمتع بدينامية شعبية تميّز بها يسوع فتخطى حواجز الطهارة الشرعية، وأبطل دور كل هيكل، وأعلن لقاء كل العباد الحقيقيين بالحق (٤: ٢٣)، وانتهاء كل الحواجز التي أقامها الأطهار فريسيين كانوا لم أسنيين. وقد أضاعت اكتشافات قمران الجدالات المتعلقة بإنجيل يوحنا. فالإنجيلي يُقسم العالم إلى قسمين كما يفعل القمرانيون: أبناء الله (أو أبناء النور) الذين ينقادون لروح الحق، وأبناء الشيطان (أو أبناء الظلمة) الذين يعيشون تحت سلطة رئيس هذا العالم. وأبرز ش. بيرو أيضاً أهمية تأثير الساميريين في الجماعة اليوحناوية، بحيث أدخلوا إليها نوعاً من الانتظار المسيحاني، الذي بتطبيقه على يسوع، أظهر مسيحانية الإنجيل الرابع المتعالية.

ويعود إلى إدوار كوتنية وغيره الفضل في إظهار الخلفية الكتابية للإنجيل الرابع. فيظهرون تأثير التفسير الكتابي والوعظ اليهودي، وهو ما نستنتج خاصة في الخطب اليوحناوية؛ أو تأثير طريقة التوسع المدراسي كما يظهر في موضوع الحديث مع المرأة السامرية عند البئر (ف. ٤)، والحوار حول المَنّ (ف. ٦). وكذلك تظهر الخلفية الكتابية في طريقة ترابط الأفكار.

فمؤلف الإنجيل الرابع يعرف العهد القديم جيداً، إذ يستشهد مراراً بموسى والكتب. فهو يستعمل مواضيع من سفر الخروج مثل موضوعات: حمل الفصح، والمن، والحية النحاسية. ويستذكر كذلك

«وعشّار» (telónés)، وإلخ. وتختفي كذلك من كتابه الشرائع الأخلاقية المحددة. ولكنه في المقابل يُشدد على مفردات شديدة العمق مثل: «يحبّ» (agapé)، «ويعرف» (ginóskó)، «ويمكث» (menó)، «وَأَمَنَ بـ» (pisteuó eis)، «وَحَق» (aléthós)، «وحياة» (zōé)، «وشهادة» (martyria). ويحتوي كذلك على كلمات مفتاحية مثل: «الآيات»، «والأعمال»، «والمجد»، «والساعة». ونجد عنده عدداً مهماً من المفردات الآرامية، وغالباً ما يتبعها تفسيرها اليوناني مثل «رابي»، «وريوني»، «ومسيّا»، «وكيفا»، «وسلوام»؛ مما يكشف محيط الإنجيل الفرسي. وبصورة عامة، يكتب يوحنا اليونانية بشكل صحيح، ويعرف كيفية استعمال صيغ أفعالها بشكل جيد؛ ولكنه لا يعرف مدى غناها.

وتظل القيامة كل حياة يسوع العامة تحت عنوان الإسخاتولوجية المحققة (الأخريات المدركة). فمعرفة يسوع المسبقة هي معرفة كاملة، والاتحاد بالمسيح هو اتحاد تام.

وعلى الرغم من تشديد الإنجيل الرابع على التعلق الشخصي بالمسيح؛ إلا أنه يمكننا أن نستشف في كل الإنجيل تقريباً إشارات إلى الأسرار: المعمودية (في الحوار مع نيقوديموس ف. ٣؛ وشفاء الأعمى ف. ٩)؛ والإفخارستية (خطاب كفرناحوم حول خبز الحياة ف. ٦). وعلى العكس من ذلك نجد في ف. ١٣ تجديداً للإفخارستية من كل الطقوس، وربطها «بغسل الأرجل» (١٣: ١٥). وبالإضافة إلى كل ذلك، لا يمكن إلا أن نشير إلى المسيحانية التي تفتتحها مقدمة الإنجيل وتعود إليها كل خطابات الإعلان.

ويمكن للألحة المميّزات لليوحناوية أن تطول. فمع تشابه الكبير مع الإزائيين، إلا أنه يبدو الإنجيل الرابع فريداً، ويصعب فهم فرادته استناداً إلى العهد الجديد وحده، ومن هنا كانت المحاولات العديدة لمحاولة فهم هذه الفرادة من خارج العهد الجديد، عبر نظرة إزائية للأديان.

تجذّر الإنجيل الرابع

فسّر ر. بولتمان هذه الاختلافات بإعادتها إلى مصدر هو جماعة غنوصية متجذّرة في التيار المعمداني الفرسيّ تمسحت، ونزع منها الكاتب اليوحناوي كل الأساطير. ومن هنا كانت النظرة ازدواجية إلى تاريخ الخلاص: التناقض بين النور والظلمة؛ الحقيقة والباطل؛ الحياة والموت؛ المحبة والكراهية؛ العالم المحكوم بالشر والخلاص المخصص لجماعة المختارين الصغيرة بواسطة المعرفة. وهذا أظهر أيضاً فكرة المخلص السماوي، النازل من السماء ليكشف الله الحق، ويعرض الخلاص بالمعرفة، والتحرر من العالم، والعودة إلى الأساس الإلهي.

فإن الإنجيل الرابع هو، من هذه الناحية، شاهد لمشروع رسولي

فمن خلالها يجد القارئ نفسه مضطراً إلى أن يتخطى معنى النص المباشر للدخول في عالم اكتشاف المعنى المخبوء.

ففي الآية الأولى التي قام بها يسوع، في عرس قانا (٢: ١١-١)، يعطي يسوع خمراً أفضل من الخمر الأول، وبشكل فائض، وخمر العرس هنا يُذكر بالفَيْض المنتظر في الأزمنة المسيحانية. فإنها بالتالي آية المخطط الخلاصي.

وما استعمال عبارة «آية» للدلالة على الأعجوبة، إلا نقطة من لغة يوحناوية تنطلق من رمزية تملأ الإنجيل بكامله. فكل شيء «آية» بالنسبة إلى يوحنا، لأن كل ما يقوم به يسوع هو غني بالمعاني. والآيات السبع التي يتناولها يوحنا في القسم الأول من إنجيله هي:

- تحويل الماء إلى خمر في قانا (٢: ١-١٢) وهي آية خاصة بيوحنا وحده.
- تطهير الهيكل (٢: ١٣-٢٢)، ونقرأها أيضاً عند الإزائيين.
- شفاء ابن القائد الملكي (٤: ٤٣-٥٤)، ونقرأها أيضاً عند الإزائيين.
- شفاء مريض بيت حسدا (٥: ١-١٨).
- إشباع الجموع والسير على الماء (٦: ١-٢١)، ونجدهما عند الإزائيين.
- شفاء الأعمى (ف. ٩)، ويقدمها الإنجيل الرابع كمسرحية حقيقية.
- إقامة لعازر (١١: ١-٤٤)، وهو نص خاص بالتقليد اليوحناوي، ويحضر فيه لنص قيامة يسوع في ف. ٢٠.

- قصص آلام يسوع وقيامته (ف. ١٣، ١٨-٢١)

- غسل الأرجل والعشاء الأخير حيث يعلن يسوع آلامه (١٣: ١-٣٠).
- آلام يسوع وقيامته (ف. ١٨-٢١).
- ظهور يسوع على ضفة البحيرة (ف. ٢١).

الخطب

تتنوع بطريقة غير متساوية في الإنجيل، وتشكل أكثر من نصف عناصره. فهي بالأحرى حوارات بين يسوع ومحدثيه، يقودهم فيها إلى فهم موضوع الوحي، وإلى أخذ موقف منه. وعلى هذا الأساس يتفاعل المحاورون ويتقدم الحوار، فيتحوّل في بعض الأحيان إلى خطاب لا يتكلم فيه سوى يسوع، كما في الحوار مع نيقوديموس. وتهدف هذه الخطب، التي يأتي بعضها إثر آية قام بها يسوع، إلى التعريف عنه: «أنا خبز الحياة»، «أنا الباب»، «أنا الراعي الصالح»، «أنا القيامة والحياة»، «أنا هو، أنا الذي يكلمك». وهذه أبرز الخطب اليوحناوية:

أحدًا كتابية مثل حلم يعقوب، والراعي الصالح، ونبع الهيكل. كما أنه يعرف تمامًا تقاليد الحكمة.

ولكن لا يبدو أن يوحنا يستعين بتقاليد العهد القديم كما هي؛ بل يظهر أنه يستعملها من خلال تفاسير وتأويلات قامت بها اليهودية المعاصرة للبدايات المسيحية. فصورة الكلمة التي تسير بين البشر وتنصب خيمتها فيما بينهم (را. مقدمة الإنجيل)، تذكر بنص ابن سيراخ حيث تأتي الحكمة لتنصب خيمتها في إسرائيل بعد أن مرّت بالشعوب قاطبة (سي ٢٤: ٢-٨). وعلامة الخلاص المتمثلة بحية النحاس، ورمزية المنّ (صورة لكلمة الله) حاضرة أيضاً في سفر الحكمة.

ويمكن فهم بعض النصوص في ضوء التقاليد الرابينية، كما هو الأمر مثلاً في يو ٦: ٢٦-٣٤، حيث يركز الجدل حول «الخبز النازل من السماء» على معتقدات يهودية عن المنّ. فالإيمان بتجديد عطية المنّ، كان من أهم مميزات الانتظار الإسخاتولوجي اليهودي. ويمكننا الاستنتاج أن الإنجيل الرابع قريب من العالم الروحي اليوناني، ومن تطلعات الهلينية الدينية؛ وهو في الوقت عينه متجذّر عميقاً في التقليد الكتابي من خلال يهودية متعددة الأشكال. ومن هنا تكمن فرضية مرحلتي الكتابة المتلاحقتين: الأولى في وسط فلسطين، والثانية في وسط يوناني في أفسس من دون أن ننظر بأن إحداها غريبة عن الأخرى.

مضمون الإنجيل الرابع

يمكننا أن نتعرّف في الإنجيل الرابع على مواد متعدّدة يمكن ترتيبها تحت خانة القصص والخطب، وقد صاغها يوحنا بحسب الهدف الذي وضعه لإنجيله.

القصص

- قصص تدور حول رسالة يوحنا المعمدان وهي التي تفتتح الإنجيل وتتضمن ثلاثة أقسام: قصة بعثة اليهود إلى يوحنا المعمدان (١: ١٩-٢٨)؛ وتفسير معمودية يسوع على يد يوحنا المعمدان (١: ٢٩-٣٤)، والتي تهدف إلى إقناع تلاميذ المعمدان الذين كانوا يعتبرون أنّ معلمهم هو المسيح المنتظر وأنّ يسوع هو المسيح؛ ودعوة التلاميذ الأوائل (١: ٣٥-٥١).

- قصص الآيات وقد اختار الإنجيلي الرابع بعض الآيات التي نام بها يسوع، «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا أَمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ». (٢٠: ٣١). ويستعمل لكاتب اليوحناوي عبارة آية للكلام عن الأعاجيب التي قام بها يسوع التي اختار أن ينقلها في إنجيله. ولا تختص العبارة به وحده؛ ولكن كرار استعماله لها يدل على أنها تُظهر قوة يسوع من خلال أعماله.

أما أ. ليون فيلاحظ أن فاصلين يقسمان الإنجيل. الأول يفصل بين ف. ٦ و ٧؛ والثاني، يفصل بين ف. ١٢ و ١٣. وعليه، يقترح ليون أن نقسم الإنجيل إلى ثلاثة أقسام متساوية تؤكد دراسة العبارات المفتاحية. وإن شددنا الملاحظة، نجد ما يمكننا من تأكيد هذا التقسيم. فالعبارات التي تعني الحياة تسيطر تمامًا في الجزء الأول (ف. ٦-١)؛ كما يسيطر معجم الموت على الفصول ٧-١٢. وينتهي ف. ٦ بطريقة مأسوية بعد ابتعاد العديد من التلاميذ، وإعلان خيانة يهوذا، وإيمان بطرس. ويسيطر معجم المحبة (محبة، أحب) على يو ١٣-٢٠. وبالتالي يجب أن نلاحظ هنا فصلًا بين النصوص، مما يعطينا التصميم التالي:

- القسم الأول، مرحلة إعلان «الحياة» التي يريد الله إعطاءها (ف. ٦-١).
- القسم الثاني، زمن رفض اليهود الذين يريدون «موت» يسوع (ف. ١٢-٧).
- القسم الثالث، عمل يسوع الذي سيجعل من هذا الموت عمل «الحب» الأعظم والعطاء الحقيقي لهذه الحياة (ف. ١٣-٢٠).

البنية الأدبية

ومن هذه النظريات الثلاث يمكننا تقسيم السفر إلى جزئين: كتاب الآيات، وكتاب المجد. ففي شبه إجماع أكد الشراح أن مفصلة الإنجيل الرابع الرئيسية هي ١٢: ٣٧-٥٠، بالإضافة إلى الخاتمتين ٢٠: ٣٠-٣١؛ ٢١: ٢٤-٢٥. وهذه المفصلة الرئيسية هي أثر واضح يختتم بها الكاتب مجموعة ف. ١-١٢، التي تنتقل عمل يسوع وتلاميذه قبل الآلام، ويذكر فيها كل المواضيع التي وردت في هذه الفصول مثل: القيام بالآيات؛ والإيمان؛ وعدم الإيمان؛ والحياة الأبدية. وعليه، يمكننا أن نتبع هذا التصميم المفصل لإنجيل يوحنا:

- ١: ١-١٨ مقدمة الإنجيل
- ١٩: ١-١٢ كتاب الآيات
- ١٩: ١-٥١ القسم الأول: كشف يسوع في أيامه الأولى
- ١٩: ١-٣٤ اليومان الأولان: شهادة يوحنا المعمدان
- ١: ٣٥-٥١ اليومان التاليان: مجموعة التلاميذ الأولى
- ٢: ١-٤: ٥٤ القسم الثاني: من قانا إلى قانا
- ٢: ١-١١ آية الخمر: يسوع هو المسيح
- ٢: ١٢-٢٥ آية الهيكل: يسوع هو ابن الله
- ٣: ١-٢١ حوار مع يهودي: نيقوديموس
- ٣: ٢٢-٣٦ شهادة يوحنا الأخيرة لمجد المسيح
- ٤: ١-٤٢ حوار مع سامرية
- ٤: ٤٣-٥٤ حوار مع وثني: آية قانا الثانية
- ٥: ١-١٠: ٤٢ القسم الثالث: يسوع والأعياد اليهودية الكبرى

- الحوار مع نيقوديموس (٣: ١-٢١).
- الخطاب حول سلطة الابن (٥: ١٩-٤٦).
- الخطاب حول خبز الحياة (٦: ٢٢-٥٩).
- التعليم في أثناء عيد المظال (٧: ١١-٣٦).
- الخطاب في الهيكل (٨: ١٢-٥٩).
- مثل الراعي (ف. ١٠).
- الخطاب لليونانيين (١٢: ٢٠-٣٦).
- خطب الوداع (ف. ١٤-١٧).

إطار الإنجيل العام

اقترح المفسرون العديد من التصميمات للإنجيل الرابع عبر التاريخ، وذلك بحسب وجهة نظر كل منهم. فهناك من أظهر أهمية الأعياد التي تشكل مفاصل مهمة في إنجيل يوحنا، بحيث ترسم تصميمًا على قاعدة «سبوعية الأعياد»، أو «الأسابيع»، انطلاقًا من عدم استبعاد لعب الإنجيلي على رمزية العدد سبعة، ليؤكد بأن في حياة يسوع ورسالته تحقيقًا لتمام الأزمنة المسيحية وكمالها. وهذه الأعياد المفصلة هي:

- عيد الفصح الأول في اورشليم (٢: ١٣).
- عيد غير محدد في اورشليم (٥: ١).
- عيد الفصح في الجليل (٦: ٤).
- عيد المظال، وصعود يسوع إلى اورشليم (٧: ١).
- عيد التجديد (١٠: ٢٢).
- عيد فصح الصلب والقيامة (١٢: ١٢-٢٠).
- إلا أن دراسات ر. إ. براون وإ. كوتنيه المستندة على الأبحاث التي قام بها ش. ه. دودد، أظهرت أهمية يو ١٣: ١-٢. فأكدت دراساتها بأن «نهاية ف. ١٢ تلعب دور الخاتمة (١٢: ٣٧-٥٠) للجزء الأول من الإنجيل؛ وف. ١٣، بأهميته الخاصة، يعتبر مقدمة للجزء الثاني من الإنجيل وبهذا فهو يقابل مقدمة الإنجيل. وبناءً على يقسم الإنجيل إلى قسمين: كتاب الآيات (ف. ١-١٢)، وكتاب الساعة (ف. ١٣-٢٠). ويكون تقسيمه المفصل كالتالي:

- مقدمة (١: ١-١٨).
- كتاب الآيات (١: ١٩-١٢):
- إعلان الحياة (١: ١٩-٦: ٧١).
- رفض الحياة وتهديدات الموت (ف. ٧-١٢).
- كتاب الساعة (ف. ١٣-٢٠):
- وصية يسوع (ف. ١٣-١٧).
- ساعة المجد على الصليب (ف. ١٨-١٩).
- يوم الرب (ف. ٢٠).
- ملحق: توجيهات القائم من الموت لكنيستته (ف. ٢١).

الأولى (١: ١-١٨) لاهوتية شعرية بامتياز، وتتمحور حول الكلمة الأزلي؛ والمقدمة الثانية (١: ١٩-٥٢) سردية، وترتكز على شهادة يوحنا المعمدان (١: ١٩-٣٧)، وبداية عمل يسوع الرسولي (١: ٣٨-٥١).

١: ١-١٨ المقدمة اللاهوتية الشعرية يبدأ يوحنا كتابه بنقل القارئ بالفكر من عالم الزمان والمكان إلى عالم الأزل، ليكتشف مجد الكلمة ابن الله السماوي، ويتعرف إليه كإله خالق، ويفهم كيف أنه أتى عالم البشر. وكأن الابن ينسلخ من الله ليشترك البشر-الذين كسروا حلقة الشراكة مع الله-حياته الإلهية. وجعل منهم أولاداً للآب، ثم عاد إلى أبيه. وتبدو هذه المقدمة وكأنها شرح لما قاله يسوع «خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ الْآبِ وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْعَالَمِ وَأَيْضاً أَتْرُكُ الْعَالَمَ وَأَذْهَبُ إِلَى الْآبِ» (١٦: ٢٨). ويمكن أن نقسم هذه المقدمة إلى أربعة مقاطع شعرية، تتخللها شروحات وشهادات نثرية.

المقطع الأول (ع. ١-٢) الكلمة والله

المقطع الثاني (ع. ٣-٥) الكلمة والخلق

(ع. ٦-٩) شهادة المعمدان (قبل التجسد)

المقطع الثالث (ع. ١٠-١١) الكلمة في العالم

(ع. ١٢-١٣) شرح ع ١٢ ب (البنوة الإلهية)

(ع. ١٥) شهادة المعمدان (بعد التجسد)

المقطع الرابع (ع. ١٤ و ١٦) شهادة الجماعة للكلمة

(ع. ١٧-١٨) شرح ع. ١٤ و ١٦

١: ٢-١٨ الكلمة والله نحن الآن قبل الزمان والمكان. ونرافق

«الكلمة» الذي لا بداية له، والموجود قبل كل ما له بداية. «والكلمة» هو كلمة الله، الذي يعلنه ويكشفه للبشر. وهو كائن بذاته، وهو «عند الله»، ولكن يوحنا لا يترك للقارئ أن يستنتج هوية «الكلمة» لأنه هو الله ولا مجال لأي استنتاجات أخرى. فـ«الكلمة» الذي كان منذ البدء، «في البدء» «كَانَ عِنْدَ اللَّهِ». ومن البدء هو شخص متمايز، وهو في الوقت عينه الله. وقد «كَانَ عِنْدَ اللَّهِ»، وليس عند الآب. فإن علاقة الثالوث الأقدس: الآب والابن والروح واضحة مؤكدة منذ الآية اليوحناوية الأولى؛ ومجد الابن في هذه العلاقة هو مجد بذاته الإلهية، وليس مجداً اكتسبه في الزمن. وهو رأس الإنجيل اليوحناوي، «وبدء» البشارة وركيزتها، ومنه كل نعمة وحق. وهو «بدء» الخلق الروحي الجديد كما كان الخلق الأول «بدء» الخليقة في سفر التكوين.

وتأتي فكرة «الكلمة» من الفلسفة اليونانية وقد أدخلها هيراقليطس في مقدمة كتابه «Logos». ولكن يمكن أن يكون لهذا اللقب جذور كتابية أيضاً، إذ نجد اللفظ في الكلمة النبوية. فقد استشعر إرميا قوة هذه الكلمة التي «تقلع وتهدم» كي «تبنى وتغرس» (إر ١: ١٠)؛ واحتفل إشعياء النبي العائد من المنفى باستمراريتها (إش ٤٠: ٨)؛

٥: ١-٤٧ السبت

٦: ١-٧١ الفصح

٧: ١-٥٢ المظال

٨: ١-١١ المرأة الخاطئة: نص غير يوحناوي

٨: ١٢-١٠: ٤٢ التجديد

١١: ١-١٢: ٥٠ القسم الرابع: يسوع يتوجه نحو ساعة موته،

وتمجيده

١١: ١-٤٤ آية لعازر: يسوع هو الحياة

١١: ٤٥-٥٧ المجمع يحكم على يسوع

١٢: ١-٨ مائدة بيت عنيا

١٢: ١٢-١٩ الدخول إلى أورشليم

١٢: ٢٠-٣٦ مجيء اليونانيين، الساعة

١٢: ٣٧-٤٣ ختام كتاب الآيات

١٢: ٤٤-٥٠ عظة منفصلة

١٣: ١-٢٠: ٣١ كتاب المجد

١٣: ١-١٧: ٢٦ العشاء الأخير

١٨: ١-١٩: ٤٢ نصوص الآلام

٢٠: ١-٣١ يسوع القائم من الموت

٢١: ١-٢٥ خاتمة

ويمكننا أن نلاحظ في إنجيل يوحنا أننا كلما تقدّمنا في النص نتقدم في فهم سرّ المسيح. ففي حين يقدّم الإزائيون نظرة أفقية لحياة يسوع تتراوح من عماده إلى الفصح، يتقدّم يوحنا مستخدماً دوائر لولبية واسعة بحيث يقدّم سرّ المسيح بكامله في كل قسم من أقسام كتابه، التي غالباً ما تتألف من آية وخطاب.

ويمكننا أن نقول بأن الإنجيل الرابع هو الأكثر رمزية، ولاهوتاً، وصوفية. فإنجيل يوحنا هو الإنجيل: الأكثر تطوراً في الخطب، والنصوص درامية؛ والأكثر شرحاً، والأكثر تأخراً تاريخياً في نصّه النهائي. ولكنه أيضاً الأكثر تجذراً في التاريخ والأكثر حفاظاً على التفاصيل الواقعية.

التفسير

١: ١-٥١ مقدمة الإنجيل

الإنجيل بحسب القديس يوحنا هو إنجيل ظهور مجد الابن. ففي حين يُظهر متى مجد يسوع المسيح، ويبرز مرقس مجد يسوع عبد الله المتألم، ويركّز لوقا على مجد يسوع ابن الإنسان، يصّر يوحنا منذ البداية على رفع القارئ إلى عالم مجد الابن الذي هو الإله الأزلي، الذي يتخطى هذا العالم.

ويشكّل الفصل الأول مقدّمة مزدوجة للسفر بكامله. فالمقدّمة

بتجسد الابن، هي أمام خلق جديد. إذ إن عطية الحياة مرتبطة بمجيء المسيح (٣: ١٦؛ ٥: ٤٠؛ ١: ١٠). ولذا نجد في هذا المقطع كل مفردات سفر التكوين: البدء، والخلق، والنور، والحياة، وكذلك الظلمة التي تحاول إيقاع الإنسان في الموت (را. تك ٣: ١٥؛ رؤ ١٢).

١: ٦-٩ استطراد نثري: شهادة يوحنا المعمدان تأتي هذه الآيات لتقطع سياق النص الشعري، ويعتقد بعض المفسرين أنها كانت تشكل بداية الإنجيل الرابع، قبل إدخال «نشد الكلمة» ليكون مقدمته اللاهوتية (را. ع. ١٩: «وهذه هي شهادة يوحنا»). وتقدم هذه الآيات شخص يوحنا المعمدان على أنه المرسل للشهادة للكلمة الذي هو «نور العالم». فالابن وحده هو النور، مع أهمية يوحنا وعظمته. والابن هو وحده «الكلمة» الذي جاء «ينير كل إنسان»، لأنه قادر على كشف حقيقة الإنسان من جهة، وعلى إظهار الله من جهة ثانية. والابن وحده هو النور القادر أن يعلن الله، لأنه أتى للعالم، آخذاً ملء الإنسانية، وهو في الوقت عينه ملء قداسة الله. فهل كان هناك من يعتقد أن يوحنا هو «نور العالم»؟ لا يرى الإنجيل الرابع هذا! فليس يوحنا -من وجه نظره- إلا شاهداً للنور الحق يسوع.

١: ١٠-١٢ ب الكلمة في العالم وكأن هذه الآيات ملخص لكل الإنجيل اليوحناوي. إذ يلخص ع. ١١ القسم الأول من الإنجيل (ف. ١-١٢) والمتمحور حول عمل يسوع وتعليمه؛ ويلخص ع. ١٢ القسم الثاني (ف. ١٣-٢١) والذي يركز على رفض العالم للرب. وتقوم رسالة «الكلمة» على أن يجعل من البشر أولاداً لله. فيبدو ع. ١١ وكأنه تحدٍ لرسالة الكلمة في إطار شعب الله القديم «خاصته».^(١) وعارضت هذه الخاصة النعمة التي جاءت، فصارت حالتها إذاً ميؤوساً؛ ولكن بقيّة قبلت النور وآمنت، فكانت خميرة استحق أولادها أن يكونوا أولاد الله.

١: ١٢ ج-١٣ استطراد: شرح للعدد ١: ١٢ ب في حين يتمحور النشيد حول هوية الكلمة وعمله الخلاصي، يأتي الكلام هنا عن الذين آمنوا به. ففي ع. ١٢ ج تكرر لما ورد في ع. ١٢ أ. فتأتي هذه العبارة لتشرح وتوضح أنه لا يكفي أن يقبل الإنسان يسوع (ع. ١٢ أ)؛ بل المطلوب أن يثبت في إيمانه باسم يسوع (ع. ١٢ ج)، (را. ٢: ٢٣؛ ٣: ١٨؛ ١ يو ٥: ١٣). أما في ع. ١٣، فنقرأ شرح الكاتب لمعنى «أولاد الله، أي المؤمنون باسمه»، فإن المسيحيين ليسوا أبناء شعب معين، إذ إنهم أبناء الإيمان. فقد صاروا أولاد الله لا بسبب سلالة ما، أو بسبب أعمال بطولية، ولا بسبب مشيئة بشر؛ بل بسبب

(١) ولكن ساعة الآخرين غير يهود آتية لا محالة (را. ١٢: ٢٠-٢٣). وفي يوحنا ١: ١٣ سيكون الجميع -يهوداً وأمماً- خاصته الذين «أحبهم إلى المنتهى».

وقدمتها نصوص تك ١، ومز ٣٣: ٦-٩، وحكمة ٩: ١ على أنها «الكلمة» الخالقة. أما في التراجم الفلسفية المعاصرة للمسيحية، فقد مثلت كلمة «memra» الله الخالق الذي يُوحي ويُخلص. وعند فيلون، الفيلسوف اليهودي السكندري، تظهر «الكلمة» بملامح شخصية، بحيث يصفه «كإله» وسيط بين الله والعالم.

ويبدأ يوحنا إنجيله بالإشارة إلى «البدء» وفي ذلك عودة إلى سفر التكوين. ولكن مقدمة يوحنا تحدد نقطتين هامتين في هذا التكوين: الأولى بقوله، في البدء كان الله وهو ما يقوله سفر التكوين؛ والثانية بأنه أضاف أن الخلق هو عمل الكلمة في قوله «كل شيء به كان». ومن كان، ومن أوجد العالم، هو سابق لهذا العالم، مما يعني بأن يوحنا يميز مرحلتين متتاليتين: الأولى هي مرحلة الكلمة قبل التجسد، والثانية هي مرحلة الكلمة المتجسد.

ويصف يوحنا مرحلة الكلمة قبل التجسد، في صيغة الماضي المستمر الذي يشير إلى مدة غير محددة. فيسوع «كان» الله و«كان» مع الله. والوجود السابق للتجسد ليس خيالياً؛ بل يقدمه يوحنا كمسلمة أساسية. فمنذ البداية العالم زائل؛ في حين أن المسيح باقٍ. ومن البداية، المسيح يحيا ما سيحققه لتاريخنا، وفي وجودنا البشري. ولكن «الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا». فمن كان الله، أتى ليسكن بين البشر وأعطاهم السلطة ليكونوا أولاد الله. ففي يوم من أيام التاريخ، أخذ الكلمة جسداً، وصار من الخلق في العالم، وصار كائناً بشرياً، وواحدًا من البشر. ومن الملاحظ أن مفهوم اللحم لا يأخذ عند يوحنا معنى مغالياً، كما نجد أحياناً عند بولس. فبولس يرى مثلاً أن الجسد قد يناهض عمل الله، ويشل الإنسان. أما اللحم عند يوحنا هو حالة الإنسان، في محدوديته وضعفه، وحقيقة وجوده الواقعي، وهو ما صار عليه الكلمة في ملء الزمن. ويظهر بهذا يوحنا حقيقة التجسد وواقعته، فيسوع يتكلم علناً، ويستطيع البشر تفسير أعماله، لأنها تسمح بتفسيرات متعددة. كما تظهر ملامح إنسانية يسوع حقيقية: تبعه بعد المسير (٤: ٦)، وتأثره وبكاؤه أمام موت لعازر (١١: ٣٣-٣٨). ويوحنا هو أكثر من يستعمل كلمة «إنسان» للدلالة على يسوع: «هلموا انظروا إنساناً قال لي كل ما فعلت. ألعَلَّ هذا هو المسيح؟» (٤: ٢٩)؛ «لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هَكَذَا مِثْلَ هَذَا الْإِنْسَانِ» (٧: ٤٦)؛ «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً» (٥: ٤٦)، (را. ٧: ٥١؛ ٩: ١٦؛ ٢٤، ٣٣؛ ١٠: ٣٣؛ ١١: ٢٣، ٤٣؛ ١٨: ١٧، ٢٩).

١: ٣-٥ الكلمة والخلق وبعد التعرّف على هوية الكلمة بصفته الله الخالق (ع. ١-٢)، يدخل القارئ دائرة الخلق الذي يكشف الابن، لأنه يحمل ختمه (را. حك ١٣: ١؛ رؤ ١: ١٩-٢٠). فالكلمة هو السبب الفاعل والمؤثر في الخلق الذي تم «به» و«فيه» (١٥: ٥). والخلق إلهي بامتياز لأنه وجودٌ وحياةٌ ونورٌ؛ وهو عملٌ فعليٌّ وواقعيٌّ في تاريخ البشرية، وليس فكرة مجردة. ولكن البشرية،

السردية المباشرة لما سيورده الإنجيلي من خبر يسوع المسيح ابن الله، الذي جاء لتكون الحياة لمن يؤمن به (٣١: ٢٠). وما إن يبدأ يوحنا المعمدان بالشهادة لمجيء المسيح، حتى يُرسل إليه اليهود كهنة ولاويين ليتحرّوا الأمر ويستجوبوه (١٩: ١ ج). وهذه هي بداية صراع سيتواصل عبر كل الإنجيل، وسيؤدّي إلى ارتفاع المسيح على الصليب في النهاية. ويتمحور نص يو ١: ١٩-٥١ حول فترتين، تتألف كل منهما من يومين.

١: ١٩-٣٤ اليومان الأولان: شهادة يوحنا المعمدان منذ بداية اليوم الأول (١: ١٩-٢٨)، تفتح الدعوى بين يوحنا المعمدان الشاهد، واليهودية الرسمية المتمثلة في الكهنة واللاويين المرسلين من يهود أورشليم. وي طرح هؤلاء على يوحنا أسئلة تبقى من دون جواب. فيسألوه: «مَنْ أَنْتَ؟» ويأتي الجواب سلبياً ومثلثاً: «لَسْتُ الْمَسِيحَ»، ابن داود الممسوح والموعود ليجمع شعبه: «وَلَا إِبِلِيًّا»، الذي لم يمت، والمنتظر ليعود ويفتح الأزمنة المسيحانية (٢ مل ٢: ١١؛ سي ٤٨: ٩-١١): «وَلَا النَّبِيَّ» الموسوي (تث ١٨: ١٥، ١٨) الذي ينتظر شعب الله ظهوره في نهاية الأزمنة. وجواب المعمدان هو تأكيد لمن كان يظنه المسيح المنتظر، وكأنه يدعوهم للانفتاح على شخص آخر أعظم منه.

وجوهر سؤالهم الثاني «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ» (ع. ٢٥) هو كالتالي: إن كان العماد يعني الموت أي الانفصال عن كل ما يسبقه، والانتقال إلى الجديد المطلق، فما هو الجديد الذي يرمز إليه عمادك يا يوحنا؟ وفي جوابه، يعترف المعمدان بضرورة التجديد المطلق، ولكن ليس بواسطة عماد الماء؛ بل بمسحة الروح القدس، وهو ما يرفضه الذين يسجنون أنفسهم في أنظمة دينية جامدة. فإن الممسوح القادر على منح الخلاص، حاضر الآن فيما بينهم، ولكنهم لا يريدون أن يعرفوه، لأنه يجبرهم على تجديد أذهانهم.

وفي اليوم الثاني (ع. ٢٩-٣٤) يشهد يوحنا على أن يسوع أعظم منه. ويبدو أنه كان هناك من لم يكن يقبل بأن يكون يسوع هو المسيح في حين أنه اعتمد على يد يوحنا وكأنه أحد تلاميذه، فيوحنا المعلم والمعمد هو المسيح في نظرهم. وتأتي هذه الآيات لتضع التوضيح على لسان يوحنا بالذات، فيشهد عالياً بأن يسوع هو المسيح، ويُعطي براهينه على ذلك:

إنه أولاً «حَمَلَ الله» الفصحى الذي افتدى البشر بدمه (ع. ٢٩)، (را. ١٩: ٣٦؛ حز ١٢: ٤٦؛ ١ كو ٥: ٧؛ رؤ ٥: ٦). وفي هذا إشارة إلى عبد يهوه المتألم (إش ٥٣: ٧؛ أع ٨: ٣٢) الذي سيق كشاة إلى الذبح؛ وهو من استقرّ عليه الروح القدس (ع. ٣٢؛ را. إش ١١: ٢؛ حز ٣٦: ٢٧)؛ وهو ذو الهوية السرية التي تتخطى كل معرفة بشرية حتى معرفة يوحنا (ع. ٢٢)؛ وهو «ابن الله»، أي المسيح المنتظر (ع. ٣٤، را. ٢ صم ٧: ٨-١٦؛ ١ أخ ١٧: ٣-١٤؛ مز ٢: ٧).

إرادة الله الخلاصية فقط. فهل يمكننا أن نرى في ذلك محاولة دفاع عن المسيحيين، أمام من يعتبرهم خارجين عن الإيمان اليهودي المتعلق بشعب وأمة، في حين أنهم آمنوا باسم يسوع (را. ٣: ٣؛ ١ يو ٣: ٩؛ ٤: ٧؛ ٥: ١٨)؟

١: ١٤، ١٦ شهادة الجماعة للكلمة بدأ النشيد بإعلان مجد «كلمة الله» الأزلي (١: ١-٣)، أما الكلام الآن فهو عن صيرورته في الزمن. فعبارة الكلمة صار «جسداً» (والمعنى الحرفي لجسد «sax» هو «لحم») هي أقدم عبارة استعملها المسيحيون للكلام عن التجسد (رو ١: ٣: ٨؛ ١ تي ٣: ١٦)، وفيها إشارة إلى دخول «الكلمة» لهشاشة الحالة البشرية وموتها. فإنّه التخلي التام «kenos» (في ٢: ٧). ولا يتكلم النص عن دخول الكلمة في الجسد، ولا عن سكناه الجسد؛ بل يعلن أنه صار جسداً. وقد صار لحمًا وارتبط كلياً بالتاريخ البشري، ليولد أولاد الله من دون مشيئة لحم. «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً» ليكشف الله ذاته للبشر؛ فدخل البشر بالتالي في علاقة مباشرة مع ظهور الله بشخص «الكلمة»، الذي جاء حاملاً الحياة والنور والقيامة والمعرفة. فبتجسده لم يفقد الكلمة لاهوته؛ بل صار مسكن الله وحضوره على الأرض، بدلاً من الهيكل القديم (٢: ١٩-٢٢). والكاتب شاهد عيان للحدث المجيد، فقد رأى المجد الذي أظهره الرب بالآيات التي أتى بها. فهو يتكلم بصيغة المتكلم الجمع (ع. ١٤)؛ (را. ١ يو ١: ١؛ ١ بط ١: ١٦-١٨). وكأنه الناطق باسم الجماعة المؤمنة التي تنشئ المجد للرب الذي ملأ بالنعمة المؤمنين به (ع. ١٦)، وبالنعمة أعلن ظفر العهد الجديد على كل العهد القديم السابق.

١: ١٥ استطراد: شهادة يوحنا المعمدان في ع. ١٥، يُبرز الكاتب على لسان المعمدان أزلية الكلمة من جهة (را. ٨: ٥٨؛ ١٧: ٥)، ويؤكد من جهة أخرى أن المعمدان مجرد شاهد فقط لكلمة الله (١٧: ٣٠).

١: ١٧-١٨ استطراد أخير: شرح للأعداد ١٤-١٦ أظهر الله عهده المحب للبشر مرتين في التاريخ: بالناموس (موسى)، وبالنعمة (يسوع المسيح). ولكن الظهور الثاني لا يمكن أن يوضع على المستوى عينه مع الأول. فإن كان موسى قد استطاع قيادة الشعب بالشرعية، فهو لم يتمكن من أن يرى وجه الله (خر ٣٣: ١٨). أما الابن، الله الكلمة، فقد «خبر» الآب، وأظهره من خلال حياته بالذات؛ وهو ما سيبدأ الإنجيل بسرده. ويشكل هذا ع. الأخير-التي تلتقي العدد الأول (١: ١)، وتختتم النشيد-افتتاحية النص الإنجيلي اليوحناوي.

١: ١٩-١٢: ٥٠ كتاب الآيات

١: ١٩-٥١ القسم الأول: كشف يسوع في أيامه الأولى

بعد المقدمة الشعرية اللاهوتية (١: ١-١٨)، تأتي المقدمة

سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي». وفي كل الأحوال فإن صورة العبد البار موجودة عند يوحنا هي أيضًا.

ويعطي يوحنا كذلك مكانًا كبيرًا للروح القدس في تقديمه لرسالة يسوع. وفي هذا الإطار تلعب حادثة الأردن دورًا أساسيًا في كشف هوية يسوع (١: ٢٩-٣٤)، فيبدو نزول الروح القدس على يسوع كرمز يكشف ليوحنا المعمدان هوية يسوع، وكأساس لشهادته. ويوضح يوحنا في ١: ٣٢ ما يقدمه الإزائيون حول نزول الروح، فيحدد أنه «استقرَّ عليه»، وهذا ما يكرره في ع. ٣٣. وعلى خلاف ما نجد عند الإزائيين حيث يدفع الروح يسوع (مر ١: ١٢) أو يقوده (لو ٤: ١)، يؤكد يوحنا أن الروح قد استقر على يسوع، وفي هذا عودة إلى إش ١١: ٢ «وَيَحِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةُ الرَّبِّ». كما يمكن أن نقرأ تشابهاً بين الروح الذي يستقر على يسوع، وبين مجد الرب الذي كان يستقر على خيمة الاجتماع (را. عد ١٤: ١٠)، مما يعني أن يسوع هو الهيكل الإسخاتولوجي، مكان حضور الروح النهائي، وهذا ما سيؤكد بوضوح كامل يو ٢: ٢١. ولكن يسوع ليس مركز حضور الروح وحسب، إنما هو من يعطي الروح للبشر.

١: ٣٥-٥١ **اليومان التاليان:** مجموعة التلاميذ الأولى تأتي رسالة يسوع الأولى بالنسبة إلى يوحنا (١: ١٩-٢٨؛ ٢٩-٣٤؛ ٣٥-٣٧) في ثلاثة أيام: يندرج اليومان الأولان في الفصل الأول (١: ٣٥-٤٢؛ ١: ٤٣-٥١)، فيما يأتي اليوم الثالث في يوحنا ٢: ١-١١. وفي البداية كان افتتاح الدعوة، وفي هذه الدعوة يوحنا هو الشاهد (١: ٧، ٣٢، ٣٤). وهذه الدعوة ليست في الماضي فقط، فهي أيضًا دعوى ضد الجماعة اليوحناوية، وضد القارئ المؤمن الذي عليه أن يأخذ موقفًا واضحًا من الرب. ويتبع برنامج اليومين الأولين تصميمًا واحدًا: يسوع يدعو (ع. ٣٨، ٤٣)، والمدعو يشهد (ع. ٤١، ٤٥) ويأخذ موقفًا من يسوع (ع. ٣٩، ٤٩). وفي وسط النص يأتي ذكر تغيير اسم سمعان؛ ولكن من دون اعتراف إيماني من قبله (را. ٦: ٦٦-٦٩)، وفي ع. ٤١ وجد سمعان ذاته أمام من يعرف اسمه واسم أبيه، ومن يقدر أن يعطيه اسمًا جديدًا، وهذا رمز لرسالته الجديدة ولتبني الرب له. ومسيرة التلميذ هي مسيرة نظر إلى يسوع، وسماع من يتكلم عنه، واتباعه، والنظر إلى أين يسكن، والمكوث معه، وإيجاد آخرين للمسيح وحبهم إليه!

وفي اليوم الثاني (١: ٤٣-٥٢) يخرج يسوع ليدعو التلاميذ: فيلبس (ع. ٤٣) الذي يعلن أن يسوع هو ابن يوسف وريث الملك داود، وهو بالتالي المسيح الملوكي المنتظر (ع. ٤٤-٤٥)؛ ونثنائيل الإسرألي الذي لا غش فيه (ع. ٤٧) الذي شكك أولاً، وأعلن إيمانه عاليًا بأن يسوع هو ابن الله وملك إسرائيل (ع. ٤٩؛ را. مز ٢). وكان هذان اللقبان سبب رفض اليهود للمسيح يسوع أمام عظيم الكهنة

وربما يعود لقب «حمل الله» المعطى للمسيح، والذي يضعه الإنجيلي على لسان يوحنا المعمدان (١: ٢٩، ٣٩)، إلى المحيط المعمداني. ويبدو أن تلاميذ المعمدان ظلوا أميين له، ولم يروا في يسوع المسيح المنتظر، فدخلوا في منافسة مع المجموعة التي قبلت بين أعضائها أفرادًا من تلاميذ المعمدان، كما تشهد آيات عديدة من الإنجيل اليوحناوي (را. ١: ٩، ١٥، ١٩، ٢٠، ٣٠، ٣: ٢٨، ٢٩). وفي ظل إطار كهذا، لم يكن من المناسب استعمال لقب مسيحاني لا يعرفه المناهضون، مع بعض المعاني الجديدة، للدلالة على يسوع.

ويمكن فهم هذا اللقب انطلاقًا من صورة الحمل المخلص، والمحّرر، أو من خلال صورة المسيح كما نجدها في الأطر الرؤيوية وفي التراجم والتقاليد الرابينية،^(٢) مما يسمح بالاعتقاد أن التقليد اليهودي المعاصر ليسوع، رسم لمخلص إسرائيل العتيد صورة هذا الحمل. ويمكن بالتالي أن تكون جماعة يوحنا المعمدان التي تبعت يسوع قد استعانت بهذه الصورة للدلالة في المسيح، الذي سيظهر العالم من الخطايا. وأعادت الجماعات المسيحية الأولى، وخاصة الجماعة اليوحناوية، قراءة هذا اللقب وتفسيره في ضوء ما حدث مع يسوع، وفي ضوء صورة الحمل الفصحي الذي كان بالنسبة إلى الشعب اليهودي، حاميا بدمه أبناء إسرائيل. وساهم من ٣٤: ٢٠ الذي يقول «يَحْفَظُ جَمِيعَ عَظَامِهِ. وَاحِدٌ مِنْهَا لَا يَنْكَسِرُ» بتقريب الحمل الفصحي من البار المتحرر من آلامه، وهو ما يقدمه ترجم المزمور ٢٢ باعتباره اسحق كحمل الذبيحة المقدم في الفصح. وقابل المسيحيون هذه الصور مع ما حدث ليسوع، فقارب إنجيل يوحنا بين موت يسوع والفصح (١٩: ١٤) وصار يسوع هو الحمل الفصحي بالنسبة إلى الجماعة اليوحناوية.

وطبقت إذا الجماعات المسيحية الأولى صورة الحمل الفصحي الذي لا عيب فيه على شخص يسوع المسيح (١ بط ١: ١٩؛ أع ٨: ٣٢). وفي هذا الإطار تستند النصوص على إش ٥٣: ٧ المتكلم عن العبد البار الذي «ظَلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاةَ كِشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ وَكَعَجَّةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَارِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاةً». واعتبر الإنجيل الرابع أن نبوءة إش ٥٣: ١ حول عدم الإيمان الذي واجهه العبد البار قد تمت (١٢: ٣٧). وفي يو ١: ٣٤ يمكن أن يكون لقب «مختار الله» عودة إلى إش ٤٢: ١ «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَغْضَدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي

(٢) نجد هذا المفهوم في التقاليد الصّدوقية، فيطبق كاتب أخنوخ ٨٩ صورة الحمل على داود فيرفعه إلى مرتبة الخروف الذي يسحق أعداءه. وفي أخنوخ الأول ٩٠، نقرأ عن خروف نبت له قرن عظيم هو مخلص إسرائيل. ونجد في ترجم خر ١: ١٥ وهو تقليد مدرashi كان معروفًا أيام العهد الجديد حين نقرأ عن حلم رآه الفرعون حول مولد موسى، يعلن فيه أن هذا المخلص هو حمل، ابن نعجة.

(زك ٩: ٩ب)؛ في حين انتظر بعضهم الآخر ملكاً عسكرياً سيفني الأشرار (مزموه سليمان ١٧: ٢١ج)؛ واعتبر آخرون أن المسيح سيسبق الله ذاته الذي سيبسط أخيراً ملكه النهائي؛ وأكد غيرهم أن المسيح الملك سيفني أعداء إسرائيل ويُنعم على الأبرار؛ أما في قمران فقد ميّز أعضاء الجماعة المسيح الكاهن من المسيح الملك؛ وانتظر آخرون مسيحاً يكون مثلاً للتقوى.

ولا نجد في إنجيل يوحنا أن يسوع يعلن نفسه مسيحاً سوى مرة واحدة (٤: ٢٥-٢٦)، وكأنه يتلافى هذا اللقب، مع أنه لم يستطع أن يفرض الصمت على من يعتبرونه المسيح. ولكن الإنجيلي يضع لقب المسيح في أكثر من مكان: على لسان محاورى يسوع الذين يشكون به، أو يتساءلون عن هويته. وهذا ما حدث على سبيل المثال، في يو ٧: ٢١ في يوحنا ٧: ٢١ مع أهل اورشليم الذين تساءلوا عن أصل يسوع المعروف، في حين أن أصله سرّياً؛ وحول قيمة الآيات التي قام بها يسوع والتي سيقوم بها المسيح يوم يأتي. وفي يو ١٠: ٢٤ يُطرح السؤال على يسوع: «إلى متى تُعلّق أنفُسًا؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهرًا».

وبالمقابل، يعترف بعض الأشخاص أن يسوع هو المسيح، كأندراوس الذي أعلن لأخيه بطرس أنهم وجدوا المسيح (١: ٤٠) الذي شهد له يوحنا المعمدان. وأوضح فيلبس أن يسوع، ابن يوسف، هو المسيح الذي أعلنت عنه الكتب، عندما أعلن لنثنائيل أنهم وجدوا من تكلمت عنه شريعة موسى والأنبياء (١: ٤٥). فبالنسبة إلى التلاميذ، يسوع هو المسيح المنتظر الذي يأتي لتتميم الكتب، وهكذا سيظهر في الإنجيل. وفي يو ١١: ٢٧، اعترفت مرثا بأن يسوع هو مصدر القيامة وأعلنت بنوته الإلهية بقولها «نعم يا سيّد. أنا قد آمنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ»، وفي هذا الاعتراف يفسّر الإنجيلي الرابع معنى عبارة «المسيح» بواسطة لقب «ابن الله» ولقب «سيّد»، الذي أعطي ليسوع بعد قيامته، بالإضافة إلى عبارة «الآتي إلى العالم» والتي تدل على المسيح المنتظر.

ونجد في الإنجيل ألقاباً مسيحانية أخرى أعطيت ليسوع مثل: «ملك إسرائيل» (١: ٤٩؛ ١٢: ١٣)، ويمكن أن نفهم هذا اللقب من خلال انتظار مسيح ملك تكون رسالته إرساء ملك داود وسيادته. ولقد رفض يسوع كلّ مسيحانية سياسية، واختفى من بين الجمع الذي أراد تنصيبه ملكاً (٦: ١٥). فيسوع لا يأخذ سلطته من الناس؛ بل من الله. ويعترف بطرس بأن يسوع هو «قدّوس الله» (بحسب النص اليوناني لـ ٦: ٦٩)، وهي عبارة توازي «البار» ويمكن أن تعني «المسيح».

جماعة مدعوة للإيمان وللشهادة

ويصف يوحنا، في هذا النص تجمع التلاميذ حول يسوع. فبعد

وأمام بيلاطس (را. ١٨: ٣٣؛ ١٩: ٧؛ ١٨: ٥-٢٠؛ ١٠: ٣٣). وفي النهاية يأخذ يسوع لقب ابن الإنسان، ويعلن حلوله مكان سلّم يعقوب الذي يربط بين السماء والأرض (٣: ١٣؛ ٦: ٢٧، ٥٣، ٦٢)، لأنّ صليبه سيكون طريق الخلاص. وفي الوقت الذي كان فيه «المكان المقدّس» في اليهودية، هو مركز لقاء المؤمنين مع الله وبعضهم مع بعض، نجد في المسيحية أن يسوع هو مكان اللقاء الوحيد. والشرط الوحيد لهذا اللقاء هو الخروج لاتباعه، والمكوّن معه (ع. ٣٧، ٤٠)، بل فيه، لأنّه هو المكان.

يسوع هو المعلم

يظهر أنّ مجموعة التلاميذ الأولى كانت من تلاميذ المعمدان وكانت ترى في يسوع معلماً (١: ٣٨-٤٢). ويبدو محاطاً بتلاميذه، كيوحنا المعمدان نفسه. فتلميذا يوحنا اللذان تبعا يسوع بناءً على شهادة المعمدان أعطياه لقب المعلم. وقد اعترف نيقوديموس بيسوع، الذي كان يتحاور مطوّلاً مع اليهود، معلماً من قبل الله، لأن لا أحد يمكنه أن يعمل ما عمله يسوع إن لم يكن الله معه. وطلب يسوع المعلم من تلاميذه أن يؤمنوا به، لكن قلة منهم ثبتوا معه (٦: ٦٦-٧١). وطلب من الذين اعترفوا بإيمانهم به كما فعل بطرس، أن يتبعوه ولو كان في ذلك خطرٌ على حياتهم (١٢: ٢٦). ولكنه قلب العادات اليهودية التي كانت تطلب من التلميذ الذي عليه أن يخدم معلمه، فغسل بنفسه أرجل تلاميذه، وغير بالتالي العلاقة لدرجة أنه اعتبرهم أصدقاء لأنه عرّفهم كل ما سمعه من الآب (١٥: ١٥)، ولأنّه عاش معهم اختباراً حياتياً حميمياً. وهذا اللقاء الحميم يتحوّل عند التلميذ رغبة في قيادة الآخرين إلى المسيح (١: ٤١-٤٣). وهذا ما حدث مع أندراوس الذي جاء بأخيه سمعان، مؤكّداً له أنه وجد المسيح.

يسوع هو المسيح

وكلمة «المسيح» هي الترجمة العربية للكلمة العبرية «مسيح» ومعناها الممسوح. وكانت الكلمة تُستعمل في العهد القديم للدلالة على الملك الذي كان يدعى «مسيح الرب»، كما كان يمكن أن تدلّ على كل من سلّمهم الله رسالة معيّنة (خر ٢٨: ٤١؛ إش ٤٥: ١). وعدم تحقق وعد الله لداود، بحسب ٢ صم ٧: ١٢ ج، الذي يُشير لدوام ملكه إلى الأبد، حيث وعد برجاء إسخاتولوجي يُنتظر تحقيقه من خلال مجيء مسيح الرب الذي سيفتح نهاية الأزمنة.

فاعتبر مز ٨٩: ٤ أن المسيح سيظهر في إطار أرضي محدّد. وفي أيام السبي، عندما لم يعد يوجد شيء من عرش الله، أرجئ تحقيق النبوة التي أعطيت لداود إلى المستقبل البعيد. وعندما أصبحت إسرائيل تحت السلطة اليونانية، ووصل التزمّت اليهودي إلى أوجه، أخذ الانتظار المسيحاني أشكالاً متعددة، فانتظر بعضهم ملكاً مسالماً

وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الْإِنْسَانِ» وبهذا العدد، تختتم صفة «ابن الإنسان» سلسلة الألقاب المسيحانية الموجهة إلى يسوع (١: ٥١).^(٣)

أما يوحنا فيرى أن يسوع «ابن الإنسان» هو سلم يعقوب الجديد، حيث يكشف الله الأب عن ذاته؛ وهو سيناء الجديدة حيث يعطي الله الشريعة؛ وهو أيضًا هيكل العهد الجديد والوسيط بين الله والبشر. وهكذا سيظهر من خلال رسالته، وهكذا سيظهر في اليوم الثالث، يوم الفصح، عندها ستكون ساعته ساعة الحكم. وهكذا يقفل هذا القسم على وعد بانفتاح السماء لترتبط بالأرض بواسطة المسيح جسر العبور الأوحّد صعودًا ونزولًا.

٢: ١-٤: ٥٤ القسم الثاني: من قانا إلى قانا

٢: ١-١١ آية الخمر يسوع هو المسيح أختتم الفصل الأول بوعد للتلاميذ «تَرَوْنَ» (١: ٥١)، وسيختتم نص آية قانا الجليل بالإعلان أن الله «أظهر مجده» (٢: ١١). فالآية في الإنجيل اليوحناوي ليست أعجوبة تتضمن أهميتها بذاتها؛ بل علامة تدل على المقصود الأوحّد وهو: يسوع المسيح ابن الله. وآية قانا الجليل هي الأولى من سلسلة الآيات السبع (را. ١: ٢-١١؛ ٤: ٤٦-٥٤؛ ٥: ١-١٥؛ ٦: ٢٢-٢٤؛ ٢٥-٧١؛ ٩: ١-١١؛ ١١: ٤١-٤١) التي تؤلف الجزء الأول من الإنجيل (ف. ١-١٢).

وحدث هذا العرس في نهاية بدايات حياة يسوع العلنية التي امتدت على مدى سبعة أيام، كما الخلق في بداية سفر التكوين. فبعد اليوم الأول (١: ٣٥-٤٢)، واليوم الثاني (١: ٤٣-٥١) وسلسلة الألقاب التي أعطيت ليسوع وكأنها برنامج الإنجيل بكامله (المسيح، وإيليا، والنبي، وحمل الله، وابن الله، والمعلم، والذي كتب عنه موسى، وابن يوسف، وملك إسرائيل)، وانتهت هذه الألقاب بإعلانه «ابن الإنسان» (١: ٥١) رابط السماء بالأرض؛ ها هو «اليوم الثالث» (٢: ١) الذي سيختتم بإعلان أن «هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (٢: ١١). فهي الآية التي تستبق الآية العظمى، آية الصلب والقيامة والتي ستتم في «اليوم الثالث» فيظهر مجد الله بملئه. وهذا اليوم الثالث، هو في الحقيقة اليوم السابع بحسب تتابع الأحداث، لأنه اليوم الثالث بعد

سماعهم شهادة يوحنا، آمنوا به وعبروا عن إيمانهم بإطلاقهم عليه ألقابًا مسيحانية، أو عبارات توضح هويته مثل: «قَدْ وَجَدْنَا مَسِيًّا» (١: ٤١)؛ و«وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالْأَنْبِيَاءِ: يَسُوعَ ابْنَ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ» (١: ٤٥)؛ و«يَا مُعَلِّمُ، أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!» (١: ٤٩). فتلميذ يسوع بالنسبة إلى يوحنا هو من يؤمن به.

وليس التلميذ في نص دعوة التلاميذ الأوائل، من يلتحق بيسوع ويؤمن به؛ بل هو أيضًا من يذهب ليشهد أمام الآخرين عن ذاك الذي التقاه. وهكذا يذهب أندراوس لينقل لبطرس أنهم وجدوا المسيح؛ ويلتقي فيلبس ثنائيل ويعلن له أنهم وجدوا من يتكلم عنه موسى والأنبياء. فالمؤمن بالنسبة إلى يوحنا هو الشاهد في مسيرة الشهود جميعًا. والإنجيل الرابع يدخل في سلسلة طويلة من الشهود. فالإنجيل يُفتتح بشهادة يوحنا المعمدان، الشاهد للنور وللحقيقة (٥: ٣٣)، الذي شهد علنًا في إسرائيل عما رأى (٥: ٣٣). فيوحنا المعمدان يقول في شهادته: «وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ» (١: ٣٤). وكذلك يشهد يسوع، الكلمة الذي صار بشرًا، والذي كان عند الأب، عما رأى (٣: ١١). وشهد الأب ليسوع بالآيات (٥: ٣٦). وكذلك الكتب التي تحضر مجيء يسوع تشهد له أيضًا. والتلاميذ الذين تبعوا يسوع، شهدوا له بعد موته وتمجيده، ولكن بقوة روح الحق (١٥: ٢٦-٢٧). ويشهد التلميذ الذي كان يسوع يحبه في كتابته للإنجيل بهذه الأشياء التي كتبها، ومن كانوا معه يشهدون أن شهادته مطابقة للحقيقة (٢١: ٢٤). وكذلك المؤمن على مر العصور مدعو، كما التلاميذ، ليكون شاهدًا.

ويقدم إنجيل يوحنا بهذا تفكيرًا عميقًا حول من آمن بأن يسوع هو رسول الأب، وصار بهذا مسيحيًا. فالمسيحي مدعو ليرى ذاته من خلال التلاميذ المجتمعين حول المعلم. فالمؤمنون والتلاميذ آمنوا به وشهدوا له ليجذبوا إليه آخرين، لأنهم مدعوون ليينوا بينهم العلاقة عينيها التي تربط يسوع بالأب.

وابتداءً هذا الفصل الأول بالتأكيد أن يسوع هو «الكلمة» مع الله، وأنه هو الله. فقد أتى يسوع إلى العالم ليُعطي البشر المقدرة أن يكونوا أبناء الله؛ وهو ابن الله الوحيد الذي كشف الله للبشر. وجاء يوحنا المعمدان، السابق، ليشهد للنور فأكد أن يسوع هو «حمل الله» الذي يحمل خطايا العالم، وأكد أيضًا أنه رأى الروح يحل عليه، بشكل حمامة، وشهد أنه ابن الله. بالإضافة إلى إثنتين من تلاميذ المعمدان الذين سمعوا شهادة معلمهم (١: ٣٥-٣٦) وقد تبعوا يسوع، وأقاما عنده، واعترفا به مسيحيًا. ثم أعلن ثنائيل أنه «الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالْأَنْبِيَاءِ». ورأى فيه، بعد العلامة التي أعطاه إياها يسوع، «ابن الله»، ملك إسرائيل، فاستحق إعلان يسوع: «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الْآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً

(٣) تبدو صورة ابن الإنسان في علاقته مع الملائكة التي تصعد وتنزل فوقه تشير إلى رؤيا يعقوب (تك ٢٨: ١٢). وقد فسر فيلون الإسكندري سلم يعقوب كرمز لجبل سيناء، وما موسى وهارون اللذان كانا يصعدان وينزلان سيناء إلا الملائكة على السلم. وبالإضافة إلى ذلك فإن السلم هو رمز لدرج هيكل أورشليم حيث يصعد عطر الذبائح إلى السماء، وحيث يلعب عظماء الكهنة الذين يؤمنون الخدمة دور الملائكة يصعدون وينزلون سلم الهيكل «مَا أَرَهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا إِلَّا بَيْتُ اللَّهِ وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ» (تك ٢٨: ١٧)!

ليس إلا ظاهرياً لأن الساعة في الإنجيل الرابع هي الوقت الذي يحقق فيه الإنسان العمل الذي كُرس له. فـ«ساعة يسوع» هي الوقت الذي يحقق فيه الرسالة والعمل الذي لأجله أرسل إلى العالم.

فقد بدأت ساعة يسوع، بالنسبة إلى يوحنا، مع بداية رسالته، ممّا يعنى أن عمله، أي رسالته التي ستتم بموته وتمجيده، هي في طور التحقيق. وهكذا يستطيع يسوع أن يؤكد بأنه «تأتي ساعة، وهي الآن»، لأنها محكومة بالوقت الذي يمر في حياته الأرضية. ولكن وقت كشفه الكبير أمام العالم لم يتم بعد؛ بل سيأتي في حينه، وبالتالي يمكن ليسوع أن يؤكد أن ساعته لم تأت بعد.

وفي تلك الساعة، لن يعبد العباد الحقيقيون على جبل السامرة ولا في أورشليم؛ بل يعبدون الآب بالروح والحق (٤: ٢١-٢٣). وبحسب هذا النص، تميّز العبادة بالروح والحق الأزمنة الإسخاتولوجية؛ ولأن الساعة أتت بالنسبة إلى يوحنا، فإن العبادة الجديدة قد بدأت؛ وكل عبادة أخرى وبخاصة تلك التي يحتفل بها في هيكل أورشليم صارت قديمة ويجب تخطيها. ويغيّر يوحنا توقيت حدث تطهير الهيكل (٢: ١٣-٢٢) ويضعه في بداية رسالة يسوع، وليس في نهايتها كما هو الحال عند الإزائيين، وهو بهذا يعلن نهاية دور الهيكل، ويشير إلى عبادة جديدة. أمّا للسامرية فقد أعلن أن نظام العبادة المتعارف عليه قد وصل إلى نهايته.

وهذه الساعة هي أيضاً «حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون... فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (٥: ٢٩-٢٥). وفي هذا النص إشارة إلى القيامة في اليوم الأخير، ولكن يوحنا يحدد أن تلك الساعة هي هنا والآن. ألا يريد بذلك أن يشير إلى أن يسوع، بالنسبة إليه، أعطى الحياة خلال رسالته، للذين قبلوا هذه الرسالة وآمنوا به؟ وهذه هي حال مريض بيت حسد، والأعمى، والمريض، الذين شفوا لأنهم آمنوا (٤: ٤٣-٥٤؛ ٥: ١-١٥؛ ٩: ١-٤).

وأخيراً، ساعة يسوع هي تلك التي يمر فيها من هذا العالم إلى أبيه. وفي تلك الساعة، تمجد ابن الإنسان وارتفع من الأرض ليرفع معه كل البشر. ويحدد يوحنا أن هذا هو وقت دينونة العالم وأن هذه الدينونة هي «الآن» (١٢: ٣١).

وحين قال الرب لأمه «مآلي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد» (١٢: ٤) فهو يعني بالساعة: ساعة المجد (١٣: ١)، وتمام عمل الخلاص (١٩: ٣٠)، وهي ساعة تاريخية أتت ولم تتحقق بعد؛ ولكن يسوع لن يبخل بإعطاء آية تكون رمزاً «للساعة» واستباقاً لها، لمن يطيع: «مهما قال لكم فافعلوه» (١٢: ٥)، ومن يعمل «فملاوها». فقدموا. (ع. ٧-٨). وفي هذا الإطار، نفهم جواب يسوع «مآلي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد» (ع. ٤) على أنه ليس كفصل بينه

الأيام الأربعة الأولى (١: ٢٩، ٣٥، ٤٣)، وفي هذا إشارة إلى أسبوع خلق جديد، وهو ما ألمح إليه الإنجيلي في نشيد المقدّمة.

وفي قصة العرس، نجد أن خمر العرس قد نفذ قبل تمامه، مما جعل أم يسوع تتدخل عند ابنها الذي أفاض الخمر الأطيب، بشهادة رئيس المتكأ. وللوهلة الأولى يمكن أن يظن القارئ أن النص مجرد درس تقوي يدعو إلى العودة إلى الرب عند الضيق، أو إلى التمثل بأم يسوع التي عرفت كيف تساعد الآخرين في ضيقهم بالطلب من ابنها أن يتدخل، أو إلى الوعي بأن أفراح هذا العالم تبقى ناقصة لا تشبع رغبات الإنسان. ولكن الإنجيل ليس مجرد درس أخلاقي، فإنه أيضاً بشري خلاص، وإعلان تمام عهد الرب ووعوده. فالعرس رمز العهد مع الله (هو ٢: ١٨-٢٢؛ حز ١٦: ٨). فإن كل تاريخ الخلاص هو قصة عهد الله الأمين مع شعب خائن. وإنه قصة خيانات متتالية أدت إلى عدم اكتمال عهد الحب. فإن قصة شعب الله هي قصة عرس لن يكتمل إلا بإنسانية تكون أمانة لله ومخلصة له.

وفي العدد الأول نحن أمام حدث اجتماعي ترتبط به أم يسوع. ففي ع. ٢ يبرز يسوع وتلاميذه كفريق متمايز، منفصل عن العالم. وقد دعي هذا الفريق إلى العرس فلبى الرب الدعوة. ولكن سرعان ما «فرغت الخمر»، والخمر، هي كمال اكتمال العرس، وعلامة لحضور ملء الأزمنة المسيحانية بأفراحها، والتجديد الذي تحدّثه (عا ٦: ١٤؛ هو ١٤: ٨، يوء ٤: ١٨). والعرس حاضر هنا، ولكنه من دون فرح. وفشل الناس في خلق سعادة دائمة على الرغم من كل سعيهم لذلك. وحاول الرب عبر التاريخ أن يرتبط البشر به بعهد يكفل لهم الحياة والفرح، ولكنهم طالما خانوا العهد ففسدوا السعادة المعطاة لهم. وهنا يبرز وجود «أم يسوع»، وتدخلها عند ابنها، كرمز لابنة صهيون الأمانة، التي تعرف كيف تسبر معنى الأحداث، وتخضعها لمن له القدرة على التغيير. وفي مثل اليوم الثالث أعطى الله شريعته لموسى (خر ١٩: ١١، ١٥، ١٦) فلم تنجح في إيصال الشعب إلى الله، وفي اليوم الثالث أبطلت الشريعة لتترك المكان للنعمة بالرب يسوع: إنه انفتاح الأزمنة المسيحانية.

وعندما فرغت الخمر، توجهت الأم إلى ابنها وأعلمته بهذا. ولكنه رد عليها: «مآلي ولك يا امرأة! لم تأت ساعتي بعد» (٢: ٤). ولكن النص في نهايته يقول «هذه بداية الآيات ففعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه» (٢: ١١). فهل يمكن أن يُعد الحديث عن الساعة هنا تنافضاً مع تنفيذ الآية؟

للوهلة الأولى، تبدو النصوص اليوحناوية المتعلقة بـ«الساعة» متناقضة، فيعلن بعضها بأن الساعة لم تأت بعد (٧: ٣٠؛ را ٢: ٤؛ ٨: ٣٠)؛ وتؤكد نصوص أخرى، أن الساعة أتت (١٢: ٢٣؛ را ١٣: ١٧؛ ١: ١٧). وفي حين تشير نصوص أخرى إلى أن الساعة تأتي (٥: ٢٥)، (را ٥: ٢٨؛ ٤: ٢١، ٢٣؛ ١٦: ٣٢). ولكن التنافض

ونجد هذا المشهد عند الإزائيين الثلاثة، الذين يضعون الخبر قبل موت يسوع بقليل را. (مت ٢١: ١٠-١٧؛ لو ١٩: ٤٥-٤٦؛ مر ١١: ١٥-١٩)، ويعلنون أنه تسبب في اتهامه أمام مجلس اليهود (مر ١٥: ٥٨؛ مت ٢٨: ٦١).

وعمل الشعب عبر التاريخ مرة واثنين وثلاث على بناء هيكل يليق بالله، (را. ٢: ٢٠؛ ١ مل ٨: ٢٧-٣٢؛ عز ٥: ١-٢). فأين الله في هذا الهيكل؟

وتصرف يسوع كابن له السلطة على بيت أبيه الذي جعل منه الشعب صنماً يتعلقون به، وأصموا آذانهم عن تنديد الأنبياء (إر ٧: ٤). «فَطَرَدَ الْجَمِيعَ .. وَكَبَّ دَرَاهِمَ ..». وطلب عدم جعل «بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ» (ع. ١٦)؛ وكان يسوع قاسياً تجاه عبادة المال، فكيف إذا صار الهيكل مركزها؟ ولم يحطم، ولم يكسر؛ بل طرد الحيوانات، وكبَّ المال، وطلب من الباعة (ع. ١٥). فلا مجال للمساومة في هذه الأمور، ولكن ليس من يقدر على المطالبة بذلك سوى محقق الوعود (مز ٦٩: ٩). وقام اليهود يطالبونه بالبرهان على كونه «ابن الله» الذي ذكره المزمور. وأرادوا آية (ع. ١٨: ٦: ٣٠)، فكان جواب يسوع أنه بتجسده صار هو مسكن الله الحق، وجسده هو الهيكل الحقيقي الذي لا يمكن أن يُنجس، وإن هُدم بُني من جديد لأنه هو القيامة والحياة (١١: ٢٥).^(٤) ويؤكد يوحنا منذ البداية أن الصليب يظل جسد يسوع، وهو مكان حضور الله واستقرار الروح؛ ولكن هذا الصليب سيؤول إلى قيامة هذا الهيكل. ودعاهم يسوع لكي «ينقضوا» جسده (ع. ١٩) ليوصلهم إلى معنى موته وقيامته، فما جدوى الهيكل القديم إذا؟ فقد كان معداً ليقدم فيه الكهنة الذبائح لله، ولكن يسوع هو الكاهن الأوحى الذي قدم ذاته ذبيحة وقام في ثلاثة أيام (٢: ١٩). وهذا ما لم يفهمه التلاميذ إلا بعد القيامة.

وقام يسوع بفعلة نبوية على مثال ما كان أنبياء شعبه يفعلون، ويشرح يوحنا الإنجيلي العمل بشكل مزدوج: فهو أولاً توبيخ موجه ضد من يديرون الهيكل وينجسونه (٢: ١٦)، ويرتكز على مزمور ٦٩: ٩ حيث غيرة صاحب المزامير تؤدي به إلى الألم؛ وهو ثانياً تعليم موجه إلى التلاميذ، مفاده عدم الخوف أمام حدث دمار الهيكل، الذي كان قد تم ولم يعد له أثر حين دُون الإنجيل، ولأن هيكل المسحيين هو يسوع ابن الله، حيث يحل ملء اللاهوت (٢: ٢٢)، وقيامته هي البرهان.

(٤) الهيكل أيام يسوع، هو ذاك الذي بدأ هيرودس الكبير بناءه سنة ١٨ لحكمه (بحسب عاديان يوسفوس ١١/٥). ونحن الآن حوالي السنة ٢٨ م. وفي هذا الوقت، كان اليهود يرون فيه أعجوبة في الضخامة والجمال؛ ولكنه بالنسبة إلى يسوع وجماعته، موضوع صراع جوهري (٢: ١٤-١٥؛ ٥: ١٤-١٦، ٧: ٣٧-٣٩؛ ٨: ٥٩).

وبين أمه؛ بل كاتحاد كامل بينه وبينها: «ما لنا يا امرأة» ولأعراس البشر هذه. فالعرس الذي نحققه هو عرس «الساعة»، أي ساعة ظهور مجد الله. وفي كل الأحوال، من الواضح أن الإنجيلي أراد أن يبرز دور أم يسوع في الحدث، فهي التي وضعت يسوع في أجواء حالة النقص التي يعاني منها شعبها، وهي التي أطلقت الحركة. وهي «المرأة» في أولى آيات الابن، وهي «المرأة» الشاهدة والمشاركة في الآية العظيمة، آية الصليب (١٩: ٢٦). ولكن الرب وحده هو القادر على تغيير الأمور وجعل الحالة الميؤسة عيداً حقيقياً لا ينتهي. وتدخل الرب ليس بناءً على طلب لحم ودم، ولا بناءً على حاجة آتية؛ بل لأنه الابن الوحيد الذي جاء ليحمل الخلاص، ويعمل عمل الآب. وملأ الخدم أجران طهارة الشريعة ماءً (حوالي ٧٢٠ لتراً من المياه!)، فتحوّلت بإرادة الرب إلى خمر نعمة تفيض لتفرح. وكانت أجران الطهارة فارغة، فأدّى ملؤها بحسب إرادة يسوع إلى قلب الأوضاع. فإن سعادة الإنسان هي في حفاظه على قداسه تحت نظر الرب «أظهر مجده، فأمن به تلاميذه» (ع. ١١)، وإنه مجد الآب، وأظهره يسوع في آيته الأولى في قانا الجليل. والمجد هو صفة الله الخاصة، ولكن يسوع «الذي كان عند الله»، والذي «هو الله»، يشاركه فيها منذ الأزل، وقد أعطيت الآن ليراهما البشر. ويسوع لم يقم بالآيات طلباً لمجد بشري زائل؛ بل ليتجدد الآب فيه. ولكن هذا المجد لن يصل إلى تمامه إلا على الصليب، ليطال التلاميذ أيضاً فيؤمنوا به «في اليوم الثالث» (را. ٧: ٤-٥؛ ١٤: ١٣؛ ١٥: ٨؛ ١٧: ١٠).

٢: ١٢-٢٥ آية الهيكل يسوع هو ابن الله في الآية الأولى أظهر يسوع أنه «المسيح المنتظر»، وتأتي «آية» تطهير الهيكل لتظهر أنه «ابن الله». فبعد آية قانا، نزل يسوع وجماعته (أمه وأخوته وتلاميذه) إلى كفرناحوم (قرية ناحوم أو قرية التعزية)، وهي قرية في الجليل كانت مركز الجماعة الأولى (ع. ١٢). ولكن أورشليم هي المدينة الهدف حيث سيظهر مجد الرب.

ويذكر يوحنا ثلاثة أعياد فصيح يصفها بـ«فصح اليهود» (٢: ١٣؛ ٦: ٤؛ ١١: ٥٥)، ولكن الأخير سيتحوّل إلى «عيد الفصح» (١٣: ١). وكما في الآية الأولى التي تستبق الآية الأعظم، يبدو تطهير الهيكل والإعلان عن نقضه، استباقاً لكلا من: قيامة الرب، وهيكل حضور الله الحقيقي. والتركيز في هذا النص ليس إذاً على أورشليم؛ بل على هيكلها رمز حضور الله وسط شعبه (را. مر ٢: ٢٦). فإنه بيت أبيه (را. لو ٢: ٤٩)، ولكن حوّل الشعب إلى مركز تجاري. ونسي الناس الآتون للقاء الله في العيد العظيم جوهر العيد. وضاع الإيمان بالخلاص وضرورة التوبة، وتحوّل إلى مجرد طقوس لا روح لها. وأخذت الحيوانات مكان الإنسان الذي لم يعد يقدم ذاته لربه، وأخذ الصيارفة والتجار مكان المصلين الخاشعين.

(٣: ١-٤)؛ يليه في وقت ثانٍ مونولوج (٣: ٥-٨)؛ ثم ترسيخ لهذا المونولوج (٣: ١١-٢٢).

مستقبل الحوار

إن المدقق والمتابع لحوار الأديان عبر نصف قرن، يلاحظ أن هذا الحوار بات محلاً لشكوك مطية ودولية. وربما هذا يرجع إلى النتائج المحدودة التي أسفرت عنها العديد من اللقاءات الدولية، أو ربما إلى عدم اقتناع الأغلبية من العامة في معظم الأديان بجدوى الحوار. كما أن الإعلام لعب دوراً هاماً في تصدير الصدام المرتبط بجماعات عرقية ودينية، فالعولمة بدون شك قد حملت في أعماقها تناقضات. إذ أنه في الوقت الذي سعت فيه العولمة إلى خلق أنماط ثقافية واجتماعية وسياسية عالمية، نجدها قد أبرزت النزاع العرقي والديني بشكل لم تعرفه البشرية من قبل. وهنا نجد في العولمة النموذج وما يناقضه. وفي هذا الإطار جاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ كأحد تناقضات العولمة. ومنذ ذلك الوقت أصبح الإرهاب أحد التناقضات المباشرة لهيمنة العولمة، وفي هذا السياق أيضاً تأتي قصة صراع الأديان والثقافات، كأحد تناقضات العولمة.

لقد أظهرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر بوضوح أهمية الحوار بين الحضارات والأديان، ومنذ ذلك الوقت اهتمت المؤسسات المحلية والدولية بالحوار. وقد زادت المساحات الإعلامية في العالم العربي والغربي، التي تتناول الحوار، وسمعا الكثير من الأصوات المتعددة والآراء والتعليقات المتنوعة. ورغم ذلك كانت هناك دائماً شكوى من النتائج المتوقعة من هذه الحوارات، وكان التساؤل المطروح دائماً هو: هل استطاعت هذه الحوارات التأثير على رجل الشارع؟

أولاً: لا يستطيع أحد أن ينكر أن حوار الحضارات على المستوى المحلي في عدد من دول العالم أسهم بشكل كبير في خلق مساحة من الإدراك للأمور المشتركة كما بدأ يحدد مواضع الاختلاف. وفي إطار الحوار الاجتماعي الديني تجددت الدعوة إلى توسيع الأرضية المشتركة، واحترام مساحات الاختلاف وقبولها. وعلى المستوى العالمي تعددت البرامج واللقاءات الحوارية التي تدعو إليها هيئات دينية، وجهات حكومية، وكلها تركزت حول مفاهيم التعايش وقبول الآخر.

ثانياً: لقد استطاعت هذه الحوارات على المدى القصير أن تخلق أرضية جديدة للتفاهم وسماع الصوت المختلف، سوف تسهم على المدى البعيد في تشجيع الاعتدال. إلا أن بعض المواقف الراضية للآخر تضع مجهودات الحوار في مهب الريح، وتعمق الشكوك حول الآخر. ومع خطورة هذه المواقف، إلا أنها ليست الوحيدة التي تسهم

والمقطع الأخير في النص (ع. ٢٣-٢٥) مقابلة بين إيمان التلاميذ، الذين فهموا معنى الآيات ودلالاتها على مجد يسوع المسيح ابن الله، وبين الإيمان الناقص عند أولئك الذين تبعوا صانع الآيات، ولم يفهموا أنه هو الآية فلم يعرفوه (ع. ٢٣)، ولكن الرب هو الله الذي يعرف خفايا القلوب (ع. ٢٥؛ را. ٤: ١٦-١٩؛ ١٠: ١٤). وسيبرز هذا الإيمان الناقص في النص اللاحق مع نيقوديموس (٣: ١-١٠).

٣: ١-٢١ حوار مع يهودي نيقوديموس بعد الآية الأولى التي «فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ، وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ»، وكشف أنه هو المسيح المنتظر، مسيح الأزمنة المسيحانية؛ وبعد موقفه من الهيكل الذي يكشف أنه ابن الله، وأنه بالتالي حضور الله الحقيقي؛ يقدم لنا الإنجيلي يوحنا ثلاثة حوارات عن هذا الكشف: حوار مع يهودي هو نيقوديموس الفريسي (٣: ١-٢١)، وتتخلله شهادة ليوحنا المعمدان (٣: ٢٢-٣٦)، وحوار مع امرأة سامرية (٤: ١-٤٢)، وحوار مع وثني إثر آية ثانية قام بها يسوع في قانا الجليل (٤: ٤٣-٥٤).

ويدور الحدث حول زيارة ليلية قام بها «إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسٌ» (ع. ١)؛ ولكن جوهر الحدث حوار سرعان ما يتحول إلى مونولوج، وهو في الحقيقة خطاب يكشف فيه يسوع عن نفسه، بأسلوب يوحناوي بامتياز. ففي حين يأخذ نيقوديموس المبادرة في (ع. ٢)، يقتصر دوره في كل النص على طرح ثلاثة أسئلة هي في العمق تكرار لسؤال واحد: «كيف يمكن» (ع. ٤أ)؟ «ألعله يقدر» (ع. ٤ب)؟ «كيف يمكن أن يكون هذا» (ع. ٩)؟ قبل أن يختفي نهائياً في ع. ١٠-٢١، فلا يعرف القارئ ما صار إليه. وفي النص إبراز لجهل هذا المعلم الفريسي، الذي يعلن يوحنا أنه مسؤول مملوء من معرفته: «نعلم» (ع. ٢)، فيجيبه يسوع: «أَنْتَ مُعَلِّمٌ إِسْرَائِيلَ وَلَسْتَ تَعْلَمُ هَذَا» (ع. ١٠)!

ويظهر نيقوديموس في الإنجيل أكثر من مرة. فبعد هذه الزيارة الأولى يعود ليذكر في يو ٧: ٥٠-٥١؛ ١٩: ٣٩. ويعلن يوحنا في ١٢: ٤٢ أن كثيراً «مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَيْضًا، غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِيسِيِّينَ لَمْ يَغْتَرِفُوا بِهِ، لِئَلَّا يَصِيرُوا خَارِجَ الْمَجْمَعِ». وكأنه يشير إلى نيقوديموس، الذي آمن بيسوع، ولكن ليس لدرجة المخاطرة بحياته وبمصالحه لأجل إيمانه: «أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ» (١٢: ٤٣).

وظن نيقوديموس أنه في النور لأنه معلم يعرف الكثير، ولكنه لم يستفد من النور الذي جاء العالم. فمن دون نعمة الله سيقى «الجسد جسد» (ع. ٦)، حتى لو كان جسد يعرف الكثير. فإن المطلوب هو ولادة جديدة من فوق؛ ولادة ثانية بالروح. ويدور الحوار المونولوجي في ثلاثة أوقات: إعلان معرفة نيقوديموس

على إظهار ما يؤمن به وهو مفهوم يتجاوز النظرة الضيقة للدعوة والتبشير. فالحرية الدينية عملية وممارسة يتمكن الإنسان من خلالها من بناء راحته النفسية وقناعاته العقلية وكرامته.

الأمر الرابع هو أهمية عدم التعامل الانتقائي مع التراث والتاريخ. وهنا ضرورة استخدام أدوات المنهج العلمي في التعامل مع التراث والتاريخ. ففي مواقف الأزمات يتم استدعاء الأحداث التي تُشجع على رفض الآخر، وفي وقت الاسترخاء يتم استدعاء المواقف التي لها دلالات التسامح، وفي كلتا الحالتين يتم انتزاع هذه المواقف من سياقها التاريخي وهو ما يمثل عملية تحريف للأحداث. وهذه العملية الانتقائية للتراث والتاريخ من كل الأطراف تساهم في تسطيح الحوار وتراجعها.

وهنا نأتي إلى أهمية الامتثال إلى نصاب عملية تمثل تواصلاً بين القيادة والجمهير. ومنها على سبيل المثال أهمية فك الاشتباك الوهمي بين العلم والدين، وكذلك التعامل مع قضايا البيئة والاقتصاد والصحة والتعليم وغيرها من القضايا المجتمعية الهامة وذلك بهدف الإسهام في تقدم المجتمع وتقديم حلول غير تقليدية لصناع القرار. فالحوار المجتمعي المؤسس على أجندة واضحة والبعيد عن الطموحات السياسية العنيفة يمكن أن يساهم في تقديم حلول جديدة لأزمات مجتمعية معقدة وهنا يتلامس الحوار مع احتياجات وتحديات رجل الشارع ولا سيما في تلك اللحظة الماسية من التحول في منظومتنا العربية.

إن الحوار هام وضروري ولا سيما أن السيد المسيح قدم نموذجاً مميزاً في الحوار مع المختلفين في العقيدة والقومية والنوع. فالمرأة السامرية والتي أدى هذا الحوار إلى بناء جسور جديدة مع المختلف وساهم بشكل كبير في بناء مجتمع جديد ولعل حوارهم مع نيقوديموس يمثل لاهوتياً جديداً قدمه السيد المسيح من خلاله رؤية عقائدية جديدة، ولعل حواراته مع الكتبة والفريسيين ساهمت بشكل كبير في نقد الجمود الديني في عصره.

من هذا المنطلق يمكن أن يكون الحوار أملاً لمستقبل التعايش في منطقة مثل منطقتنا العربية التي تعيش أزمات كبرى وتحديات حادة. فالحوار الذي يؤمن بأهمية المشترك لكنه يحترم الاختلاف والسعي إلى بناء الجسور هو هام لنا اليوم.

إن هذا التصالح بين الدعوة والتبشير ومفهوم الحوار سوف يساعد على تحقيق العيش المشترك ويؤكد أن التعايش ممكناً في ظل الاختلاف العقائدي. فتجربة الاختلاف أمر هام واحترام الاختلاف لا يقلل من الاحترام المشترك.

الدكتور القس أندريه زكي إسطفانوس

في تراجع الحوار، وربما موته، فهناك العديد من الأسباب التي سأحاول التعرض للبعض منها:

إن غياب الحوار اللاهوتي الفقهي على المستوى المحلي والعالمي، يلعب دوراً كبيراً في تراجع الحوار، ويرجع هذا الغياب لهذه النوعية من الحوارات إلى الاعتقاد السائد بأن الحوار الفقهي واللاهوتي هو حوار يؤدي في النهاية إلى تغيير في العقائد وبذلك يصير الحوار نوعاً من الدعوة في الإسلام، ومن التبشير في المسيحية. إن هذا الاعتقاد الخاطئ الذي يربط الحوار الفقهي واللاهوتي بالدعوة والتبشير، قد أسهم في تسطيح الحوار، وضياع فرصة حقيقية للتعلم في معرفة الآخر.

إن الحوار الفقهي اللاهوتي الذي يدور حول الله، والخلود، والنوبة وغيرها من القضايا الفقهية واللاهوتية، سوف يساهم في معرفة عقيدة الآخر، ويؤدي إلى توسيع الأراضية المشتركة، وتحديد نقاط الاختلاف التي يجب احترامها في إطار التعددية. كما أن هذه النوعية من الحوارات المؤسسة على المنهج العلمي، تقود إلى عمق جديد من التعايش، وتقلل من الصور النمطية الخاطئة عن الآخر. إن نجاح الحوار الفقهي اللاهوتي يتطلب مساحة كبيرة من الشفافية، ورغبة صادقة في معرفة الآخر كما يُعبر هو عن نفسه، وليس كما أتصوره أنا.

الأمر الثاني يتمثل في أهمية التجديد الفقهي واللاهوتي حول طبيعة الاشتباك القائم بين مفهوم الدعوة في الإسلام والتبشير في المسيحية وبين مفهوم الحوار. فالإسلام والمسيحية ديانتان تبشيريّتان، إذ أنه في المسيحية كما في الإسلام يمثل التبشير والدعوة ركناً أساسياً من أركان العقيدة. وهنا فإن الاهتمام بتطوير فقه ولاهوت محلي وعالمي يصلح بين الدعوة والتبشير والحوار يصبح أمراً ضرورياً للتعايش المحلي والعالمي.

إن التصالح بين الدعوة والتبشير من جهة والحوار من جهة أخرى، لا يعني بالضرورة التخلي عن أحدهما بقدر ما يعني تحديد المجال وتأكيد الشفافية وعدم استخدام أي منها لخدمة أغراض غير معلنة أو أجندة سرية.

الأمر الثالث يمثل الحوار وحرية العقيدة أمران هامين وضروريان في العالم العربي اليوم، ولا سيما بعد ما يسمى بالربيع العربي. فلقد نادى الثورات العربية بأهمية الحرية والكرامة الإنسانية. هذه الحرية لا تقف عند حدود الحريات السياسية فقط لكنها تتحرك تجاه محاولات عديدة من أهمها الحرية الدينية. ومن هذا المنطلق هناك ارتباط عميق بين الحرية والكرامة الإنسانية. فالحرية السياسية والاقتصادية وكذلك الحرية الدينية تساهم بشكل كبير في بناء الكرامة الإنسانية لذا فمن أهم مقومات الحوار هو التأكيد على مبدأ الحرية الدينية. والمقصود هنا بالحرية الدينية هو قدرة الفرد

الخلاص مقصور على بني إسرائيل المؤمنين بالله، الذين يطبقون الشريعة بحذافيرها. وبهذا وضعه يسوع أمام حقائق تقلب كل معرفته وكل معتقده، فتساءل مندهشاً «كيف يمكن؟»

٣: ١١-٢١ توضيح والقسم الثالث من الحوار-الخطاب (ع. ١١-٢١)، هو في الحقيقة توضيح ليس فقط لتساؤلات نيقوديموس؛ بل لكل اليهود، فما يدور بين يسوع ونيقوديموس ليس سوى صدى للحوار بين المسيحيين الأوائل واليهود، بحيث يعكس النص ازدواجية تاريخية تتمثل بحدث يسوع ونيقوديموس من جهة، وقصة الجماعة المسيحية والمجمع اليهودي من جهة ثانية. ولذلك نقرأ كلاماً بالمفرد، وبالجمع في الوقت عينه «لَا تَتَعَجَّبُ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقَ» (ع. ٧؛ ر. ع. ٦، ٨). وأما في ع. ١١ فيتحوّل الكلام إلى صيغة الجمع، لتوضيح ما هو غامض في الحوار اليهودي-المسيحي.

وع. ١٢ مفترقاً مهماً جداً، ففي حين شكّلت الحقائق الأرضية موضوع خطاب يسوع السابق: «قلت لكم»، ستشكل الحقائق السماوية موضوع ما سيأتي ابتداء من ع. ١٣. ويختفي نيقوديموس غير القادر على اتّباع هذه المسيرة، فيكمل يسوع الكلام عن السماويات من وجهة نظر الله، مؤكّداً على أساسين هما: الاعتراف بحبة الله اللامتناهية للبشر (ع. ١٦-١٧)، وإرساله الابن الوحيد لخلاصهم، بحيث تكون الدينونة نتيجة لهذا الخلاص الذي يعطي البشرية حياة الله بالذات (ع. ١٥-١٦). ففي النصّ تشديد على أنّ يسوع هو الوسيط الأوحى، وأنّ رسالته الخلاصية تقوم على أنّه إنسان وإله في الوقت عينه (ع. ١٣)، وأنّ موته ليس سوى صعود إلى حيث كان قبل تجسّده (ع. ١٣).

وحركة الصعود والنزول هذه (ع. ١٤) تجد قمّتها على الصليب في فعل «رفع»، الذي يشير عند يوحنا إلى ارتفاع الصليب والمجد (القيامة). فإن الصليب بالنسبة إلى يوحنا هو ما تمّ تمجيد يسوع المسيح. ويرتكز هذا التأكيد على التوراة (عد ٢١: ٤-٩)، وهي في اليهودية السلطة العليا، وهذا إشارة إلى أهمية حدث الصليب كأساس للمسيحية. ورغم اعتبار اليهود الصليب لعنة (كما كانت الحال مع الحية في البرية)، إلا أن الله حوّله إلى رمز خلاص، وعلامة وسرّ وعربون خلاص.

أما ع. ١٥ و ١٦ و ١٨ فهي تأكيد على أنّ الإيمان هو شرط مشاركة الإنسان بالخلاص. ولا نجد عند يوحنا عبارة «الإيمان» إلا مرّة واحدة، لأنّ الإيمان عنده هو فعل «أمن»، أي أنه ديناميّة وجوديّة تلزم الإنسان فكراً وعملاً. وابتداء من ع. ١٧، نجد شرّحاً لحدث الخلاص الذي يستبعد الدينونة: فقد جاء يسوع ليخلص العالم وليس ليدين. ولكنّ هذا الخلاص يبقى خياراً فردياً، والدينونة بالتالي هي تمييز واختيار بين الإيمان وعدمه منذ الآن (ع. ١٨-

٣: ١-٤ إعلان معرفة نيقوديموس فبعد الآيات التي قام بها

يسوع، توصّل نيقوديموس، وهو «رئيس لليهود» (ع. ١) إلى نتيجة صحيحة تتعلق بيسوع، وترتكز على الآيات. فمن الواضح للجميع «أَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ» (ع. ٢). وهذه نتيجة منطقية، ولكنها تتوقّف عند المعرفة البشرية. فقد اعترف به «معلماً» مرّتين في العدد عينه (ع. ٢)، وكأنّه يجعل من نفسه تلميذاً قادراً على فهم رسالة يسوع لأنّه هو أيضاً «معلّم في إسرائيل». ولكن جواب يسوع أتى مفاجئاً: لا! فالعلم لا يكفي. والارتكاز على الآيات بهدف الوصول إلى معرفة الله، لا يوصل إلى الملكوت. ومن يبحث عن طريق السماء مدعو إلى ولادة جديدة تؤهله لرؤية ملكوت الله. فإن رؤية الآيات تحدّ الإنسان في قدرات بشرية، والمطلوب رؤية أعمق تتخطى أمور الجسد، لمعرفة العمق اللاهوتي لأعمال يسوع. والولادة من فوق (ع. ٣) التي طلبها يسوع ليست ولادة ثانية (ع. ٤) على ما فهم نيقوديموس في قراءته الحرفية لكلام الرب. وظنّ أنّه يتهم على يسوع في سؤاله: أيدخل الشيخ «بطن أمّه ثانية ويولد» (ع. ٤)؟ وهذا ظنّ الغارق في أفكاره المنطقية وفي علمه، وهو رمز للإنسان الذي لا يرى العالم إلّا من خلال الخبرة الإنسانية. فالإنسان بمفرده، لا يمكنه أن يفهم الأمور الروحية السماوية!

٣: ٥-٨ خطاب منفرد في القسم الثاني من الخطاب (ع.

٥-٨)، ينقل يسوع الكلام من حدود الخبرة البشرية، إلى عمل الله في الإنسان القادر. وهذا لا يجعل الإنسان فقط يرى الملكوت، بل يدخله أيضاً.

لا! ليس المقصود ولادة من جديد؛ بل ولادة جديدة بالروح وفق ما صرّح به النبي حزقيال: «وَأُرْسُ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِراً... وَأَجْعَلُ رُوحِي فِي دَاخِلِكُمْ» (حز ٣٦: ٢٥-٢٧). ونعم، إنّ الولادة «من فوق» (ع. ٣، ٧) هي الولادة من الماء (ع. ٥)، وهي الولادة من الروح (ع. ٥، ٨). وتفسح هذه الولادة المجال أمام وجود روحي مغاير عن الوجود المادي الجسدي، فتحرّره من المعرفة الإنسانية البحتة، ومن كل أصوليّة في المعرفة الدينية «الرَّيْحُ تَهْبُّ حَيْثُ تَشَاءُ» (ع. ٨). والإنسان الروحي هو من يقبل الانفتاح على معرفة جديدة، ورؤية جديدة، لفهم المعنى الروحي في لغة يسوع وأعماله البشرية. والإنسان الروحي هو القادر على الوصول إلى ألوهية يسوع من خلال بشريته. فقد كان ينقص نيقوديموس المرور من الاكتفاء الذاتي «نعلم» (ع. ١)، إلى «الولادة من فوق»، التي هي ولادة روحية لهذا الجسد. ولن يحصل جسد على الملكوت، إذ أنّ أهل الملكوت هم أولاد الطبيعة الروحية من أية أمة: فإن الملكوت مفتوح لكل الناس المنفتحين على عمل الروح القدس.

وهذا ما يتعجّب منه نيقوديموس الفرّيسي، الذي كان يؤمن بأنّ

إنجيل يوحنا إلى الولادة الإلهية. ولكن في حين يشير الكاتب بخاصة إلى محبة الله في عطاء ابنه: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذله ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (٣: ١٦)، فإنه يعطي أيضاً كل الأهمية لمحبة الابن لأبيه. فالابن الوحيد هو مع الآب، وهو الوحيد القادر أن يكشف الآب، ويعرف الناس به. ومحبة بالبشر، أرسل الآب ابنه ليكشفه لهم. ولكن يسوع ليس الابن وحسب إنما هو أيضاً ابن الله.

كان يمكن للكلمات العبرية «ب ن» و«ب ك ر» التي تعني الابن، أن تدل في العهد القديم على الإسرائيليين «أبناء» الله و«بناته» وأن تعبر عن حالتهم تجاه الله. ويتكلم الله عن إسرائيل كابنه البكر، ابنه الحبيب (إر ٣١: ٩، ٢٠). وكذلك الأمر عن الملك (٢ صم ٧: ١٤؛ مز ٩٨: ٢٧؛ ٧: ٢)؛ ولكن ليس بمعنى العلاقة البشرية بين أب وابنه، بل كتشبيه رمزي بالبنوة. وقد استمرت فكرة البنوة الإلهية في أدب ما بين العهدين بشكل مجازي دائماً، فاستعملت العبارة للأبرار الذين تعود عظمتهم لأمانتهم لله، وليس من المستبعد أن تكون العبارة قد استعملت للمسيح المنتظر.

ولا يضع الإزائيون هذا اللقب أبداً على لسان يسوع، وكأن يسوع قد تلافاه. أما المسيحيون الأوائل فقد طبقوا هذا اللقب على يسوع تحت تأثير معجم البنوة، وعبارة «ابن الإنسان» ومزامير التنصيب الملوكي. وهكذا فعل يوحنا الذي يضع لقب «ابن الله» على لسان شهود من الخارج يعبرون عن إيمان الجماعة: نثنائيل (١: ٤٩)، ومرثا (١١: ٢٧). وشكلت العبارة سبب اتهام ضد يسوع (١٩: ٧)، ومع ذلك فإننا نجدها ثلاث مرات في كلام يسوع عن نفسه. ففي يو ٥: ٢٥-٢٦، يستعمل اللقب في علاقته مع «الآب». وفي يو ١٠: ٣٦، يبرر يسوع استعمال هذا اللقب، فيعطيه منحى جديداً على ضوء نوعية العمل الذي يقوم به متحد باله، مختطياً كل المعاني والأحلام اليهودية. وفي يو ١١: ٤، يظهر يسوع على مستوى الله ذاته: فإن مجد الله هو مجد «ابن الله».

وبعد موقف نيقوديموس الأولي المرتكز على الآيات الخارجية، نجد أنفسنا الآن أمام دعوة إلى الالتزام الشخصي الداخلي والجذري؛ ونحن أمام دعوة إلى الاتحاد العميق بالخالص الإلهي يسوع المسيح هدف الأعمال وغايتها. وبهذا تدخل الدينونة النهائية في نسج حياتنا، وفي قلب قرارنا الإيماني، نحو اتحادنا بمشروع الله الخلاصي الذي انكشف بيسوع، أو رفضه.

النصوص يتعلق الأمر بخطر يهدد الحياة وبخسارة لا تعوض. ويمكننا تقريب كلمة «monogenès» من كلمة «يحيى د» العبرية والتي تعني «ابن وحيد» وقد طبقت على اسحق (تك ٢٢: ٢)، كما استعملت في إر ٦: ٢٦ للحن على الابن الوحيد.

١٩). وكأن الإنسان يدين ذاته. فإن توق الإنسان هو في أن يرى نفسه في النور، فإن آمن يحصل على النور الذي يظهر حقيقة أعماله، مما يعني تداخلاً عميقاً وجودياً بين الإيمان والأعمال، فيكون بالتالي قد حصل على الخلاص أي على الحياة الأبدية (ع. ٢١). وعلى عكس ذلك، إن رفض الإنسان الإيمان يظهر ميله إلى الشر وخوفه من الرؤية لئلا يكشف القناع عن أعماله السيئة (ع. ٢٠)، فيهرب من النور ويغرق في الظلمة. ولكن البار الذي يعمل الخير ينجر في دينامية متعالية فلا يدور في دائرة مغلقة لأن أعماله المكشوفة توصله إلى ملء الله.

وفي إنجيله يقدم يوحنا فكراً معتمداً عن الإيمان. والإيمان، بالنسبة إليه، هو جواب الإنسان عن رسالة يسوع الذي تجسد لخلاص البشر. ومن خلاله يفتح الإنسان على الأشياء السماوية (٣: ١١-١٣)، فيقبل عطية الله الذي أرسل ابنه كي ينال به كل إنسان الحياة الأبدية (٣: ١٦) ويولد من الماء والروح. وبه يتعرف إلى تجليات محبة الله. وإيمان المسيحي التصاق بالحقيقة «إنكم إن ثبتتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم» (٨: ٣٢). والحق عند يوحنا هو شخص الابن، الكلمة المتجسد، وبالتالي فإن الإيمان هو أن يعترف الإنسان بيسوع ابن الله، رسول الآب الآتي إلى العالم ليخلصه. وهكذا يمجّد المؤمن أصله السماوي (٧: ٢٨)، وأزليته (٨: ٥٨)، ويعترف بألوهيته (٢٠: ٢٩)،

ويلزم الإيمان المؤمن بكنيسته. فالمؤمن، بالنسبة إلى يوحنا، يقبل ابن الله (٥: ٤٣)، ويتبعه (١: ٣٩)، ويأتي إليه (٥: ٤٠). وهو يأتي إلى النور ويسير بهذا النور (٣: ٢١؛ ٨: ١٢)، ويمكث بيسوع (٥: ٥٦) وبكلمته (٨: ٣١). ويدخل المؤمن في علاقة شركة مع الابن ومع الآب فيدخل الحياة (٥: ٢٤؛ ٦: ٤٠، ٤٧)، من دون أن ينفي الإيمان بالأعمال. فيوحنا يذكر أن على المؤمن أن يحفظ الوصايا (١٤: ١٥، ٢١؛ ١٥: ١٠-١٢) التي يمكن تلخيصها بالمحبة وخدمة القريب الأخوية.

ويعود لقب الابن إلى يسوع التاريخي، إذ يعبر عن وعي يسوع لعلاقته الخاصة بالآب، والتي سمحت له بتسمية الله الآب، ومن خلال علاقة لا يمكن لأحد من المائتين القيام بها. ولذلك فهم التلاميذ أنه الابن. ولكن في حين لا يستعمل الإزائيون اللقب إلا قليلاً، فإن يوحنا يستعمله بشكل مكثف، ومداورة مع لقب «ابن الله» الذي يبقى غامضاً. ويظهر لقب «الابن» العلاقة الوثيقة التي تربط بين يسوع الذي يدعى «الابن» وبين الآب.

ويسوع في إنجيل يوحنا هو الابن الوحيد.^(٥) ويشير هذا اللقب في

(٥) وقد استعملت كلمة «الابن/الوحيد/ة» monogenès في العهد القديم لابنة يفتاح (قض ١١: ٣٤)، ولسارة (طو ٣: ١٥). وفي هذه

المسيح كلاً في الكلّ (ع. ٣٠). وأراد تلاميذ المعمدان معرفة أيّ من العمادين أهم، فكان الجواب، إنّ الأهمية ليست في العماد بحدّ ذاته؛ بل بشخص المعمّد، والعماد المسيحي باسم يسوع المسيح.

وهنا يكمل المعمدان شهادته وكأنه يعلن اعترافاً إيمانياً مسيحياً (ع. ٣١-٣٦). وهو الذي شهد للنور (١: ٧)، وشهد أنّ يسوع هو «ابن الله» (١: ٣٤)، ويشهد الآن باسم الكنيسة المؤمنة.

ومن جهة، يشكّل ع. ٣١ أساس النص (ع. ٣١-٣٦) بمعنى أنّه يمهّد للآية الأخيرة (ع. ٣٦): «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُنْتُ لَتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلَكِي تَكُونُ لَكُمْ إِذَا أَمَنْتُمْ حَيَاةَ بَاسْمِهِ» (٢٠: ٣١). ولكنّ في النص، من جهة ثانية، موضوعاً مهماً آخر، يتمثّل بدور يسوع حامل كلام الله للبشر. ولمن يسأله عن أهمية دوره في مقابل دور يسوع، يجيب يوحنا بأنّ كلامه يبقى كلاماً أرضياً لأنه «من الأرض» (ع. ٣١)، في حين أنّ يسوع «الَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقِ... يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ اللَّهِ» (ع. ٣١، ٣٤). وهذا الكلام صعب لا يقبله الناس، ولكنّ وحده من يولد من فوق (٣: ٦) يستطيع أن يقبل شهادة يسوع عن السماويات، فيؤمن بصدق الله وبالأبن. وهكذا يتحدّ المؤمن بالمسيح وبالأب، بنعمة الروح الذي يجعل منه مولوداً جديداً حياة إلهية أبدية.

ويعطي يسوع الروح خاصة بواسطة كلمته. وهو ما نجده في نصّين أساسيين يو ٣: ٣٤، ٦: ٦٣ ب. وينتهي النصّ الأول شهادة يوحنا المعمدان، وفيه توضيح لما قاله هذا الأخير في يو ١: ٣٢-٣٣. والمقصود من القول «إِنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ اللَّهِ» وأنّ يسوع هو من يعطي الروح. فبالنسبة إلى يوحنا هناك هويّة مشتركة بين كلام الله الذي يأتي به يسوع، وبين الروح الذي يعطيه، لأنّه يُظهر الروح وكأنّه التفسير لعمل يسوع «يتكلّم بكلام الله لأنّه ليس بِكَيْلٍ يُعْطِي اللَّهُ الرُّوحَ». ويلخص يوحنا في هذا النصّ نصّين من العهد القديم حول العهد الجديد (إر ٣١: ٣٣-٣٤؛ حز ٣٦: ٢٥-٢٧)، ونقرأ فيهما فعل «أعطى» الذي يستعمله يوحنا. وعند إرميا يعطي الله الشريعة المكتوبة في القلوب؛ وعند حزقيال يتعلق الأمر بشريعة الله التي تصبح في عمق الإنسان حيث روح الله، فالأمر يتعلق إذاً بعطية واحدة.

وفي النصّ الثاني «الكلام الذي أكلّمكم به هو رُوحٌ وحياة» الذي نقرأه في يو ٦: ٦٣ ب، يوضح الإنجيلي وبشكل أكبر الوحدة التامة بين كلمات يسوع والروح. ويعود العدد إلى مقطع يتبع مباشرة خطاب يسوع حول خبز الحياة، ويصف التناقض بين إيمان وعدم إيمان التلاميذ. وأكّد يسوع أنّ الإنسان، من دون عمل الروح، ليس سوى إنسان لحمي غير قادر على الإيمان لأنّ «الرُّوحُ هو الذي يُحيي، وأمّا الجسدُ فلا يُقيد شيئاً» (٦: ٦٣ أ)، ويكمل أنّ في كلامه الروح والحياة. وكان قد علمنا العهد القديم أنّ روح الله يعطي

٣: ٢٢-٣٦ شهادة يوحنا المعمدان الأخيرة لمجد المسيح

بعد ما كشفه يسوع لنيقوديموس، ينتظر القارئ خبر اعتناق هذا الأخير الإيمان، ولكنّه يتفاجأ بانتقال الإنجيل إلى موضوع آخر. فبعد أورشليم (٢: ٢٣)، ها هو في «أرض اليهودية» حيث سيقلق الفريسيّون من نجاح عماده، ممّا يضطرّه إلى المغادرة (٤: ١-٣). وفي هذا النصّ تذكير بخدمة المعمدان ورسالته، وبمناقشة معموديّته لمعموديّة الرب يسوع، وللوصول إلى التأكيد أنّ يسوع، الذي أتى بعد المعمدان (را. ١: ٣٠)، هو أعظم منه بما يفوق أيّ وصف. وقد اختفى نيقوديموس بعد حوار لا هوتي عميق، فظهر يوحنا يعلن إيمانه بيسوع على مرحلتين: يؤكّد عظمة يسوع الكاملة وفرحه أمام وجوده (ع. ٢٢-٣٠)، ثمّ يذكر بكلمات يسوع السابقة (ع. ٣١-٣٦).

ومن الواضح أنّ النصّ انعكاسٌ لإيمان الكنيسة بعد القيامة، ولكنّ الإنجيلي يضعه على لسان المعمدان قبل القيامة، وفي ذلك محاولة لإقناع اتباع المعمدان بأنّ إيمانهم بيسوع ليس خيانة للمعمدان معلمهم.

وفي ع. ١-٢ تحديد للمكان الذي كان يوحنا يعمّد فيه، وهو مكان يقع على بعد حوالي ٣٠ كلم جنوب بحيرة طبريا. ولكنّ الأهم في هذه المقدّمة هو أنّ يسوع «كان يعمّد»، وهذه المعلومة لا يذكرها أيّ من الإنجيليين خارج إنجيل يوحنا.

ويبدو أنّ الجدل كان قائماً بين تلاميذ المعمدان ويهود غير تابعي المعمدان حول «التطهير»، أو بالأحرى حول عماد يوحنا وقيّمته التطهيريّة. وهذا الجدل لم يطل تلاميذ يسوع؛ بل هو تساؤلات ضمن الدائرة اليهوديّة-المعدانيّة، حول عماد يوحنا من جهة، وحول يسوع من جهة ثانية. وجاء التلاميذ يطرحون مسألة طغيان نجاح يسوع على معلمهم (ع. ٢٦). وإنّه في نظرهم هو: «من كان مع» المعمدان، وصار «الجميع يأتون إليه». ولكنّهم يعترفون بأنّ معلمهم «شهد له» من دون أن يذكروا أنّه «عمّده». وكأنّ المقصود الوحيد من هذا النصّ، هو إدراج شهادة يوحنا المعمدان الأخيرة.

ويأتي جواب يوحنا أوسع مما طلب تلاميذه، فهو لا يجيبهم وحدهم؛ بل يجيب كل قارئ للإنجيل. ويعود من ناحية إلى ما قاله في ١: ٢: «لست المسيح»، ويضيف: «إني مُرْسِلٌ أمامه» (ع. ٢٨). فإن كان الجميع يأتون إلى يسوع، فذلك لأنّه أعطي هذا من السماء، ويسوع بالتالي لم يأخذ عماد يوحنا، لأنّ نجاحه هو من فوق. وهكذا يُحدّد يوحنا دوره بالنسبة إلى يسوع: إنّه «السابق»، ولكنّه أيضاً صديق العريس الذي يفرح لفرح العريس.

وطالما صوّر الكتاب المقدّس الله على صورة عريس أمين لشعبه (عروسه). وها الإنجيلي الرابع يطبّق هذه الصورة على يسوع «ابن الله»، ويعتبر أنّ فرح يوحنا، آخر أنبياء العهد القديم، قد تمّ لأنّ زمن الخلاص قد تمّ. وصار بإمكان يوحنا أن يخنقي ليصبح

وكأنه كان ملزمًا بالمرور في السامرة (ع. ٤)، على الرغم من صعوبة الطريق، ومن الكراهية التي كانت سائدة بين اليهود والسامريين. وقد كانت تلك الكراهية منذ إصلاح نحميا وعزرا الذي قضى بطرد كل من تزوج من السامريين. والسامريون هم بقايا الأسباط الذين لم يذهبوا إلى السبي، وتزوجوا من الوثنيين. وآمن هؤلاء بتوراة موسى وأعلنوا انتسابهم إلى يعقوب، وقدموا العبادة لله، فبنوا هيكلهم على جبل جرزيم (جبل البركات)، ولم يعيدوا بناءه بعد أن هدمه المكابيون ١٣٠ ق.م. وأتى يسوع لسوخار، على سفح الجبل، حيث لا يزال ورثة المملكة التي انقسمت عن اليهودية. والتركيز هنا هو على بئر يعقوب، التي سيقابل ماؤها الماء الذي يعطيه يسوع. ويستعمل يوحنا هنا عبارة «عين» باليونانية وليس بئر، في حين يستعمل فيما بعد لفظة بئر. ف«عين يعقوب» هي عطية الله، ولكن الناس نسيت الله وبدأت تستقي من «البئر».

ولأن الساعة كانت نحو السادسة، أي الثانية عشرة ظهرًا، فقد كان من الطبيعي أن يعطش المسافر ويتعب. وفي هذا الوقت جاءت امرأة تستقي، في حين أنه لم يكن من الطبيعي أن يأتي أحد ليستقي في منتصف النهار، إلا إذا كان يقصد الهرب من لقاء الناس.

٤: ٧-٢٦ حوار مع السامرية بدأ الرب الحوار ببساطة: «أَعْطِنِي لَأَشْرَبَ»، فظننت أنه يحاول أن يذهب أبعد من مجرد طلب الماء؛ فهو رجل وهي امرأة وما اعتاد الرجال التحدث إلى النساء؛ وهو يهودي وهي سامرية وبين الشعبين عداوة وكراهية. فكان جواب يسوع: «لَوْ كُنْتُ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ» (ع. ١٠). فصحيح أنه يهودي يطلب ماءً من سامرية، ولكن «من هو» هذا اليهودي؟ فالمطلوب أن تتخطى المرأة كل انقسام عرقي لتفهم «عطية الله».

ويتمحور الحوار (ع. ١٠-١٦) حول رمزية الماء الحي، في مقابل موضوع العطش. ففي ع. ١٠، عودة إلى طلب يسوع «أَعْطِنِي لَأَشْرَبَ»، وكأن يوحنا يلفت نظر القراء إلى أن عطش يسوع هو إلى إرواء عطش المرأة إلى الحياة الحقة. ففي الكتاب المقدس، الله هو الحياة وقد تركه الشعب لينهل من آبار مشققة (إر ٢: ١٣). واكتفت المرأة، أولاً بما ترى، «لَا دَلْوُ لَكَ وَالْبُئْرُ عَمِيقَةٌ» (ع. ١٠-١١)، ولكنها بدأت تتساءل إن كان من يكلمها أعظم من يعقوب. وسيتساءل اليهود في ف. ٨، إن كان يسوع أعظم من إبراهيم (٨: ٥٣). ولم يعد يسوع مجرد «يهودي»؛ بل صار «سيد» بالنسبة لها مع أنها لم تفهم بعد كيف سيفعل ما يقوله ولا وسيلة بين يديه. وكما فعل مع نيقوديموس، حاول يسوع أن ينقل المرأة من مستوى العطش المادي، إلى المستوى السماوي، مستوى الارتواء من «ينبوع الحياة الأبدية» الذي يتوق إليه البشر كلهم (إش ٤٩: ١٠؛ ٥٥: ١)، من دون أن يجيبها عن سؤالها المباشر. ويقابل يسوع بين ماء هذا البئر والماء الذي يعطيه هو، كما سيقابل في ف. ٦ بين

الحياة (حز ٣٧: ١-١٠)، ويأتي يوحنا ليكشف أن كلمات يسوع هي التي تعطي الروح والحياة.

ويحتوي الإنجيل الرابع بما في ذلك الفصل الثالث على أكثر من تلميح إلى سر أو فريضة العماد. فيبدو أن في هذا ف. ٣ تعليمًا مسيحيًا عن العماد. ففي ذكر أن يسوع (أو تلاميذه) كان يعمد (٣: ٢٢؛ ر. ٤: ٢)، دعوة إلى الاعتراف بيسوع كمعمد. وأما ف. ٦ فهو تعليم حول سر الإفخارستية، وهو نص متكامل حيث يقود مضغ الكلمة إلى مضغ جسد المسيح. وإن الكلمة المتعلقة بالجسد المبذول لخلاص العالم (٦: ٥١) تتعلق بالخبز الإفخارستي. ولكن يوحنا، مع تلميحاته إلى الأسرار، لا يدعو إلى الالتزام بطقوسها؛ بل يسعى إلى اكتشاف معناها العميق. وبتدوينه غسل الأرجل في أثناء العشاء الأخير المخصص لوصية يسوع الأخيرة (ف. ١٣)، يفهمنا مصدر عشاء الرب ومفاعيله. فأبعد من أنه يعطي مثالاً في غسله أرجل تلاميذه، يقترح يسوع ممارسة معينة تقوم على التأكيد أنه لا معنى للاحتفال الإفخارستي إن لم يؤد إلى الخدمة الأخوية.

ومن المهم التذكير بأن يوحنا يربط بين العبادة المسيحية في أيامه، وحياة يسوع التاريخية. فانطلاقاً من أحداث حياة يسوع، يحاول يوحنا إظهار هوية يسوع التاريخي الكاملة، وهوية الرب الحاضر في الجماعة المسيحية. وإنه يرسم خطاً يوصل بين يسوع التاريخ والمسيح يسوع الرب. وإن المسيح المتجسد الذي مات وقام ما زال حاضراً بالأسرار، في الجماعة المؤمنة. ويبقى أن تعترف الجماعة المؤمنة بهذا الحضور.

٤: ١-٤٢ حوار مع سامرية يبدو الفصل الرابع كأنه سلسلة أحداث متفرقة، لا رابط بينها. ومرت هذه الأحداث في أثناء اضطراب يسوع إلى ترك اليهودية، والعودة إلى الجليل من حيث أتى. وفي هذا الفصل، اجتاز يسوع السامرة، فدخل الإيمان إليها؛ وبعد يومين شفى ابن خادم الملك في قانا فكانت الآية الثانية. فبعد لقاء الشعب وإيصاله إلى العرس الحق والأزمنة المسيحانية، وبعد توضيح عمل الكهنة في الهيكل (٢: ١٣-٢٥)، وبعد اللقاء مع معلم الشريعة نيقوديموس (٣: ١-٢١)، ها هو يسوع في حديث مطول مع امرأة، سامرية، عرف كل ما فعلت، فكشف لها عن ذاته، وأوصلها مع شعبها للإيمان بأنه «المسيح ابن الله» (٢٠: ٣١).

٤: ١-٦ مقدمة الحوار في ع. ١-٣ تقديم لمناسبة انتقال يسوع إلى الجليل مرة أخرى، وهو ما لم يذكره الإزائيون. فلقد قلق الفرسيون من تكاثر تلاميذ يسوع ومن العماد الذي يمنحه، كما كانوا قبلاً قلقين من عماد يوحنا. ولم تقبل اليهودية بشاره يسوع وعمله، وسمع سكانها بالآيات واعترفوا بأنه «معلم من الله»، كما قال نيقوديموس؛ ولكنهم لم يؤمنوا (٢: ٢٣-٢٥). فشعر يسوع بأنه مهذد، فانسحب من اليهودية.

الخبز الذي أعطاه موسى الذي لم يمنع الموت عمّن أكله، والخبز الحق الذي يعطيه هو (٦: ٥٤).

ونجح يسوع في حمل المرأة على طلب «الماء الحي» (ع. ١٠، ١٥)، والتمثل بتعليم الله ووحيه وإعلان إرادته، وهو تعليم أسمى مما كشف للآباء، لأنّه الروح القدس بالذات (٧: ٣٧-٣٩). وانقلبت الأدوار، فانتهى القسم الأول من الحوار بالتأكيد أنّ الله هو معطي الحياة الأوحد، وليس يعقوب (ع. ١٢) أو موسى (٦: ٣٢).

وفي القسم الثاني (ع. ١٦-٢٥) يكشف يسوع للمرأة السامريّة العبادة الحقّة. وبشكل مفاجئ ينقل يسوع الحديث إلى وجهة جديدة، فيكشف للمرأة سيرتها المشبوهة وخطاياها (ع. ١٧-١٨). ففي حديث يسوع عن «الزوج»، وفي جواب المرأة عن عدم وجوده، ثم في تلميح الرب إلى وجود ستة منهم بدلاً من زوج واحد، إشارة غير مباشرة إلى الإشراف الذي كان السامريّون يعيشونه. فأما نتمهم لله لم تكن ثابتة، بل عبدوا آلهة إلى جانبه، ممّا يُسمى في لغة الأنبياء «خيانة» (هو ٢: ١٨). وأراد يسوع من المرأة أن تدعو «زوجها» فتترك الخيانات (الزوجيّة)، والعبادات التي تشرّع هذه الخطايا. وانطلق من خطيئتها الماديّة ليصل بها إلى تمييز عمق هذه الخطيئة، وأساسها المتمثل بعدم الأمانة للإيمان بالآله الحق.

وأمام نظرة يسوع الثاقبة برزت ردّة فعل المرأة (ع. ١٩-٢٠): «أَرَى أَنْكَ نَبِيٌّ»، انتقلت من نظرتها إلى رجل، يهودي، سيّد، إلى «نبيّ» يمكن أن يشبع عطشها الروحيّ، وبالتالي يمكن أن يجيئها عمّا يشغلها وشعبها: أيّ أرض هي المقدسة؟ أجبل أورشليم، الهيكل الأخير الذي صار الأول لأنّه في العاصمة، أم جبل جرزيم جبل البركة (تث ٢٧: ١٢) الأقدم والأعرق (تك ٣٣: ١٩-٢٠)؟ أين يجدر بالإنسان السجود والعبادة؟

فكان جواب يسوع: الحقيقة هي أنّ ساعة العبادة بالروح والحق قد آتت (ع. ٢١-٢٤). آتت ساعة الزمن المسيحاني المنتظر حيث «الْأَرْضُ تَمْتَلِئُ مِنْ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ» (إش ١١: ٩)؛ و«مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ إِلَى مَغْرِبِهَا» (ملا ١: ١١)؛ و«السَّمَاوَاتُ كُرْسِيِّي وَالْأَرْضُ مَوْطِئُ قَدَمَيَّ» (إش ٦٦: ١). وسألته المرأة عن «السجود»، فأجابها عن «السجود للآب». وقالت «آباؤنا»، فكلمها عن «الآب» الذي لا ينظر إلى انتماء عائليّ، أو إلى أرض معيّنة لأنّه أب الجميع؛ ولا يسكن في مكان محدّد، لأن الله روح.

وصحيح أنّ اليهود يسجدون لما يعلمون لأنهم يعرفون الكتاب المقدس بأكمله، فيما لا يعرف السامريّون منه سوى التوراة، ولكن لا اليهود ولا السامريّون يملكون حصريّة معرفة الله، لأنّ العبادة الحقيقية ليست حرفاً يطبقه المؤمن بحذافيره، فيضمن ملكية الله له وحده. وصحيح أنّ «الخلاص هو من اليهود»، لكنّ المخلص ابن هذا الشعب هو «مخلص العالم» بأسره (ع. ٤٢).

ثم قال يسوع «تأتي ساعة» (ع. ٢٣)، والمرأة «تعلم» أنّه الزمن الذي فيه «يأتي المسيح»، فيكشف كلّ الأسرار، ويجيب عن كل التساؤلات. وكان السامريّون، ينتظرون هذا المخلص الذي أطلقوا عليه اسم «*atha ab*» أي الآتي (تث ١٨: ١٨)، وكانوا يعرفون أنّه الوحيد القادر على كشف الأمور بكاملها. وأمام ما كشفه يسوع وما قاله، فهمت المرأة أنها ليست أمام مجرد نبيّ؛ بل أمام «النبيّ» (خر ٢٠: ٢١)، وربما المسيّا المنتظر. وكان الإعلان: «أنا هو»، وفي العبارة إشارة إلى اسم الله بحسب الكتب المقدّسة، وقد استعملها يوحنا مراراً للدلالة على هويّة يسوع (را. ٦: ٣٥، ٤١، ٤٨، ٥١؛ ٨: ١٢، ٢٤، ٢٨، ٥٨؛ ١٠: ٧، ٩، ١١؛ ١٤: ١١؛ ١٦: ٢٥؛ ١٣: ١٩؛ ١٥: ١، ٥). وفي حين شكّ نيقوديموس واختفى، ولم نعرف شيئاً عن تقبله الإيمان، أسرعت السامريّة تنقل البشري لأهل مدينتها، وتدعو كل الناس، بعد أن تركت الجرّة الفارغة (ع. ٢٨).

٤: ٢٧-٣٨ عمل الآب انتهى الحوار بين يسوع والمرأة السامريّة بعد إعلان يسوع مسيحانيّته. وفي هذا القسم نقرأ خبر السامريّين يأتون إلى يسوع (٢٧-٣٠)، وخبر تساؤل التلاميذ (ع. ٣١-٣٤)، وجواب يسوع الذي يعطي معنى الحدث (٣٥-٣٨).

حين فتح يسوع عينيّ المرأة، عادت إلى ذاتها واعترفت أمام الجميع: «قَالَ لِي كُلِّ مَا فَعَلْتُ» (ع. ٢٩)، وكانت أول المبشرين بين الأمم.

وحين عاد التلاميذ الذين كانوا قد ذهبوا لشراء الطعام (ع. ٨)، دعوا يسوع ليتناول غداءه، بعد أن أتوا بالطعام ليأكل. وكما نقل المرأة من الماء الأرضي إلى ماء الحياة، ينقل تلاميذه من الطعام الأرضي إلى الطعام السماويّ: تطبيق كلمة الله (تث ٨: ٣) وعمل «مسيئة الذي أرسلني» (ع. ٣٤). وبعد أن كشف للمرأة أنّه المسيح، ها هو يكشف لتلاميذه سرّ وجوده الكامن في اتّحاده الكامل بالآب، واشترাকে في تميم مشروعه الخلاصي للبشر (١٧: ٤). وما قام به يسوع تجاه السامريّة هو تميم إرادة الله.

وتمّ فرح الحصاد بظهور المسيح. فقد تمّ يسوع مشروع الآب، وجاء بالسامريّين الغرباء إلى الخلاص، ولكنه الآن يُشرك تلاميذه بالعمل الذي حقّقه. فرغم أنّه هو الذي زرع، ولكنه يطلب منهم أن يكونوا شركاء الحصاد، كما كانت السامريّة. ويسوع رسول الآب، يُرسل تلاميذه ليشاركوه عمله بالذات، فيؤمّن الناس به بواسطة كلمتهم (١٧: ٢٠)، ويكون الحصاد وفيراً.

٤: ٣٩-٤٢ يسوع مخلص العالم في النصّ عرض مزدوج لاعتناق الإيمان بالرب يسوع. فقد آمن العديدون «بسبب كلام المرأة» (ع. ٣٩)، ولكن «آمنوا به أكثر جدّاً بسبب كلامه» (ع. ٤١). ففي ع. ٣٩ عودة إلى ما انقطع في ع. ٣٠ بعد عودة التلاميذ. وكما في نصّ دعوة التلاميذ الأوائل (١: ٣٦-٤١) حيث

فلم يقبلوه؛ وللسامريين فآمنوا بكلامه وأعلنوا أنه «مخلص العالم»؛ وللجليليين البسطاء فتعلقوا به لأنه صانع عجائب! أما ابتداءً من هذا الفصل فستطلق الصدامات، التي ستتمحور حول آيات عظيمة يصنعها يسوع في أثناء أعياد يهودية رسمية، ستؤدي إلى الحكم عليه بالصلب. ويمكننا أن نتبين في هذا الفصل أقساماً ثلاثة هي: أعجوبة شفاء (ع. ١-١٥)؛ يليها جدال حول السبت (ع. ١٦-١٨)؛ ثم خطاب يكشف فيه يسوع عن سرّه (ع. ١٩-٤٧).

٥: ١-١٥ آية شفاء مريض بيت حسد في هذا النص مشاهدان، يبرز الأول (ع. ١-١٩) أعجوبة شفاء مريض بيت حسد يوم سبت، ويخبر الثاني بردة فعل اليهود أمام هذا الشفاء (ع. ٩ب-١٥). وإطار الشفاء هو «عيد لليهود» ولا يذكر يوحنا اسمه ولا تفاصيله، على غير عادته. وسرى في محور النص (ع. ٩ب) أن المقصود هو يوم السبت، ولكن ربّما كان المقصود من ذكر «العيد»، هو تبرير وجود يسوع في أورشليم في بداية هذا القسم الذي سيمتد حتى الفصل الثاني عشر، معلناً الخلاص الذي يحققه يسوع بالأعمال والأقوال، من خلال احتفالات الشعب اليهودي بالخلاص الذي حققه لهم إله العهد. وانطلاقاً من هذا العيد، ستشهد أورشليم المدينة المقدسة الصراع بين يسوع والسلطات اليهودية، حتى الآلام والصلب والقيامة.

وفي ع. ٢ يصف الإنجيلي بدقة بركة «بيت حسد»، التي أظهرت الحفريات الحديثة وجودها ومساحتها الكبيرة وأروقها الخمسة، وقد ظلت حتى القرن الثاني ب. م. مصحة على اسم الإله الشافي سيرايبس. وكان المرضى من كل الأجناس يئمون هذه المصحة، التي يبدو أن العادات الوثنية واليهودية اختلطت فيها لتجعل منها رجاء لمن ليس له رجاء.

وفي هذا الإطار، يكون الشفاء ممكناً فقط لمن له القوة على أخذه. وكأننا أمام الشريعة التي يمكنها أن تعطي النعمة للقادر وحده؛ في حين يبقى المريض عاجزاً تحت وطأة مرضه. وهذا ما كانت عليه حال مريض بيت حسد منذ ثمان وثلاثين سنة، حتى قارب اليأس. وكالعادة رأى يسوع، وعلم (ع. ٦)، وسأله «أتريد أن تبرأ؟» وكان المريض قادر على رفض الشفاء؛ ولكن السؤال يرمي بالطبع إلى أبعد من الشفاء الجسدي. فالمريض الذي طال مرضه وطال انتظاره، ربّما يكون قد وصل إلى قطع الأمل من الحياة، والمطلوب إنكفاء الرجاء بالخلاص، بعد أن ذهب قوّته وصار وحيداً (ع. ٧). ومع أنه يريد أن يشفى، ولكنه غير قادر على ذلك (رو ٧: ١٨)، فإنه بحاجة إلى نعمة الرب، فقال له يسوع: «قم. احمل سريرك وامش»؛ ولم يقل له: «واذهب إلى بيتك» (كما عند مر ٢: ١١) «وحمل سريرته وامش» في طريق الرب.

وبكلمة واحدة بريء المريض، فكلمة الرب قوّة حياة تعمل عند من

كل مدعو يدعو آخرين، حملت المرأة شهادتها (ع. ٣٩) للناس فأتوا إليه، والتقوه ومكث عندهم يومين، وتنج عنهما إيمانها بأنه المخلص (ع. ٤٢). وحين مكث يسوع يومين عند السامريين، هدم الحواجز وأبطل الحدود، وحقق دعوة شعب الله ليكون نوراً لكل الأمم، ويحمل الخلاص لكل البشر، لأن الأرض كلّها لله (خر ١٩: ٥-٦).

٤: ٤٣-٥٤ حوار مع وثني: آية قانا الثانية ترك يسوع اليهودية التي يعتبرها يوحنا وطن يسوع الذي لم يقبله (ع. ٤٣). ففي حين قبله السامريون بعد سماع كلامه (ع. ٤١)، قبله الجليليون بسبب الآيات التي قام بها في أورشليم (ع. ٤٥). وتأتي هذه الآية الثانية في قانا، وكأنها لوم لليهود الذين يجعلون من الآيات والعجائب أساساً لإيمانهم. والحال أن الجليليين أيضاً سيرفضون المسيح، كما فعل أهل اليهودية (٦: ٦٦). وجاء يسوع مرّة ثانية إلى قانا، حيث ستتكل رحلته الأولى، من أورشليم إلى الجليل (ع. ٤٣، ٥٤، ٤٧)، بآية شبيهة بالآية الأولى التي حدثت في هذه البلدة (٢: ١-١١). وكما في آية قانا الأولى، يقف يسوع أمام حالة تعسة، يلعب فيها الخدم دوراً مهماً، يأخذ فيها الإيمان مكانه.

يدور النص حول أهمية الإيمان بالكلمة التي تثمر حياة أبدية، من دون معاينة الآيات التي تؤدي إلى إيمان منطقي بشري، وربما يتحول إلى شك إن غابت الأعجوبة (ع. ٤٨). ولا يذكر يوحنا شيئاً عن خادم الملك، كما أنه لا يذكر أيّ تفصيل عن الولد المريض، فالمهم هو خطورة حالته من ناحية، وقدرة الرب من الناحية الأخرى.

ويبرز الإنجيلي قلق الأب من احتمال موت ولده وإلحاحه في طلب معجزة الشفاء، ولكن الرب أعطاه معجزة الإيمان الذي يثمر حياة: «ابنك حي» (ع. ٥٠). فدأمن الرجل بالكلمة التي لا يمكن أن يقولها سوى الله، فكانت الحياة لولده في اللحظة عينها (ع. ٥١-٥٢)، وفهم أن الأعجوبة ليست سوى آية تدل على معطي الحياة، «فأمن هو وبيته كله» (ع. ٥٣). ولا يمكن لأي آية أن تخلق إيماناً، فالآية ليست سوى تثبيت للإيمان.

وينتهي هذا النصّ قسمًا كاملاً، يمكن أن نعطيهِ عنواناً «من قانا إلى قانا» (٢: ١-٤: ٥٤). ويختتم سلسلة الأجوبة المتفاوتة عن كشف يسوع لذاته لكل من: نيقوديموس الذي لم يعلن إيمانه؛ والسامرية التي آمنت وشهدت؛ وخادم الملك الذي آمن هو وأهل بيته. وبهذا يؤكد أن يسوع هو حضور الله المحيي بين البشر، ولكن الحصول على الحياة مرتبط بأن يؤمن الإنسان به، وهو ما لم تفعله خاصته!

٥: ١-١٠ القسم الثالث: يسوع والأعياد اليهودية الكبرى

٥: ١-٤٧ السبت على مدى الفصول السابقة، كشف يسوع نفسه للفريسيين والكتبة في أورشليم فرفضوه؛ وللشعب في اليهودية

يوم يجبر الرب كسر شعبه ويشفي رضى ضربه» وإش ٥٣: ٥ «تأديب سلامنا عليه وبحبره شفيانا» وهو ١١: ٣ «فلم يعرفوا أنني شفيتهم». هذه بعض الآيات في العهد القديم التي تتحدث عن الرب الشافي. كما أن هناك آيات في العهد الجديد تتحدث عن شفاء السيد المسيح لمرض وآلام البشر مثل مت ٤: ٢٣، ٢٤: ٨ و ١٦: ١٢ و ١٥: ١٤ و ١٤: ١ و ٣٤: ٣ و ١٠: ٤ و ٤٠: ٩ و ١١: ١١ ونقرأ أيضاً عن معجزات شفاء صنعها التلاميذ في أع ٣: ١-١٠، ٨: ٧، ١٩: ١٢. كما أن هناك آيات توصينا بشفاء أمراض الآخرين والصلاة لأجل بعض لننال الشفاء منها مت ٨: ١٠ ولو ٩: ١٠ وبع ٥: ١٦.

أنواع الشفاء

لقد خلق الله الإنسان ككيان كامل روح ونفس وجسد، ولذلك عندما نتحدث عن الشفاء نعني علاج لجميع جوانب الإنسان وليس جانب واحد. ويجب أن ندرك أن عمل المسيح على الصليب فيه شفاء لجوانب الإنسان المختلفة «بحبره شفيانا». وننال هذا الشفاء بالإيمان بعمل السيد الكامل من أجلنا على الصليب ليحبر كسرنا ويشفي ارتدادنا كما هو مكتوب «أما البار فبالإيمان يحيا» حب ٢: ٤، رو ١: ١٧. ولكن دعونا نستوضح ملامح الشفاء لجوانب الإنسان المختلفة:

الروح: وهي الجانب الذي كان في تواصل مع الله ونفهم أنه انفصل عن الله عند سقوط الإنسان في جنة عدن. فلقد حذر الله الإنسان أن يوم تأكل منها موتاً تموت. وأكل الإنسان من ثمر الشجرة وطرد من الجنة. ولكن لم تنتهي القصة بهذه النهاية الدرامية ولكن منذ البداية نرى الله يصنع أقمصه من جلد لآدم وحواء وهي إشارة للموت البديل الذي رأيناه في ذبائح العهد القديم إلى أن نصل إلى الذبيحة الكاملة شخص السيد الفادي ربنا يسوع المسيح. فلقد كان الصليب علاج الله لموت الإنسان وشفاء وإنقاذ له من ظلمة الموت وحياة البعد عن الله.

الجسد: لقد تأثرت أجسادنا بلعنة الخطية فأصابها التعب والألم والجروح والمرض وصولاً للموت لأننا من التراب وإلى التراب نعود. ولكننا نرى يد الرب الشافية في العهد القديم حيث نجد أن الله استخدم أنبيائه لشفاء أمراض البشر وإقامتهم من الموت، مثل: صلاة إبراهيم لشفاء أبيمالك (تك ٢٠: ١٧) وصلاة إسحق لزوجته رفقة لكي تلد بنين (تك ٢٥: ٢١). وصلاة رجل الله لشفاء يد الملك يربعام (١ مل ١٣: ٦) وشفاء النبي إيليا لابن المرأة التي كانت تعوله في مدينة صرفة وهناك احتمال أنه أقامه من الموت (١ مل ١٧: ١٧ - ٢٤). وشفاء أليشع لبرص نعمان السرياني (٢ مل ٥) كما أنه أقام ابن المرأة الشونمية (٢ مل ٤: ٣٢ - ٣٧) بل إننا نقرأ أيضاً أن عظامه أقامت إنسان ميت (٢ مل ١٣: ٢١).

يسمعها. ولكن اليهود لم يروا في عمل الرب حياة و خلاصاً (ع. ١٧: ١). إش ٣٥: ٤-٦) بل خرقاً لوصية احترام السبت؛ فطالبوا المريض الذي انتظر ثمان وثلاثين سنة ليحمل سريره، أن يبقى جامداً محمولاً عليه قائلين: «لَا يَحِلُّ لَكَ» (ع. ١٠). ولكن المريض الذي شفي أعلن أن السلطة عليه لم تعد للوصية، بل لمن قال له «احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ»، وكأنه في قوله يدل على سلطة سرية موازية لمن وضع شريعة السبت، أي الله. وقوله هذا أثار غضب السامعين، فما عادوا يريدون معرفة شيء إلا هوية هذا الذي يتكلم بسلطة. ونسوا الأعجوبة، ونسوا المريض الذي شفي، وصار همهم محاكمة من خرق الوصية. ولكن يسوع هو المجهول المختفي عن عيون من لا يقبله!

أما اللقاء الثاني مع من شفي فكان في الهيكل بعد أن كان هذا المكان المقدس محظوراً عليه بسبب مرضه. فإنه الآن في بيت الآب وفي حضرة الابن الذي يعرفه بنفسه، ويحذره من خسارة الحياة التي نالها إن هو لم يعرف كيف يحافظ عليها بسيرته الحسنة. وهكذا تحول هذا الإنسان، أمام اليهود، إلى شاهد على «أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الَّذِي أُبْرَأَهُ» (ع. ١٥).

الشفاء

تتحدث قصة عن نهاية الزمان ويوم الدينونة وكيف سيقف جميع الناس أمام الرب الديان ليقدم كل فرد حساب عما فعل في حياته. ووسط هذا الوادي المتسع الذي تجمع فيه مليارات من البشر بدأت حالة من التمرد والرفض من جهة الدينونة وبأي حق يحاسب الله البشر. وظهرت أصوات معترضة كثيرة تتساءل كيف يحاكمنا الله وهو لم يختبر ما قد مررنا به من ظروف وآلام. وبدء البعض يتحدث عن خيانة الأصدقاء ورفض الآباء والتعذيب والآلام والسمعة التي تلوثها الأسنة. وآخرين يتحدثون عن رفض المجتمع والفقر وموت الأحباء... إلخ. إلخ. وهنا جاء صوت السيد واضحاً وجلياً لقد مرت بكل ما عبرتم عنه وأحسست بما تشعرون به وأدركت طبيعة الحياة الإنسانية. كما نقرأ في رسالة العبرانيين ٤: ١٤، ١٥ و ٢: ١٧، ١٨. فتقننا في الله، الممدودة يده للشفاء تتبع ليس فقط من وعده أنه الرب الشافي (خر ١٥: ٢٦) ولكنها تستند كذلك على إنسانية السيد الذي عاش كإنسان مثلاً وبالتالي قادر أن يلمس حياتنا وأجسادنا ونفوسنا بيده الشافية. هذا هو ما فعله عندما كان على الأرض منذ حوالي ألفي عام وهذا هو ما زال يفعله حتى الآن.

آيات الشفاء

تث ٣٢: ٣٩ «سحقت وإنني أشفي وليس من يدي مخلص» ومز ١٠٣: ٣ «الذي يشفي كل أمراضك» ومز ١٠٧: ٢٠ «أرسل كلمته فشفاهم» وجا ٣: ٣ «للقتل وقت وللشفاء وقت» وإش ٣٠: ٢٦: «في

تخرج من مخ الإنسان ليتفاعل مع أمور مختلفة. ولكننا نعني الجزء المعنوي من تفاعلاتنا مع مواقف وتجارب حياتنا المختلفة وما تركته من جروح وآثار تختلف من فرد لآخر. وقد شبهها (سيماندز، شفاء المشاعر الجريحة، ص. ١٨) مثلما نأخذ قطاع عرضي في ساق أحد الأشجار ونكتشف أن الحلقات الداخلية توضح مراحل نمو الشجرة وما مرت به من فترات جفاف أو ازدهار أو إصابة بمرض أو حريق... إلخ. فهي الجزء الهش فينا والتي من السهل أن تتأثر بكل ما نمر به خلال حياتنا. وتحتاج المشاعر إلى تعامل خاص ليس فقط بالصلاة وطلب الرب ولكننا نحتاج مرات أن نتعامل مع مواقف حياتنا بهدوء ونواجهها ونغير أمور بنفوسنا لنستطيع أن نتغلب على مشاكل النفس. فما فعله معنا أبائنا وكيف أعلنوا لنا عن محبتهم واهتمامهم بنا أثناء فترات نمونا أو لم يعلنوا، مرات ما ترك آثار سلبية داخلنا خصوصاً عندما شعرنا أنهم قساة علينا أو عندما أبدوا اهتمام بأخوة لنا أكثر منا أو الكلمات السلبية التي كانوا يصفوننا بها سواء عندما نخطئ أو لمجرد إظهار سيطرتهم علينا. وكذلك المجتمع سواء الجيران أو المدرسة وتعاملات الزملاء والأقران معنا منذ نعومة أظافرنا أو المدرسين وكيف كانوا يهتمون بشرح الدروس بكل مودة وإخلاص أم كنا نجد منهم السخرية والعقاب الذي كان يصيبنا بالضيق والمهانة. ومواقف أخرى كثيرة أثرت في نفوسنا بصور مختلفة ويحتاج كل فرد وكل حالة منها لتعامل خاص للشفاء منها. فالغضب والخوف والدونية وعدم تقدير الذات وهوس الكمال والشك وعدم الثقة في النفس أو الآخرين وتعذيب النفس وعدم قبول النفس أو قبول الآخر كل هذه عينة من الأمراض والجروح التي تصيب نفوسنا وتعيق نمونا ونحتاج إلى أن نشفى منها.

الإرادة: هي القدرة لدينا على اتخاذ قرارات. ومن المفترض أن تكون قراراتنا صحيحة وبناءة لحياتنا وحيات الآخرين ولكن كثير من المرات تصبح قراراتنا هادمة لنا ولمن هم حولنا. فالتذبذب والتردد والخنوع والسلبية والاستسلام كل هذه الأمور وغيرها أمراض تصيبنا فنجد أننا لا نستطيع اتخاذ القرار وإذا توصلنا لاتخاذ قرار نجد أن نتائجه ليست بحسب المرجو منه. كما إن إرادتنا المسلوقة تعطل قدرتنا على اتخاذ القرار السليم كما عبر عن ذلك الرسول بولس أنه كلما يريد أن يفعل الحسنى يجد الشر حاضراً (رو ٧: ١٧ - ٢٤).

كيف ننال الشفاء

كما رأينا من كل ما سبق أن ثقتنا في الرب الشافي هي الأساس الأولي لننال شفاء لحياتنا. سواء تم ذلك بأسلوب معجزي أو بأساليب طبيعية من أطباء وأدوية. فيجب أن نؤمن أنه بحبره شفيانا وأن

أما العهد الجديد فكما أشرنا سابقاً لمعجزات الشفاء التي قام بها الرب يسوع المسيح ولكننا نجد أيضاً وصية الرب لتلاميذه بشفاء المرضى وإخراج الأرواح الشريرة وإقامة الموتى (مت ١٠: ١، ٨؛ مت ٩: ١، ٦) ولقد أطاع التلاميذ أمر الرب ومارسوا عطية الشفاء ليس فقط أثناء تواجد الرب يسوع بالجسد ولكن أيضاً بعد يوم الخمسين (أع ٣: ١ - ٨ و ٥: ١٢ و ٩: ١٠ - ٩، ٣٢ - ٤٣). فنجد أن الله يهتم بشفاء الجسد وهناك معجزات شفاء كثيرة ذكرت في كلمة الله وبالطبع هناك الكثير الآخر الذي لم يذكر سواء بواسطة الرب يسوع أو على يد التلاميذ (يو ٢٠: ٣٠، ٣١). ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن معجزة الشفاء تتم بمشيئة الله وليس بقدرتنا نحن فنجد مثلاً أن الرسول بولس صلى لأجل أن تفارقه الشوكة التي في الجسد ولكن مشيئة الله كانت أن تبقى (٢ كو ١٢: ٧ - ٩) وأيضاً نفهم أن الاستعانة بالطب والوصفات الطبية لا يتعارض مع مشيئة الله فنجد أيضاً الرسول بولس يطلب من تلميذه تيموثاوس أن يستعمل قليل من الخمر لأجل معدته وأسقامه الكثيرة (١ تي ٥: ٢٣). ف قوة الله لشفاء أجسادنا حقيقة ثابتة في الكتاب ولكن الوسائل التي يستخدمها الله متعددة وبعضها قد يكون طبيعي والبعض الآخر يمكن أن يكون بصورة معجزية فالله قادر على الدوام.

النفس: هي الجانب غير الظاهر في الإنسان ويحوي الفكر والعاطفة والإرادة كما أنها الجانب الذي يتأثر كثيراً بجروح ومشاكل خلال فترات مختلفة من نشأتنا ونمونا وهي كثيراً ما تترك آثارها على نفوسنا وتعطل نضجنا. كما أنها الجانب الذي نخجل في مجتمعاتنا الشرقية أن نقر بوجود خلل فيها. فليس من السهل على شخص في مجتمع الشرق الأوسط حتى الآن أن يعترف ببساطة أنه يتلقى مساعدة من طبيب نفسي. ويجب علينا أن ندرك أن هذا الجانب لا يقل أهمية عن الجانبين الآخرين.

الفكر: الفكر أو الذهن هو أرض المعركة بين طبيعتنا الجديدة ومبادئها والطبيعة القديمة ورغبتها في عمل ما يرضيها ويشبع احتياجاتها. وتظهر حروب الذهن في محاولة كسر المبادئ وعدم التقيد بوصايا الرب كما تظهر في التفكير السلبي والبحث في كل ما يثير تدمرنا ويحبطنا. ولذلك نجد الدعوة أن نوجه أفكارنا نحو ما هو جليل و طاهر ومسر وصيته حسن... إلخ (في ٤: ٨) فلكي نتغلب على فكرة نحتاج أن نواجهها بفكرة أخرى تقوى عليها. ولا نستطيع أن ننكر أن مجتمعاتنا التي نحيا فيها تميل إلى الشكوى والتدمير والاستسلام للفشل والإحباط ونحتاج أن ندرك أن الرب يسوع على الصليب حمل ليس فقط خطايانا الروحية ولكنه أيضاً يظهر أذهاننا من كل فكر لا يسر قلب الآب (رو ١٢: ١، ٢؛ أف ١: ١٨).

المشاعر: ولا نعني المشاعر في تكوينها البيولوجي حيث نعلم أنها مجموعة من تفاعلات الهرمونات والإشارات الكهربائية التي

القانون، والذي لا يزال «يَعْمَلُ حَتَّى الْآنَ» (ع. ١٧). فراحة الآب الحقيقية لن تكتمل إلا باكتمال الخلاص الذي يحققه الابن بالأعمال والأقوال، فيكشف للناس حقيقة الله. فإن الله لا يتوقف أبداً عن العمل، لأنه يقود خليقته إلى الراحة الحقّة. ويسوع هو الابن الذي يحقق خلاص الآب في البشر، وهذا ما لم يحتمله اليهود، فقرّروا قتله (ع. ١٨).

٥: ١٩-٤٧ حوار حول سر الابن على مدى ع. ١٩-٤٧، يشرح يسوع ما أعلنه في ع. ١٧: «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الْآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ»، ردّاً على الاتهام بأنّه جعل من نفسه مساوياً لله.

ويُقسَم هذا الحوار إلى قسمين. في القسم الأول (ع. ١٩-٣٠)، يوضح يسوع ارتباطه المباشر بالآب من دون أن يستعيد كلمة «مساوي» للآب، مع أن قدرته هي قدرة الله بالذات، وكل ما يعمل هو عمل الآب بالذات، لأن الآب وضع بين يديه سلطة الحياة والدينونة (ع. ٢١-٢٢). وربما كان الإنجيلي يواجه اتهامات اليهود للمسيحيين بالإشراك وكأنهم جعلوا من يسوع إلهاً آخر، فيأتي هذا النص ليوضح أولوية الآب، مدافعاً بالتالي عن الإيمان المسيحي بوحدانية الله، ولكن معلناً في الوقت عينه سرّ الابن في ارتباطه الجوهرى بالآب. وأمام اتهام اليهود ليسوع بخرق السبت، يأتي جوابه بأنه لم يتصرّف من ذاته، بل بحسب إرادة الله. إنّ الآب هو مصدر عمل الابن، لأنّ يسوع يحقق مشروع الله الخلاصي للبشر، وإنه المتّحد به جوهرياً بالمحبّة (ع. ٢٠)، وبالتالي لا يمكن أن يتصرّف بغير هذا الاتحاد، ولا يستطيع إلا أن يخلص ويحيي لأنّه الحياة وفيه الحياة (١: ٤). وهكذا فإنّ كل من يؤمن بالابن يحيي، ومن لا يؤمن به يُدان (٣: ١٨)، بحسب إرادة الآب الذي لا يريد دينونة الناس، بل يريد أن يؤمنوا بمن أرسله.

فبعد توضيح علاقته بأبيه (ع. ١٩-٢٣)، ينتقل يسوع إلى توضيح علاقته بالناس (ع. ٢٤-٢٩). ففي الأعداد السابقة تكلم عن عمل الآب والابن، أمّا الآن فالكلام هو عن سماع «الكلام». فكلمة الله في البدء هي كلمة خالقة بذاتها، أمّا كلام الابن فيتطلب قبولاً ليتّم، وهو كلام يرتبط بالإيمان بالآب الذي أرسله: فإن يسمع الإنسان كلمة الابن، هو في الوقت ذاته أن يؤمن بالآب، وبذلك يشترك في الحياة الإلهية فلا تكون له دينونة (٣: ١٨). وافتتح يسوع زمناً جديداً، فيه يتحوّل من يسمع صوت «ابن الله» أي كلام الله (١٠: ٣)، ويقبل هذا الجديد، إلى خليفة جديدة تتبعه في طريق الحياة (ع. ٢٥). وهذه هي المرّة الأولى التي يذكر فيها إنجيل يوحنا أنّ يسوع هو «ابن الله» (را. ١٠: ٣٦؛ ١١: ٤)، وقبل أن يعلن أنّ ركيّة الإيمان هي أن «تؤمنوا أنّ يسوع هو المسيح ابن الله» (٢٠: ٣١). ولكن يسوع هو أيضاً «ابن الإنسان» الديان. فإنّه تتميم للصورة النبويّة التي أعلنها النبي دانيال في معرض كلامه عن الدينونة في

رغبة قلب الآب هي أن تكون حياتنا صحيحة وسليمة على الصورة الأصلية التي خلقنا عليها. ولكن لأن العالم قد وضع في الشرير ولإبليس رئيس هذا العالم فمرات لن نخبر هذا الشفاء الكامل هنا على الأرض ولكننا سنختبره في المدينة الجديدة حيث مسكن الله مع البشر وحيث لا حزن ولا دموع أو أمراض أو جروح بل الرب نفسه هو بهجتها. وبالتالي نعلم أنه طوال حياتنا على الأرض فسنواجه مع ظروف مختلفة للحياة وبعضها قد يكون مسبباً لكثير من الجروح والفشل ولكن يجب أن نتطلى بالثقة في شخص الرب الذي وعد أن يكون معنا وسط كل الظروف (يو ١٦: ٣٣) وأن كل ما يوفره الله ونستطيع أن نفهمه من كلمته المقدسة أو جسده الذي هو الكنيسة. كما أن كل تطور في أساليب العلاج سواء الجسدي أو النفسي هي وسائل يتيحها الله لكي نستطيع أن نتغلب على جروحنا ونتنصر. فقد نحتاج في مرات لاستشارة طبيب أو قراءة كتاب أو حضور دورات دراسية ومرات ما سنحتاج للغوص داخل نفوسنا سواء بمفردنا أو بمساعدة متخصصين لنكتشف الأسباب الحقيقية لجروحنا وبالتالي نضع خطوات التغلب عليها. فلنكن نال الشفاء ينبغي علينا أن نثبت عيوننا على الرب ونتعامل مع مواقف حياتنا بصبر وطول أناة لنستطيع أن نشفى تماماً.

المراجع

- ألن، تشارلز. **طب الله النفساني**. بيروت: دار منهل الحياة، ١٩٨٠.
تومبسون، بروس. **أعماق نفسي**. القاهرة: مكتبة المنار، ١٩٩٦.
سيماندز، دايفد. **شفاء المشاعر الجريحة**. القاهرة: دار النشر الأسقفية، ٢٠١٠.
ماكديول، جوش. **لترى نفسك كما يراك الله**. القاهرة: دار الثقافة، ٢٠١٠.
وصفي، أوسم. **الروحانية والتعافي**. القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية، ٢٠٠٥.

الأستاذ فؤاد شاكر

٥: ١٦-١٨ جدال حول السبت بدأت المواجهة الفعلية بين يسوع والسلطات اليهودية. ويعلن يوحنا أنّ اليهود كانوا «يطلبون أن يقتلوه»، أولاً لأنه خرق السبت (ع. ١٦)، وثانياً لأنه عادّل نفسه بالله (ع. ١٨). وبين الاتهامين الخطيرين، ينقل الإنجيلي ردّ يسوع إلى من يحاكمونه ليحكموا عليه «بالقتل». وكان الإنجيلي يضع محاكمة يسوع في أثناء إقامته في أورشليم وزمن رسالته فيها. ويأتي ردّ يسوع وكأنّه كشف لهويّته، فهو ليس على المستوى القانوني الذي يخضع له الشعب، بل على مستوى الله الذي يضع

ويعكس هذا النصّ النزاع الذي كان قائماً بين المسيحيين والمسؤولين اليهود الذين لم يقبلوا أن يكون يسوع هو تكميم الوعود والكتب. وكان هؤلاء يبحثون عن الخلاص في التوراة، ولكنهم لم يفهموا ما أراد الله من خلالها، ولم يأتوا إلى المسيح، فلم يحصلوا على الحياة (ع. ٤٠).

وفي كل الأحوال، الله وحده يعطي المجد (ع. ٤١، ٤٤)، وما على الإنسان سوى الإيمان بما أعلنه. فإن لم يؤمن الإنسان بيسوع، فهو قد رفض كلام الله وفضل مجد البشر (ع. ٤٤-٤٤)، وعندها سيُشكّوهم موسى نفسه الذي يستندون إلى وساطته، ويشهد ضدهم (ع. ٤٥-٤٧).

٦: ١-٧١ عيد الفصح بعد شفاء مريض بركة بيت حسدا يوم السبت (ف. ٥)، ينقل يوحنا آية إشباع الجموع (٦: ١-١٥)، وآية السير على الماء (ع. ١٦-٢١)، وخطاب يسوع عن خبز الحياة الأبدية (ع. ٢٢-٧١). وتجري هذه الأحداث في منطقة الجليل، مع اقتراب عيد الفصح. فبعد دعوة اليهودية والسامرة، وخبر اختيار يسوع أو رفضه (ع. ٦٦-٧١)، تأتي الدعوة الآن إلى الجليل لقبول من أرسله الله.

ويبدو الهدف من هذا الخبر واضحاً إذ يجب على الإنسان أن يتبنّى موقفاً واضحاً من يسوع المسيح، فإما أن يكون معه، أو أن يذهب ويتركه. فالجموع التي تبعته بأعداد غفيرة بسبب الآيات (ع. ٢٤-٤٠)، ستترك المكان لمجموعة أقل عدداً من اليهود (ع. ٤١-٥٩)، والذين سيتركون المكان للتلاميذ وحدهم (ع. ٦٠-٦٥)، والذين لن يبقى منهم مع يسوع سوى الاثني عشر (ع. ٦٦-٧١)، وواحد منهم شيطان (ع. ٧٠). وإنهم البقية الباقية بعد مسيرة تمييز واختيار. والمطلوب من القارئ أن يكون منهم!

٦: ١-١٥ آية إشباع الجموع ونقرأ عن هذه المعجزة في الأنجيل الإزائية خمس مرات (را. مت ١٤: ١٣-٢١؛ مر ٦: ٣٠-٤٤؛ لو ٩: ١٠-١٧؛ مت ١٥: ٣٢-٣٩؛ مر ٨: ١-١٠). ولكن تكثير الخبز عند يوحنا، يأتي ليقابل تكثير الخمر في قانا (٢: ١-١١)؛ كما يقابل «خبز الحياة» و«الماء الحي» الذي وعد بهم يسوع السامرية. فإن الخمر، والخبز، والماء ليست سوى رموز للحياة التي يعطيها يسوع لمن يؤمن «بأنه المسيح ابن الله الحي» (٢٠: ٣١).

فبعد ما قام به من شفاء في أورشليم، جاء يسوع إلى الجليل (ع. ١) وعبر «بحيرة طبرية» وكأنه يبتعد عن قريته (٦: ١، ١٧، ٢٢، ٢٥)، وصعد الجبل وكأنه موسى الجديد، النبي الحق الذي يصعد جبل الوحي، من حيث يعطي كلمة الله للناس (خر ١٩: ٢٠؛ ٢٤: ٢-٤)، أو كأنه الله بالذات يقيم مأدبة لشعبه (إش ٢: ٢ ج) مع اقتراب عيد الفصح.

ويأخذ عيد الفصح عند القديس يوحنا معنى أبعد من كونه مجرد عيد يهودي، فهو يرتبط بموت يسوع وقيامته (را. ١٣: ٢؛ ٢٠: ٢٢، ٢٤، ٣٠، ٣٦-٣٧).

نهاية الأزمنة حيث يقفم، إلى جانب الله «قديم الأيام»، شخصاً سرياً يدعوه «ابن الإنسان» (دا ٧: ١٣-١٤). وإن يسوع هو إعلان لحضور هذا الزمن الإسخاتولوجي منذ الآن.

وفي مقابل سلطته لإعطاء الحياة، للابن أيضاً سلطة القيامة المختلفة: «قيامة الحياة» لمن عملوا الصالحات، و«قيامة الدينونة» لمن عملوا السيئات، لأن الحياة تظهر في عمل الصالحات، فيما يتحقق الموت في عمل السيئات. والحياة والدينونة هما نتيجة القيامة، التي تحدث عند سماع الأموات صوت الرب الذي لم يسمعه في حياتهم. ودينوتهم هذه لا تقوم إذاً على إيمانهم بالرب أو رفضهم له فقط، بل على أعمالهم، وهي دينونة عادلة لأنها دينونة الله بالذات (ع. ٣٠).

وتشكل ع. ٣١-٤٧ القسم الثالث من حوار يسوع، الذي يكشف فيه عن سرّ اتحاده بالآب (ع. ١٩-٢٣)، وسلطته الكاملة (ع. ٢٤-٢٩). وفي هذه الأعداد يُدرج يسوع سلسلة شهادات تدعم رسالته الإلهية من المعمدان، ومن الآب، ومن الأعمال، ومن الأسفار المقدسة، قبل أن يُدرج أسباب عدم إيمان اليهود (ع. ٤٢-٤٧).

وعلى مدى ع. التالية، نرى مواجهة بين «أنا» (١٩ مرة) و«أنتم» (١١ مرة)، وكأنّ يسوع يفصح العلاقة التي ساءت بين الله وشعبه عبر التاريخ، وقد وصلت إلى قمّتها برفض هذا الشعب للمرسّل الإلهي. وتعود الشهادات التي يعلنها يسوع إلى كل عمل الله الخلاصي، وكأنه في دفاعه عن نفسه يدعو الجميع إلى الوعي إذ يدعو: اليهود الذين رفضوا أن يكون يسوع هو المسيح المنتظر؛ والجماعة المسيحية الأولى التي يمكن تشكك بذلك أمام الاضطهادات؛ والمؤمنون كافة ونحن منهم.

ففي ع. ٣١ يتبع يسوع القانون العام الذي يرفض شهادة المتهم عن نفسه، ويطلب أقله شاهدين لتستقيم الشهادة (تث ١٩: ١٥)، فيعلن أن «آخر يشهد» له (ع. ٣٢)، وأن هذا الآخر هو الله بالذات، وشهادته حاضرة وآنية.

والحال، أن الله أرسل يوحنا المعمدان يحضّر مجيء المسيح، وقد تحقّق لليهود من شهادته، وهو الذي أعلن أن يسوع هو المسيح (١٩: ١). ولكن، على الرغم من عظمة دوره فهو ليس سوى سراج، وبالتالي تبقى شهادته مرحلية (ع. ٣٥). وأما الشهادة الأهم، فهي للأعمال الإلهية التي يوصلها يسوع إلى تمامها وكمالها. وهذه الأعمال (آيات وأعاجيب وأقوال) تدخل في صلب الخلاص الذي يحققه الله (ع. ٣٦). ونعم الله هو «الآخر» الذي يشهد ليسوع (ع. ٣٢) وقد شهد له سابقاً (ع. ٣٧) من خلال الكتب، لكن الشعب المتمرد لم يحفظ «الكلمة»، ولم يسمع «صوت» الله (ع. ٣٧؛ را. تث ٥: ٢٤)، وهذا واضح في عدم إيمانه بمن أرسله (ع. ٣٨)، (را. ٥: ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٦-٣٧).

«يَكْسِرَ»، وهذا ما سيتمّ على الصليب (١٩: ٣٣، ٣٦).

فبعد أن شعبوا، يستعمل القديس يوحنا هنا باليونانية فعل «امتلاؤا»، وبعدها طلب يسوع من تلاميذه أن يجمعوا «الكسر»، «فَجَمَعُوا وَمَلَأُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَفَّةً» (ع. ١٢-١٣). ويسوع هو من وزّع الغذاء، ولكن على التلاميذ أن يجمعوا ما فضل «كي لا يضيع شيء» من الفائض. ويوم أطعم الله الشعب التائه في الصحراء، كان ممنوع على الناس أن يجمعوا المنّ أكثر من حاجتهم الآتية، وكان الفائض يتلف من ذاته (خر ١٦: ٣ي). وإنّ المنّ الذي أعطاه الله بواسطة موسى كان غذاءً فانيّاً، أمّا ما يعطيه يسوع فهو خبزٌ لا يجوز أن يضيع منه شيء لأنّه باقٍ للأجيال الآتية، وجميعها في شعب واحد ليسوع المسيح.

ويبرز ع. ١٤-١٥ تأثير المعجزة في الجموع، وردّة فعل يسوع تجاه موقفهم. فقد فهم الناس من تكثير الخبز أن يسوع هو النبي الذي وعد به الله أجدادهم ليكون موسى الجديد، يشرّع ويفسّر الشريعة، ويحرّر الشعب ويقوده إلى الرجاء. وأمام المعجزة تذكروا المنّ في الصحراء واستنتجوا أنّ يسوع هو موعود الله، ولكنهم انزلقوا من المستوى الإسخاتولوجي إلى المستوى السياسي، فأرادوا أن يختطفوه ويقيموه ملكاً بحسب إرادتهم، وليكن مخلصهم بالطريقة التي يريدونها: رخاء وقوّة وسلطة. وستنادي الجموع بيسوع الملك (١٢: ١٣)، وسيحكم عليه بالموت لأنّه «ملك اليهود» (را. ١٨: ٣٣، ٣٩: ١٩، ١٥، ١٩). وأمام هذا المشروع السياسي، ينسحب يسوع إلى الجبل وحده، ولكنّه بالحقيقة ليس وحيداً لأن الآب معه دائماً (٨: ١٦: ٣٢).

٦: ١٦-٢١ آية السير على الماء يأتي نص السير على الماء وكأنّه يقطع سياق خبر تكثير الخبز وردّات الفعل عليه. ولكن القديس يوحنا ربط الخبرين بحيث جعل من الثاني مناسبة ليلتقي يسوع مجدداً مع الجموع (ع. ٢٢-٢٥)، وليستتج الناس الحدث السري المتمثّل بحضوره (ع. ٢٥). فنقرأ عن هذه الآية في مت ١٤: ٢٢، ومر ٦: ٤٥، ولكن مع اختلاف في الأسلوب وفي المعنى المقصود. ففي حين يركّز متى ومرقس على المعجزة بالذات، يشدّد يوحنا على ظهور يسوع لتلاميذه من دون أي تفصيل لكيفية حدوث ذلك. وينتظر القارئ أن يصف له الإنجيلي كيفية سير يسوع على الماء، في حين لا يهتم يوحنا إلا بالتأكيد على أن ابتعاد يسوع عن تلاميذه هو غياب عابر وظاهري فقط. ففي ع. ١٦-١٩ عرض حالة التلاميذ بعد انفصالهم عن يسوع. فالوقت «مساء»، وقد «أقبل الظلام»، وهم «نزلوا» إلى عرض «البحر» حيث تهبّ «ريح عظيمة»، وعليهم أن يجذّفوا مسافة طويلة وصعبة. «ولم يكن يسوع قد أتى إليهم»، وكأنّهم قد تركوا ليتدبّروا أمرهم وحدهم بانتظار عودة المسيح. فإنّها حالة غياب الرب، وهو ما عاشته الجماعة المسيحية

١١: ٥٥-٥٧؛ ١٢: ١، ٧؛ ١٣: ١)، أي ببذله ذاته لحياة البشر. فبعد ذكره لهذا العيد، يصف الإنجيلي يسوع وهو يرفع عينيه وينظر إلى الجمع المقبل إليه، وكأنّه ينظر إلى الإنسانية تأتي إليه، تماماً كما كان قد دعا تلاميذه «ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحَقُولَ إِنَّهَا قَدْ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ» (٤: ٣٥). ثم يعرب عن اهتمامه بتأمين الغذاء للجميع. فبإمكاننا أن نتساءل هنا عن أي غذاء يتكلّم؟ فالجموع لم تكن قد تعبت وجاعت بعد، ولم يكن المساء قد حان على ما نقرأ في الأناجيل الإزائية. فإنّه هو صاحب المبادرة دائماً. فهو من يتوجّه إلى فيلبس بالسؤال «مَنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلَاءِ؟» (ع. ٥)؛ وكان المشكلة كلها تكمن في مكان إيجاد المطلوب. ولكنّ فيلبس يطرح مسألة أخرى وهي صعوبة تأمين الثمن الذي يتوجب دفعه (ع. ٧). فقد أظهر يسوع المشكلة وكأنّها مشكلة «شراء» أما فيلبس فبقي على مستوى المال غير المتوفّر، وكان عطية الحياة تقاس بالكمية، في حين أنّ الله يدعو إلى ابتياع الحياة مجاناً منه، فهو نبع الحياة: «هلمّوا اشترُوا بلا فضة وبلا ثمن» (إش ٥٥: ١). إنّها دعوة إلى كلمته التي تشبع حقاً (ع. ٢٧) وإلى عدم الاكتفاء بالشعب الفاني. ولذلك، يستطرد الإنجيلي بالقول إنّ يسوع «عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمَعٌ أَنْ يَفْعَلَ»، ولكنّه أراد أن يمتحن فيلبس (ع. ٦). فغرق هذا الأخير في مشكلة الحصول على «المتني دينار»، في حين أنّ جوع الجموع هو على مستوى آخر. فقد «عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمَعٌ أَنْ يَفْعَلَ» ليعطي ملء الحياة، سيعطي ذاته.

ولكنّ اندراوس أحد التلاميذ يلفت الانتباه إلى إمكانيات ضعيفة يملكها أحد الغلمان: «خمسة أرغفة شعير وسمكتان». وهو غذاء فقراء الجليل ولا يمكن، بحسب المنطق البشري، أن تسدّ الحاجة المطلوبة، ولكنّ منطق يسوع مغاير، إذ يأخذ من فقر الإنسان ليجعل منه غنى إلهياً. وطلب من تلاميذه أن «يجعلوا الناس يتكثّون» على العشب، ولم يكتفِ بأن يوزّع الطعام عليهم وقوفاً. فإنّ عطاء الله هو مائدة فرح يتشارك فيها مع شعبه (را. مز ٢٣: ١-٢؛ خر ٢٤: ٩-١١). ففي ع. ١١-١٣، يورد القديس يوحنا خبر إشباع الجموع (٥٠٠٠ رجل) من دون أن يصف كيفية حدوث الأعجوبة، ولا الكلام الذي تلفّظ به يسوع لتكثير الأرغفة والسمكتين «بِقُدْرِ مَا شَاءُوا» (ع. ١١). ويبرز الإنجيلي فقط أنّ يسوع «شكر ووزّع على التلاميذ، والتلاميذ، أعطوا المتكثّين». وفي فعل «الشكر» ذكرٌ للإفخارستيا (الشكر) التي دأب المسيحيون على الاحتفال بها منذ البدايات، والغريب في الأمر أنّ النصّ لا يذكر أنّ يسوع «رفع عينيه إلى السماء»، وكان الرب المتحد كلياً بالآب، يركّز همّه على الجموع التي يراها أمامه. وهو من يوزّع الغذاء، على ما كان يفعل رب العائلة الذي يترأس المائدة، وما على التلاميذ إلا توزيع ما نالوا منه بلا حدود. ويسوع هو الخبز الذي يقدّم ذاته من دون أن

الذي كان سائداً في الأواسط اليهود/مسيحية. وتتمحور العظة حول موضوع المَن، في علاقته مع الخلاص الذي تَمّمه الله لشعبه في حدث الخروج عبر الصحراء، وهو ما يتماشى تماماً مع موضوع عيد الفصح.

ومن هنا يجدر بنا أن نتنبّه إلى فهم العظة على أكثر من مستوى: مستوى العظة اليهودية كما احتفظت بها الجماعة اليوحناوية المتجذرة في المجتمع الفلسطيني-اليهودي.

مستوى ممارسة يسوع نفسه، الذي علم بحسب هذا الأسلوب، وطبق مواضيع العظات اليهودية الفصحية على ذاته وعلى رسالته الخلاصية. مستوى ممارسة الجماعة المسيحية الأولى، والتعليم الذي ورث المستويين الأولين، وفهم حياة يسوع في ضوء صور العهد القديم (را. ١ كو ١٠: ٤؛ رو ٣: ٥).

ففي ع. ٢٦-٢٩ مقابلة بين موضوعين. في الموضوع الأول تركيز على فعل «تطلبوني»، في إشارة إلى موقف الجموع التي تركّز على مادية الآية «رايتم الآيات» (ع. ٢٦). واعتبرت هذه الجموع أنّ الأكل مهم لذاته، ولما يعطيه من اكتفاء وسعادة: «شبعتم»؛ في حين أنّه سعادة عابرة وليس بالتالي سوى معجزة تنتهي بانتهاء مفاعيلها. وهنا يأتي الموضوع الثاني ليعلّن أنّ ما يبغيه الرب هو الآية التي تدلّ إلى أبعد من الخبز المادي. فإنّ الله يطلب «العمل» (ع. ٢٧)، ولكن أي عمل؟

فلا نقول العبارة اليونانية «اعملوا للطعام» بل «اعملوا الطعام الباقي»، وفي ذلك غرابة (ع. ٢٧)، وكأنّ الرب يدعو إلى هضم الطعام. وينبّه يسوع الجموع إلى الرغبة الخاطئة في التركيز على الخبز الذي أكلوه في بحثهم عن يسوع. فالمطلوب أن يهتموا «بعمل» الطعام الأوحد الذي بمقدوره أن يعطي الحياة الأبدية؛ ولكنّ الجموع فهمت هذه العبارة على أنّها دعوة للقيام بأعمال مادية «ماذا فعل حتى نعمل أعمال الله» (ع. ٢٨)، بمعنى تطبيق أعمال الشريعة. وكانت الجموع تؤمن بأنّ الشريعة الإلهية هي «شريعة حياة» لمن يطبقونها (سي ١٧: ١١؛ ٤٥: ٥)، وأنّ غذاء الإنسان لا يمكن أن يقتصر على الخبز؛ بل يجب أن يشمل «كلمة الله». وكما أنّ الله غذى شعبه في البرية «بالمن السماوي» الذي أمطره عليهم من العلى، فقد غذاهم أيضاً بكلمته السماوية التي أنزلها لهم من السماء.

وكان من الطبيعي أن يفهم الناس أنّ يسوع ينقلهم من الاهتمام بالماديات، إلى التركيز على تطبيق الشريعة، ولم يستوعبوا الجديد الذي يعلنه لهم: إنّ ابن الإنسان هو من يعطي طعاماً للحياة الأبدية، لأنّه رسول الآب الحق؛ وهو «كلمة الله» الذي نزل من السماء (٣: ١٣)؛ وهو ابن الإنسان الذي سيعود إلى الآب الذي أرسله (٦: ٦٢). ومن هنا فالمطلوب الأوحد ليس سوى الإيمان «بعمل الله»، «العمل.. هو أن تؤمنوا» (ع. ٢٩) بـابن الإنسان كمرسل من الآب،

الأولى بعد موت يسوع وقيامته. ولكن هل الرب غائب فعلاً؟ بالطبع لا. فعندما «نظروا» رأوه «يقترّب من السفينة»، وكأنّهم يكتشفون حضوره السرّي المتجلّي لهم في حالة خارقة، «فخافوا» كما كان الأنبياء والأولياء في الكتاب المقدس يخافون أمام حضور الله. وكما كشف الله عن نفسه لموسى، يكشف يسوع عن نفسه لتلاميذه بقوله «أنا هو». فيسوع المعلم القريب هو حضور الله لشعبه، فلا داعي إلى الخوف.

وهنا أرادوا «أن يقبلوه في السفينة» (ع. ٢١) «وللوقت صارت السفينة إلى الأرض» وصحيح أنّ النص لا يعلن دخول يسوع إلى السفينة ولكنّه لا يشير إلى ابتعاده عنها. فالمهم هو أنّ مجرد قبول التلاميذ ليسوع معهم، أوصلهم إلى الميناء الأمين (ع. ٢١). فإنّها القدرة الإلهية التي تحوّل الصعوبات، وتنقل من الموت (البحر) إلى الحياة التي يبتغون (الأرض) (را. مز ١٠٧: ٣٠). وتمهّد ع. ٢٥-٢٦ لخطاب خبز الحياة، من خلال لقاء يسوع مرّة ثانية مع الجموع التي تركها بعد تكثير الخبز فتبعته وعبرت بحيرة طبريا ووصلت إلى كفرناحوم بحثاً عنه. وظنّ الناس أنّهم عرفوا من هو يسوع، وأنّهم يملكون الحقيقة، لذلك أرادوا أن يتمموا مشروعه السياسي (ع. ١٥)؛ وأمّا الآن فنجدهم حائرين لا يفهمون تماماً ما يجري، غير متأكّدين من هويّة الرب فراحوا ينادونه بـ«المعلم»، بعدما كانوا قد أعلنوا أنّه «بالحقيقة النبيّ الآتي إلى العالم» (ع. ١٤).

٦: ٢٢-٧١ خطاب خبز الحياة الأبدية ويمكن أن نقسم هذا الحوار إلى ثلاثة أقسام انطلاقاً من توالي فئات ثلاث على محادثة يسوع. يتألّف القسم الأول من ع. ٢٤-٤٠ ويتمحور حول «الجموع» المذكورة في مقدمة النصّ (ع. ٢٢، ٢٤). فإنّها الفئة التي لا يدور الحديث إلا بناءً على إلحاحها (ع. ٢٤-٢٥). أمّا القسم الثاني فيدور حول «اليهود» (ع. ٤١-٥٩) الذين يواجهون يسوع باعتراضين (ع. ٤٢: ٥٢). وفي القسم الثالث (ع. ٦٠-٦٦) يتواجه يسوع مع تلاميذه (ع. ٦٠، ٦١، ٦٦). ويتبع هذا القسم ملحق يدور حول يسوع والاثنين عشر (ع. ٦٧-٧١).

٦: ٢٦-٤٠ القسم الأول من الخطاب يتألّف هذا القسم من أربع مراحل (ع. ٢٦-٢٧؛ ٢٨-٢٩؛ ٣٠-٣٢؛ ٣٤-٤٠) يجب فيها يسوع عن ثلاثة أسئلة وطلب واحد وهم: في ع. ٢٥ «متى صرّت هُنا؟ وفي ع. ٢٨ «ماذا نعمل؟» وفي ع. ٣٠ «أي آية؟» وفي ع. ٣٤ «يا سيّد أعطنا».

ومن خلال تركيبة قصصية تعطي إطاراً للحوار الذي يتحوّل إلى عظة تفسيرية، يبدأ النص ابتداءً من ع. ٣٥ في تحديد المكان والزمان اللذين تمّ فيهما العظة في «المجمع... في كفرناحوم» (ع. ٥٩)، مع اقتراب «عيد الفصح» (ع. ٤). ويضعنا القديس يوحنا في أجواء الجماعة المؤمنة التي تستمع إلى خطاب يتبع أسلوب العظات،

يسوع المؤمنين به لا يجوعون ولا يعطشون أبداً (ع. ٣٥). ففيه تمت نبوءة إشعياء (إش ٤٩: ١٠) وتمت الأزمنة الإسخاتولوجية.

وتبدو ع. ٣٧-٤٠ كأنها تقطع سياق الفكرة المتمحورة حول «يسوع خبز الحياة»، ولكنها في الحقيقة توسيع لإعلان يسوع: «أنا هو خبز الحياة»، فيبرز فيها دوره في إعطاء الحياة الأبدية لمن يؤمن به. ففي ع. ٣٦ يلوم يسوع الجموع التي «رأت ولم تؤمن»، في حين يؤكد في ع. ٤٠ «أَنْ كُلَّ مَنْ يَرَى الْإِبْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ». وفي ع. ٣٧ يعلن أن «كُلَّ مَا يُعْطِينِي الْآبُ... لَا أُخْرِجُهُ خَارِجًا»، وفي ع. ٣٩ يعلن أيضاً «أَنْ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لَا أَتْلَفُ مِنْهُ شَيْئًا». وفي ع. ٣٨ يقول «أَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ، لَيْسَ لِأَعْمَلِ مَشِيئَتِي؛ بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي» ومشيبته واضحة في ع. ٣٩. ولكن كل ذلك يرتبط ويتمحور حول حدث «النزول من السماء» (ع. ٣٨). فكما نزل الله على جبل سيناء (خر ١٩: ١١، ٢٠) وكما فهم النبي إشعياء أن كلمة الله تخرج من فم الله، مثل المطر الذي ينزل على الأرض، لتحقيق إرادته (إش ٥٥: ١٠-١١)، كذلك يسوع «خبز الحياة»، «الكلمة الذي صار بشراً»، يحقق إرادة الله فيعطي الحياة (ع. ٣٧، ٣٩، ٩٠) منذ الآن، لأنه هو عطية الله للبشر (ع. ٣٢-٣٣). وللحصول على هذه العطية، ليس هناك سوى شرط واحد، هو «الإقبال إلى يسوع» (ع. ٣٥). ورأت الجموع إنساناً عادياً، ولكنها مدعوة إلى الإيمان بأنه من السماء (ع. ٤٠) وهكذا يتحضر القارئ لما سيأتي من اعتراضات اليهود (ع. ٤١-٥٩).

٦: ٤١-٥٩ القسم الثاني من الخطاب وتغيب «الجموع» عن هذا القسم، لذا تنتقل إلى موضوع «اليهود»، مع ما يوحيه من نزاع وجدالات. ففي ع. ٤١ «تذمّر اليهود»، وفي ع. ٥٢ «تخاصم اليهود فيما بينهم». ونشهد في هذا القسم من العظة تراجعاً في التواصل بين يسوع ومحاوريه وذلك على مرحلتين، فهذا القسم هو فعلياً جواب يسوع عن سؤالين هما بالأحرى اعتراضان: «كَيْفَ يَقُولُ هَذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟» (ع. ٤٢) و«كَيْفَ يَقْدِرُ هَذَا أَنْ يُعْطِينَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟» (ع. ٥٢) مما يعني أن «اليهود» تحولوا إلى أعداء. وبالفعل فاليهود يتكلمون عن يسوع بصيغة الغائب (ع. ٤١-٤٢، ٥٢) وكأن كل حوار بينهم وبين يسوع قد انتهى. ولم يعد اليهود يتكلمون مع يسوع بل عنه.

ولا تأتي صعوبة اليهود من الخبز، كما كان الحال في القسم الأول؛ بل من الكلام عن أصل يسوع: «من السماء» كما يظهر في ع. ٤١-٤٢.

وبالعودة إلى موضوع إعطاء الله المنّ للشعب في البرية، يذكر القديس يوحنا «تذمّر اليهود» على مثال تذمّر الشعب على موسى (خر ١٦: ٢)، الذي يصحّ بقوله «تذمّرون على الله» (خر ١٧: ٧-٨). فإنّ التذمّر على كلام يسوع هو تذمّر على من أرسله الله (ع. ٣٥-٣٥).

فالمطلوب هو هضم عمل الله وليس إنتاجه. ومن هنا أهمية عبارة «اعملوا الطعام» (كما وردت حرفياً في النص اليوناني) بمعنى: آمنوا بعمل الله الذي يتممه الابن.

ومن جديد يظهر ع. ٣٠-٣١ عدم فهم الجموع التي تريد الإيمان؛ ولكنها تستمر في طلب آية كبرهان على رسالة يسوع السماوية. وكان يسوع محقاً في ع. ٢٦ عندما وجّه إليهم اللوم لبحثهم عنه لا لأنهم آمنوا؛ بل لأنهم «أكلوا وشبعوا». وصنع يسوع آية أمامهم (ع. ١٤) فلم يفهموا إلا ظاهرها، وظلوا على مستوى الأكل ولم يتعرفوا على هويّة المعطي، وأرادوا أن يعودوا بيسوع إلى مستوى «العمل» الذي يطلبونه وهو: معجزة تشبع أهواءهم ورغباتهم المادية، على غرار ما فعل موسى في البرية (ع. ٣١). فأراد يسوع أن يرفعهم إلى مستوى الإيمان. وقام الله بعمله والآن عليهم أن يقوموا هم بالعمل المطلوب، أي أن يؤمنوا بعمل الله في يسوع المسيح.

وفي جوابه لا يتوقّف يسوع عند ما طلبوه، بل يتخطى حرف الشريعة، ويتعالى فوق إرادتهم بأن يقوم بأعجوبة شبيهة بما فعل موسى، فيبدأ كلامه بعبارة «الحق الحق أقول لكم» (ع. ٣٢: را. ع. ٢٦) لينقل انتباه محاوريه إلى الله بالذات.

ويستند يسوع إلى ما قالته الجموع، فيستعيد عبارة «الخبز السماوي» المقتبسة من الكتاب المقدس (خر ١٦: ٤؛ ١٦)، ليصحّح معناها. فالعاطي ليس موسى بل الله «أبي»؛ وهو لم يعط الآباء فقط، بل لا يزال يعطيكم أنتم اليوم؛ وهو يعطيكم ليس «خبز السماء»، بل «الخبز الحقيقي من السماء». ولم يكن المنّ سوى صورة مادية عابرة لعطية الله الحقّة. فإنّ الخبز الحقيقي الذي يعطيه الله، هو «النازل من السماء»، و«الواهب حياة للعالم» (ع. ٣٣). فإنّ الله الذي أعطى الخبز السماوي قديماً، هو من يعطي اليوم ابنه الذي أرسله ليهب الحياة الأبدية. فالله هو سيّد الماضي والحاضر والمستقبل. وفي الماضي أعطى الله خبزاً للآباء، أما اليوم فإنه يعطي ابنه الذي يهب العالم كله حياة، وكان في ذلك تحضيراً الذهنية السامعين لقبول مجيء تمام الأزمنة بيسوع معطي الحياة الأبدية بعباءة ذاته! وللحال طلبت الجموع: «يَا سَيِّدُ، أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هَذَا الْخُبْزَ» (ع. ٣٤)، كما طلبت السامرية أن يعطيها «هذا الماء» (٤: ١٥) قبل أن تفهم أنّ الماء المقصود هو الدعوة إلى الإيمان بالربّ والتلمذة له.

وهنا يأتي جواب يسوع إعلاناً عن نفسه «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ» (ع. ٣٥). وفي ع. ٣٣ أوضح لهم أن «خُبْزَ اللَّهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ» وهو التحقيق الفعلي لما رمز إليه المنّ في الصحراء، وها هو الآن يعلن أنّه هو من يحقق بشخصه هذه الصورة، هو «الخبز الحق» والغذاء الحق (ع. ٥٥) متمم الكتب المقدسة. فإن كان تلاميذ الحكمة يبقون على جوعهم وعلى عطشهم (سي ٢٤: ١٩-٢١)، فإنّ تلاميذ

الحياة بذاته (٢٦: ٥) وهو يعطي ذاته ليعطي الحياة. فالنص مليء بالمفردات الإفخارستية الأسرارية، وكأن هذا الخطاب هو عظة حول سر الإفخارستية ومفاعيله، وشرح يهدف إلى توضيح ما يمكن أن يفهم على شكل خاطئ.

ويمكننا أن نترجم ع. ٥١ من اليونانية إلى العربية على النحو التالي: كما أن من يأكل الخبز السماوي يحيا إلى الأبد، كذلك الخبز الذي سأعطيه أنا، هو جسدي الذي أبذله ليحيا العالم. فالمقصود إذا إدخال عنصر جديد هو «جسدي» كمرادف يقابل «الخبز»، مما يفتح النص في اتجاه مزدوج: في اتجاه الصليب، والجسد (اللحم) المبدول لحياة العالم من جهة؛ ومن جهة أخرى في اتجاه الإفخارستية، من خلال الصليب لأن المقصود ليس الإيمان بالإفخارستية كسر ليتورجي، بل بالإفخارستية كسر الصليب. فالنص بالأساس يدعو إلى «الأكل»، في توسيع لما سبق من تشبيه بين إعطاء الله ابنه المخلص وإعطائه المن (ع. ٥٠-٥١). فإن كانت ع. ٥٣-٥٦ تدل بشكل كبير على الإفخارستية، فهي لا تخرج عن إطار الإعلان عن موت يسوع لخلاص العالم. ويظهر ع. ٥٢ اعتراض اليهود على الممارسة الإفخارستية المسيحية، وهو ما لا يمكن أن يفهم في إطار مجمع كفرناحوم، قبل موت يسوع وقيامته. ومن هنا يأتي إنجيل يوحنا ليوضح أنه لا يمكن الكلام عن الإفخارستية من دون الإيمان، كما أن الكلام عن المسيح من دون الإفخارستية يبقى ناقصاً.

وانطلاقاً من ع. ٥٣ ينتقل الخطاب من الكلام عن هوية يسوع، إلى الكلام عن السر الإفخارستي من خلال المفردات (أكل-شرب؛ لحم-دم؛ مأكّل-مشرب)، ومن خلال التشديد على واقعية الأكل (ليس مجرد فعل «أكل»؛ بل «مضغ» trogon الذي يرد أربع مرات في ع. ٥٥-٥٨). ثم يشير في ع. ٥٤ إلى تأثير الإيمان أو المشاركة الإفخارستية في إعطاء المؤمن الحياة الأبدية، والقيامة، والمشاركة في حياة الابن وصولاً إلى الحياة الأبدية من دون المن (ع. ٥٨). ويشكل ع. ٥٥ محور جواب يسوع (ع. ٥٣-٥٧) على اعتراض اليهود (ع. ٥٢)، وقد أراده على خلفية حكمية، يعرفها اليهود جيداً، وهي مقدرة «كلمة الله» على إعطاء الحياة لمن يأكلها. ويسوع هو «كلمة الله» الذي نزل لتكون الحياة لكل من يؤمن به: «جسدي مأكّل حقّ ودمي مشرب حقّ»، وما «الأكل» و«الشرب» سوى رمز «للإيمان» (ع. ٤٩، ٥٠، ٥١). فالخبز المقصود هنا لم يعد «الخبز النازل من السماء» بل الخبز المبدول «من أجل حياة العالم» بموته وقيامته.

ويستعمل يسوع في خطابه الأسلوب الحكمي الذي نقرأه في سفر الأمثال ٩: ٥ حيث تقول الحكمة: «هَلُمُّوا كُلُّوا مِنْ طَعَامِي وَاشْرَبُوا مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي مَزَجْتُهَا»، فمن يأكل خبز التعليم الإلهي يدخل في حميمية الله. وهكذا فإن من يأكل «الكلمة المتجسد» يتحد ويحيا به،

(٤٠)، وعدم الإيمان به هو رفض لمشروع الله ولإرادته بالذات. وما يشكل عثرة لليهود، هو ما أعلنه يسوع عن أصله السماوي (ع. ٣٥، ٣٨، ٤٢)، في حين أنهم يعرفون أصله البشري تمام المعرفة: هو ابن يوسف وليس ابن الله! (ع. ٤٢). وطالما شكلت مسألة ألوهية يسوع مشكلة أمام الفكر الإنساني، والقديس يوحنا لم يذكر شيئاً عن سر ولادة يسوع المسيح البتولية الإلهية؛ بل اكتفى في إنجيله بإعلان لاهوت المسيح من فم يسوع بالذات، بعد أن أعلن إيمانه بذلك منذ مقدمة الإنجيل (١: ١-١٨). فهوية يسوع ابن الله هي موضوع إيمان وليس موضوع برهان.

وأمام الاعتراض على ولادته، لا يتوقّف يسوع عند براهين الأنساب؛ بل يوجّه الانتباه إلى مفاعيل نزوله «من السماء»، و«من عند الآب»، وهو الذي «رأى الآب»، على خلاف الشعب اليهودي الذي «لم ير الله» عندما أعطاه الشريعة في سيناء (را. تث ٤: ١٢؛ ٥: ٢٤؛ سي ١٧: ١٣).

وتبدو العظة وكأنه صورة للجدال اليهو-المسيحي حول أصل يسوع وعلاقته الخاصة بالآب. ففي ع. ٤٤-٤٥ يعلن يسوع أن الإيمان به ينبع من الآب نفسه، فكما أتى الابن ليعلن الآب للبشر (١: ١٨)، فإن الآب يخبر عن الابن ويعلنه باجتذابه البشر وتوجيههم إليه. وكل شيء ينبع من الآب ويتمحور حوله وحول الإيمان بالابن، وإيمان التلميذ بالله يعني في الوقت عينه إيمانه بالابن أيضاً.

ومع عودة عبارة «الحق الحق أقول لكم» (ع. ٤٧) يعود يسوع، من خلال رمزية خبز الحياة، إلى موضوع الإيمان كنبع للحياة الأبدية: «أنا خبز الحياة» (ع. ٤٨، ٥١)، مع تأكيد جديد على المصدر الإلهي لهذا الخبز (ع. ٥٠-٥١)، وتذكير بمفاعيله. فالآباء «أكلوا المن.. وماتوا» (ع. ٤٩). وظنوا أن المن المادي هو المطلوب، فماتوا لأنهم لم يتوصلوا إلى معنى هذا المن. وتوقّفوا عند المادة ولم يتوصلوا إلى الله. فالمطلوب إذا الإيمان بيسوع «الخبز الحق» الذي يعطي الحياة الأبدية. ولكن العثرة الأكبر هو في إعلان يسوع أن الخبز «هو جسدي»، وأن من الضروري أن يأكله المؤمن ليحيا (ع. ٥١).

وتذمّر اليهود أولاً على إعلان يسوع عن هويته الإلهية: «نزل من اسماء» فيما هم متأكدون من هويته الناصرية «ابن يوسف، الذي نحن عارفون بأبيه وأمه» (ع. ٤٢)؛ أما الآن فيتخاصمون فيما بينهم معترضين: «كَيْفَ يَقْدِرُ هَذَا أَنْ يُعْطِينَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟» (ع. ٥٢). كيف يقدر؟ هذا غير منطقي! كيف يمكن أن نأكل جسد إنسان؟

وفي عمق الاعتراض رفض للسّر. وظل اليهود على مستوى المنطق البشري الراض لكل ما يتخطى الفكر الإنساني المحض. وأكل الآباء وماتوا، في حين أن يسوع الخبز أبداً الموت لأن من يسمع كلامه ينتقل من الموت إلى الحياة (٥: ٢٤)، فالابن له

المنطق «الجسدي» بل ينفتح على الروح المحيي، وكلام الرب «روح وحياة» (ع. ٦٣). وفي خطابات الوداع (ع. ١٤-١٦) سيتوسّع القديس يوحنا في العلاقة بين يسوع والروح القدس، لكنّه الآن يعلن عن عودته إلى الآب، وعن دور الروح القدس في إفهام البشر كل ما أعلن عنه، نظراً إلى «صعوبة» العقل البشري في تقبّله. ومع ذلك فإن هناك «قَوْماً لَا يُؤْمِنُونَ» (ع. ٦٤). وعلى الرغم من كل ما قاله الرب وما فعله فإن الإنسان يبقى حراً في الإيمان أو عدم الإيمان. ويعلم يسوع (ع. ٦١، ٦٤) منذ البدء أنّ العديدين يرفضونه، وأنّ هناك من يخونه، ولكنّه يلتزم بتحقيق إرادة الله الخلاصيّة على الرغم من كل شيء. فالأولويّة عند يسوع هي أن يجتذب الآب البشر إلى الإيمان، وأن يقبل الناس هذا. وصحيح أنّ الكثيرين تركوه؛ لكنّ بقية صغيرة ستكمل الطريق معه، لتكون عربون خلاص للجميع.

فبعد الجموع، بقيت مجموعة اليهود، التي لم يبق منها مع يسوع سوى التلاميذ، الذين صمد منهم في النهاية «الإثنا عشر»، مع ما يرمزون إليه من بقية أمينة للرب. وهذا ما سيتوقّف عنده القديس يوحنا في الملحق (ع. ٦٧-٧١).

٦٧-٧١ يسوع والإثنا عشر بعد أن تركه العديد من تلاميذه
(ع. ٦٦) تهدف هذه الآيات إلى تكريس التلاميذ، الذين صمدوا على الرغم من العثرات، كمجموعة الإثني عشر مع ما يرمز إليه هذا العدد، على خلفيّة شعب الله المؤلّف من اثني عشر سبطاً. وإنها المرة الأولى التي يشير فيها القديس يوحنا إلى الإثني عشر، وهو نادراً ما يذكرهم. ويقابل هذا النصّ إعلان إيمان بطرس في قيصرية فيلبس عند الإزائين، مع تشديد يوحنا على أن الإثني عشر هم البقية الباقية بعد مسيرة إعلانات واعتراضات وصعوبات. فمن «الجموع» غير المحددة التي اهتمت بالأعاجيب فقط، تنتقل إلى «الشعب اليهودي» المحدد، ثم إلى «التلاميذ» الذين آمنوا لكنهم لم يصمدوا أمام عثرة الصليب، حتى الوصول إلى «البقية» التي ظلت أمينة على الرغم من محنة الإيمان. فحين قالوا: «يَا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلَامُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ» (ع. ٦٨) كانوا يعنون أنه على الرغم من الموت الذي نحياه يومياً وما نخبره من عثرة موتك فأنا باقون معك! فقد ذهب الكثيرون بعيداً عن الرب وترك يسوع الحرية للباقيين قائلاً: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تَرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟» فهذا وقت الاختيار الذي يطرحه الرب على تلاميذه؛ ليس فقط في الماضي، بل اليوم أيضاً. فإن كان الرب يختارنا فهل نختره نحن؟

وتقع على عاتق هذه الجماعة مسؤوليّة وحدة الكنيسة على الرغم من وجود «شيطان» بينهم. ففي قلب هذه الجماعة يبقى سرّ خيانة يهوذا «أحد الإثني عشر» حدثاً مؤلماً جداً. ولكنّ الخلاص أقوى من كل خيانة، وسيغلب يسوع بموته وقيامته على «الشيطان» الذي يعمل في يهوذا ليسلمه (١٣: ٢).

كما هو متّحد بالآب ويحيا به. فالكلمة «هو الله» (١: ١) لأنّه «عند الله»، و«من الله» (١: ١٣)، و«في حضن الآب» (١: ١٨)، ولأنّه والآب واحد (١٠: ٣٠؛ ١٧: ١١، ٢٢، ٢٣)؛ وإرادته أن يكون تلاميذه متّحدين به كما هو متّحد بالآب.

ف«هذا هو الخبز الذي نزل من السماء» (ع. ٥٨)، وصار الخبز النازل من السماء شخصاً ملموساً، فإنّه ابن الله، الكلمة المتجسّد، الذي مات وقام وهو حيّ. وكلّ ممارسة أسرارية لا تركز على سرّ موت يسوع وقيامته، وعلى شراكة الإنسان الحميمية بالرب، هي ممارسة باطلة (را. ١ كو ١١: ٢٦). فإنّ الجماعة التي تحتفل بسرّ الإفخارستية تحتفل فعلياً بحضور الرب الذي بذل ذاته لحياة البشر، وبالاتحاد التام بالابن الذي يحيا بالآب.

٦٠-٦٦ القسم الثالث من الخطاب النص هنا أقرب إلى الحوار، تغيب فيه الجموع ويختفي اليهود ليبقى يسوع مع تلاميذه (ع. ٦٠، ٦١، ٦٦). ويبدو هذا القسم أقلّ توسّعاً من القسمين الأولين، حيث يقتصر على تبادل حديث مختصر تتخلّله مداخلتان ليسوع ترد فيهما أقوال وكأنّها من دون تسلسل منطقيّ، ممّا يعكس من جهة هم الجماعة المسيحيّة الأولى بحفظ أقوال يسوع، من دون الاهتمام بإدخالها في صلب التوسيع البرهانيّ للنصّ؛ ولكنّها من جهة ثانية دعوة إلى اكتشاف ما أراده القديس يوحنا من خلال إيرادها في هذا المكان بالذات.

فبعد اعتراض الجموع (ع. ٢٨)، وتذمّر اليهود (ع. ٤٠)، ها هو دور التلاميذ بالاعتراض (ع. ٦٠) والتذمّر (ع. ٦١). فقد كان هؤلاء قد بدأوا يتقبّلون فكرة وهي أن يسوع هو رسول الله الموعود، ولكنهم لم يتقبّلوا إعلانه بأنّه هو مخلص العالم (ع. ٥١)، وأنّ موته قادر على إتمام وحدة البشر مع الله (ع. ٥٦-٥٧). فوجد التلاميذ في إعلانات يسوع وتعليمه «في المجمع» كلاماً «صعباً» لا يمكن تقبّله فتعثروا (ع. ٦١).

ويبدو هذا الموقف وكأنّه استباق لما سيكونه موقف الكثيرين ممّن تبعوا يسوع، أمام عثرة الصليب، فكان لا بدّ له من الإعلان عن عودته إلى حيث ينتمي. وهو الذي «نزل» (ع. ٣٣، ٣٨، ٤١، ٥١، ٥٨) يعلن أنّهم سيرونه «صاعداً إلى حيث كان أولاً» (ع. ٦٢). فنزول ابن الله كان بناء على إرادة الله بإعطاء العالم «الخبز الحق»، وصعوده يعني أنّه حقق الرسالة التي من أجلها نزل، تماماً كما كلمة الله التي «لَا تَرْجِعْ إِلَيَّ فَارْغَةً بَلْ تَعْمَلْ مَا سَرَرْتُ بِهِ وَتَنْجَحْ فِي مَا أُرْسَلْتُهَا لَهُ» (إش ٥٥: ١١). وتكمن قوة صعود يسوع في اتّحاده مع الآب بإرسال الروح القدس الذي «يُرشد ويُخبر» (١٦: ١٣). فإنّ تساعل التلاميذ كيف يمكن لمن مات أن يحيي العالم، فإن الرب يعطيهم مفتاح السرّ: إنّ الروح الذي «استقرّ» فيه هو نبع الولادة الجديدة (٣: ٣-٨).

فالرب يعطي الروح «بلا كيل» (٣: ٣٤) لمن لا يحبس نفسه في

عينه مناهضة هذه السلطات لتلاميذ يسوع، والألم الذي عانى منه المسيحيون جراء إبعادهم عن المجمع بعد ٧٠ م. فما واجهه يسوع يواجهه تلاميذه أيضاً في كل زمان!

ويُقسم الفصل السابع إلى مقدمة (ع. ١-١٣)، وحوارين يجريهما يسوع: في أثناء العيد (ع. ١٤-٣٦) وفي اليوم الأخير منه (ع. ٣٧-٥٣). ويمكن أن نقسم الحوار الأول إلى قسمين: فتدور ع. ١٤-٢٤ حول موضوع موسى ويسوع؛ وع. ٢٥-٣٦ حول أصل يسوع وهويته المسيحانية. وكذلك نقسم الحوار الثاني إلى قسمين، الأول حوار مع الجموع حول إعلانات يسوع المسيحانية (ع. ٣٧-٤٤)، ويستكملة حوار آخر بين رؤساء الكهنة والفريسيين في غياب يسوع (ع. ٤٥-٥٣).

٧: ١-١٣ مقدمة في البداية، يربط القديس يوحنا الأحداث الآتية بما سبق «بعد هذا» (ع. ١)، ويقول علناً أن هدف وجود يسوع في الجليل هو هروبه من «اليهود الذين يريدون قتله». فعداء اليهود تجاهه ظهر منذ ٤: ١-٣ وتكرّر في ٥: ١٦، ١٨ عندما اتهموه بأنه يخرق شريعة السبت، ويجعل من ذاته مساوياً لله. وسيتناول يسوع هذه الاتهامات ليحجب عنها في ٧: ٢١-٢٤ و ٨: ٥٨ فيؤكد اتحاده الكامل بمن أرسله (٧: ١٦-١٨). وسيظهر في هذا القسم اتهام جديد: «إنه يضلّ الشعب» (٧: ١٢، ٤٧). فيسوع يواجه خطر الموت في أورشليم في أثناء «عيد اليهود عيد المظال» (ع. ٢، ١٠). ويخبر الإنجيلي ما سيحدث في أثناء هذا العيد (ع. ١٤)، وفي اليوم الأخير منه (ع. ٣٧)، وسيكمل الإطار عينه في ف. ٨ عبر الطقوس التي كانت متبعة فيه: الماء (٧: ٣٧) والنور (٧: ١٢).

وعيد المظال هو أحد أهم أعياد اليهودية الأربعة: الفصح، والعنصرة، والمظال، ويوم الكفارة؛ ويحتفل فيه اليهود في نهاية سبتمبر وبداية أكتوبر بالقطاف، شكرًا لله الذي أنعم على شعبه بالمأكل، وطلبًا لشتاء به محصول وافر في السنة الجديدة (لا ٢٤: ٣٤-٤٣).^(٦) وفي هذه المناسبة كانت الصلوات تدور حول نبوءات نهاية الأزمنة، والتي تعلن التجديد الروحي من خلال رمز المياه (زك ١٤: ١٦-١٩)، والمياه التي تفيض من يمين الهيكل (حز ٤٧: ١-١٢)، وفرح الخلاص الذي يستقيه المؤمنون من يناابيع الخلاص (إش ١٢: ٣).

وفي هذه المناسبات الكبيرة، كان على كل يهودي قادر أن يحج إلى هيكل أورشليم للاحتفالات، لذلك طلب من يسوع إخوته أن يذهب هو أيضاً «إلى اليهودية» (ع. ٣). ولكن يبدو أن عائلة يسوع لم تكن

ويتمحور النص إذاً حول ما هو مطلوب من الإنسان والمتمثل باختيار يسوع، الذي نزل من السماء مرسلاً من الآب ليعطي الحياة لمن يقبله. ولكن القديس يوحنا أدخل في توسيعه دعوة إلى فهم سرّ الإفخارستية كاتحاد وثيق بيسوع، وفهم عميق لبذل يسوع نفسه بهدف مشاركة تلاميذه بحياته. وتحقق العهد الجديد من خلال كلام يسوع، وصارت «كلمة الله» في قلب المؤمنين وفي كياناتهم (إر ٣١: ٣٣) لأن الاتحاد الكامل تمّ بين يسوع «كلمة الله»، والمؤمنين الذين قبلوه في حياتهم.

٧: ١-٥٣ عيد المظال يشكل الفصلان السابع والثامن القسم المحوريّ لكتاب الآيات وهو الجزء الأول من إنجيل يوحنا (ف. ١-١٢). ويتألف هذا القسم من سلسلة اعتراضات على شكل حوارات، تُبرز النزاع بين يسوع والمسؤولين الدينيين اليهود. ويأتي تساؤل اليهود «من أنت؟» في ع. ٨: ٢٥ في سياق تعليم يسوع طيلة ف. ٧-٨. ويصل هذا التعليم إلى قمته في ٨: ٥٨ بإعلان يسوع: «أنا الكائن»، وهو ما كان اليهود يعتبرونه: اسم الله الخفيّ. وكان يسوع في هذا الإعلان يجيب عن طلب إخوته: «أظهر نفسك» (٧: ٤). وفي موازاة هذا الإعلان، تبرز في هذا القسم المحاولات المتكررة للإمساك به، والتي ستصل إلى قمته في محاولة رجمه (٨: ٥٩). وتبدو حياة يسوع في هذين الفصلين تحت الخطر الدائم. فهو يتجنب اليهودية هرباً من القتل (٧: ١)، وأهل اليهودية يتجنبون ذكره خوفاً من اليهود (٧: ١٣)، ويتساءل يسوع «لماذا تطلبون قلتي» (٧: ١٩)؟ ويتعجب أهل أورشليم من جرأة هذا الذي «يطلبون قتله» (٧: ٢٥)، والواضح أنهم يريدون «أن يمسخوه» (٧: ٣٠)، وقد أرسلوا خداماً ليمسخوه (٧: ٣٢)، «ولكن لم يلق أحدٌ عليه الأيادي» (٧: ٤٤)، ويسوع يعرف أنهم يطلبون أن يقتلوه (٨: ٣٧، ٤٠)، حتى إنهم «رفعوا حجارة ليرجموه». وهذا ما سيدفع يسوع إلى «ترك الهيكل» (٨: ٥٩). وفي الحوارات طيلة هذا القسم، تشكل العودة إلى إرادة اليهود بقتل يسوع لازمة تتكرّر، وكأنها الخلفية التي على أساسها يستطيع القارئ أن يفهم المعنى الحق.

وتجري أحداث هذين الفصلين في اليهودية، في الهيكل، في أثناء عيد المظال، بينما كان يسوع يعلم، وكأنها أحداث محاكمة من قبل السلطات اليهودية. فالقارئ يعلم تماماً، منذ ف. ٥، أنّ هذه السلطات تنوي قتل يسوع. وكأنّ يوحنا يستبق المواجهة بين يسوع ومحاكميه، ليضعها خلال حياته العلنية الرسولية وليس ضمن مجرد جلسة محاكمة. فحياة يسوع هي مواجهة بينه، هو رسول الله الآب، وبين رفض غير المؤمنين به، في حين يكمل يسوع إعلان هويته ورسالته الخلاصية وإعلان اتحاده الكامل بالله أبيه.

وصحيح أنّ الإطار القصصي يضع الأحداث في الماضي، فينقل النزاع بين يسوع والسلطات اليهودية، ولكن النص يعكس في الوقت

(٦) كان الشعب يقوم بالطواف إلى بركة سلوام، ويملؤون جرارهم من مائها ليفرغها كاهن على مذبح التقادم في الهيكل، تذكّاراً للماء الذي أعطاه الله للشعب في البرية، فيرتّل اللاويون مزامير التسبيح والشكر.

(ع. ٢٦، ٤١)، أو النبي (ع. ٤٠)، في حين أكد بعضهم الآخر أنه «بضل الشعب» (ع. ١٢، ٤٧). وستبقى الجموع تطرح الأسئلة حوله (ع. ٢٥-٢٧، ٤٠، ٤٦، ر. ١٠: ٢٤)، فتؤمن (ع. ٣١: ٨: ٣٠؛ ١١: ٤٥)، أو تبقى حائرة (٩: ١٦؛ ١٠: ١٩-٢١؛ ١١: ٤٥). وسيطال الانشقاق الرؤساء أيضًا (ع. ٥٠-٥٣).

١٤-٣٦ حوار أثناء العيد تتمحور كل الحوارات التي ستلي (ع. ١٤-٥٢) حول معرفة إن كان يسوع هو المسيح فعلاً (ع. ٢٦، ٣١، ٤١). ففي القسم الأول (ع. ١٤-٣٦) يدعو يسوع الجموع إلى التعرف إلى أصله الإلهي وإلى كونه مرسل الآب (ع. ٢٨ ج) من خلال أقواله (ع. ١٤-١٨) وأعماله (ع. ٢١-٢٤)، ثم يعلن ذهابه إلى حيث لا يمكنهم أن يأتوا (ع. ٣٣-٣٦) ليحثهم على قبوله والإيمان به. ويمكننا أن نرى في هذا الحوار قسمين، يتناول الأول قيمة تعاليم يسوع بالمقارنة مع موسى (ع. ١٤-٢٤)، فيما يدور الثاني حول أصل يسوع الإلهي وهويته المسيحانية (ع. ٢٥-٣٦).

١٤-٢٤ قيمة تعاليم يسوع وأمام التعليم الذي أعطاه يسوع في الهيكل للمرة الأولى، تعجب اليهود من أخذ يسوع المكان المحفوظ للكتابة، وهم المسؤولون عن شرح الشريعة وتطبيقها، بعد أن درسوها وتعمقوا فيها. وأمّا يسوع فليس منهم، ولم يكن من تلاميذ أحد المعلمين المعترف بهم «فكيف يعرف هذا الكتب وهو لم يتعلم؟» (ع. ١٥). وهذا ما يعترف به يسوع نفسه من خلال جوابه «تعليمي... للذي أرسلني» (ع. ١٦؛ ر. ٨: ٢٦-٢٨). وصحيح أن تعلم الكتب ضروري، لكن يسوع أخذ تعليمه من مصدر الكتب بالذات، لأنه يعرفه ويعمل إرادته (٥: ٣٩؛ ٦: ٢٨، ٤٤). وهو في تعليمه لا يبحث إلا عن إيصال كلمة الله ولا يبغي مجداً خاصاً أبداً (ع. ١٨). ثم يعلن أنه «صادق وليس فيه ظلم» (ع. ١٨) لأنه «لم يعمل ظملاً ولم يكن في فمه غش» (إش ٥٣: ٩).

وبعد ذلك ينتقل يسوع مباشرة إلى رفض الحكم عليه بالموت بسبب شفائه مريض بيت حسد. فالشريعة برّ وليست ظملاً، ويسوع بارّ ليس فيه ظلم. بعد أن برّر أقواله، ها هو الآن يبرّر أفعاله. وحكم الناس على يسوع لأنه شفى المريض يوم السبت، في حين أنهم جميعاً يختنون أولادهم يوم السبت، في أمانة للشريعة التي تمنع العمل يوم السبت (ع. ٢١-٢٣)؛ فالشريعة ليست مجرد وصايا حرفية جامدة على ما يفهمها الجمع؛ بل هي كلمة الله التي تعطي الحياة. فالمطلوب إذا الإصغاء إلى هذه الكلمة وليس الانغلاق في حرفية الوصايا (٧: ١٧).

ولكن الجمع لم يفهموا قوله، ولم يعوا خطورة ما يحدث تجاه يسوع واعتبروه واهماً: «بك شيطان، من يطلب أن يقتلك؟» (ع. ٢٠). وكما تعجبوا من تعليمه (ع. ١٥)، تعجبوا من عمله (ع. ٢١)، ولكن كما أن تعليم يسوع هو من الله الآب مباشرة، فإن عمله يوم السبت هو

قد فهمت جوهر رسالته. وإخوته، الذين نعرفهم من خلال متى ١٣: ٥٥ هم يعقوب وموسى وسمعان ويهوذا، وهؤلاء الإخوة ليسوا من مجموعة التلاميذ، وها هم يعربون عن رغبتهم في أن يظهر يسوع «نفسه للعالم». وكانوا معه في قانا (٢: ١٢)، ولكنهم لم يروا في الآيات سوى أعاجيب يجدر به أن يستثمرها، في حين يحيا هو حياة خفية في الجليل (١: ٤٦؛ ٧: ٥٢)، والمناسبة الآن مؤاتية تماماً ليرى المسؤولون الدينيون في أورشليم ما يقوم به من «أشياء»، ويعرفوا إن كان هو «المسيح حقاً» (ع. ٢٦).

وتأخذ عبارة «العالم» بعداً سلبياً عند القديس يوحنا، فهو المكان الذي يرفض فيه الناس قبول رسالة يسوع ابن الله (ع. ٧). وكأن في طلب الإخوة تجربة شبيهة بما حاولت الجموع تقديمه ليسوع من ملكية أرضية، إثر أعجوبة تكثير الخبز. فأخوته أيضاً «لم يكونوا يؤمنون به» (ع. ٥). وكان على يسوع أن يواجه عدم فهم عائلته، كما عليه أن يواجه عدم فهم العالم. وعليه أن يواجه رسالته وحيداً. وفي الإشارة إلى عمل يسوع «في الخفاء» (ع. ٤) وصعوده إلى أورشليم «في الخفاء» (ع. ١٠)، يربط الإنجيلي ظهور يسوع بالوقت الذي «لم يحضر بعد»، في حين لا يرى إخوته سوى مناسبة زمنية بحسب الوقت البشري. فوقت يسوع هو «الساعة» التي يحددها الآب، ساعة انتقاله من هذا العالم (١٣: ١)، وهي المتعلقة بفصحته عندما «يكمل الوقت» (ع. ٨).

والاختلاف في طريقة عيش الوقت بين يسوع وإخوته، تتحول في ع. ٧ إلى اختلاف بين يسوع والعالم (ر. ١: ١٠). فالعالم هو الإنسانية التي يحبها الله وأرسل ابنه لخلاصها (ر. ٣: ١٦، ١٩: ٦؛ ٣٣: ٤؛ ٤٢: ٦؛ ١٤: ٦). ولكن العالم يستطيع أن يرفض هذه المحبة، فيتحوّل إلى مخاصم لله ومعاد لابنه، لأنه «يشهد عليه أن أعماله شريرة» (ع. ٧)، كما «النور» الذي «يؤبّخ أعماله» (٣: ٢٠). فمن هو من هذا العالم، ذهب إلى العالم، فيما «مكث يسوع في الجليل» (ع. ٩). ثم «صعد... لا ظاهراً بل كأنه في الخفاء» (ع. ١٠). فأفراح هذا العالم ليست الأفراح الحقّة، وأفكاره ليست أفكار الله، ولذلك صعد الرب ولم يبق بآية في أثناء العيد كما طلب إخوته. ولم يظهر يسوع في الهيكل إلا في منتصف العيد (ع. ١٤) وكأنه كان قبل ذلك وحده مع الآب، في حين كان اليهود يطلبونه ويبحثون عنه في أثناء غيابه انقسمت الجموع أحزاباً يعارض أحدها الآخر (ع. ١١-١٢)، (ر. ٧: ١؛ ٥: ١٨؛ ٧: ١٩، ٢٥). وهنا تبدأ مسيرة البحث عن يسوع ليعرفوه؟ أو ليقتلوه؟ وعن هويته «أين ذاك؟» وسيكرّر السؤال مراراً (ر. ٧: ١٥، ٢٠، ٢٥، ٢٦، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٧، ٤٨). ولن يكشفوا هويته الحقيقية (ع. ٣٤)، لكن يسوع سيكشفها بنفسه. وها هو يعلم في الهيكل.

واعتقد قسم من الجمع أن يسوع «صالح» وأنه ربما يكون المسيح

إيمان هؤلاء أولاً على تعليم يسوع «جهاراً» مما يعني أن الرؤساء كانوا مؤيدين لما يقوله (ع. ٢٦: ٤٦)، أما هنا فيستند إيمانهم على الآيات التي أجراها يسوع الناصري مما يؤكد أنه من الله، بحسب ما قال نيقوديموس قبلاً (٣: ٢). وهذا ما كان إشعياء النبي قد أعلنه في نبوءته عن المسيح المنتظر الذي سيسقي المرضى، ويفتح عيون العمي، ويجعل العرج يمشون ومحبة للمساكين (إش ٣٥: ٥-٦).

ووصول الناس إلى هذه النقطة من اعتبارهم يسوع متمم النبؤات، جعلت الفريسيين في حالة طوارئ. ويبدو هؤلاء في إنجيل القديس يوحنا أبرز المعادين ليسوع ولرسالته.^(٧) فقد أرسلوا «الخدّام ليمسكوه» (ع. ٣٢)، فتحوّل تعليم يسوع من الإعلان عن هويته الإلهية، إلى الإعلان عن موته القريب (ع. ٣٣) وغيباه من بينهم، وهو ما يجب أن يؤدي بالسامعين إلى الالتزام بالإيمان به، لأن حضوره بينهم قصير را. ع. ٣٣-٣٤ (را. ١٢: ٣٥؛ ١٣: ٣٣؛ ١٤: ١٩؛ ١٦: ١٦-١٩). وسيمر الوقت سريعاً فيمضي يسوع إلى أبيه ويبحث الناس عنه فلا يجدونه، ولا يجدون بالتالي من أرسله لأنه وحده القادر على تعريف الناس به. وطالما بحث المؤمنون قديماً عن الله ولكنهم لم يجدوه (را. هو ٥: ١٥؛ ١٠: ١٢؛ عا ٥: ٤؛ ١٩: ٢٢؛ ٢٠: ١٩؛ ٢٢: ٣؛ عز ٨: ٢٢)، لأن يسوع وحده قادر أن يخبر عنه، فهو «الابن الوحيد» (١: ١٨). فإن لم يؤمنوا به الآن فإنهم لن يجدوه بعد فوات الأوان (را. ٨: ٢١؛ أم ١: ٢٨). وسيعود يسوع من العالم إلى الآب، ومن لا يؤمن به لا يمكنه أن يجده. ولكن اليهود لم يفهموا! فقد ظنوا أنه سيهجر البلاد إلى الخارج، فيعلم الوثنيين «اليونانيين» (ع. ٣٥). وفي كل الأحوال تبقى كلمة يسوع مصدراً للتأمل وفحص الضمير لكل من يسمعها ونحن منهم: «ما هذا القول؟» (ع. ٣٦).

٣٧-٥٣ خطاب في اليوم الأخير من العيد كان يمتد عيد المظال سبعة أيام، يعيشها المؤمنون في خيام (مظال) يصنعونها من أغصان الشجر، وينتهي في اليوم الثامن بما يسمى «اليوم العظيم». وهذا العيد هو آخر الأعياد المقدسة في السنة، وكان أيام يسوع، يتضمن طقوساً تعليمية؛ أما في اليوم الثامن فلم يكن الشعب يستقي المياه، لأنه كالسبت لا يجوز فيه العمل؛ بل يتذكرون فيه تحقيق الوصول إلى أرض كنعان بحسب إرادة الرب، ويتوجونه برتبة التتويج (الهنوكة).

وفي هذا اليوم الأخير، اليوم الثامن من العيد، «وقف يسوع

عمل الآب بالذات. فإن كان موسى قد أعطى الختانة ومنحها أولوية على السبت، فذلك للإعلان عن أن هدف الشريعة هو حياة الإنسان «بكلّيته» (ع. ٢٣)، وأن الإصغاء إلى كلمة الله بعمقها، وتتميم إرادة الله من خلالها هو الحياة (٥: ٣٩). فالمطلوب ليس التطبيق الحرفي، والممارسة الظاهرية للشريعة بل الدخول في العمق. وبالتالي يطلب يسوع منهم عدم الحكم عليه بحسب الظاهر بل بحسب هويته الحقيقية. وهذا ما سيتوضح في القسم الثاني من هذا الحوار الأول.

٢٥-٣٦ أصل يسوع وهويته في محور هذه الآيات يأتي السؤال الملح: «ألعل... هذا هو المسيح؟» (ع. ٢٥). ولكن دون هذا التأكيد معوقات كثيرة (ع. ٢٥-٢٧). فقد كان بعض الناس قد قالوا إنه صالح (ع. ١٢)، وما إن العديدين يؤمنون به، لكنّ الفريسيين ظلوا على عداوتهم تجاهه (ع. ٣١-٣٢).

وقد كان اليهود في القرن الأول، أي أيام يسوع، ينتظرون المسيح المخلص، ولكنهم لم يكونوا متأكدين من كيفية ظهوره. واختلفت انتظاراتهم بين مسيح ملك، أو كاهن، أو نبي، أو ابن داود، أو مخلص عسكري... فهل يسوع هو المسيح؟

وكان يمكن للجمع أن يؤمن به نظراً إلى الآيات (ع. ٣١) التي قام بها وإلى التعليم الذي يليه، لكن الانتظار المسيحاني لهذه المجموعة لا يقبل ذلك لأن المسيح باعتقادها «متى جاء، لا يعرف أحد من أين هو»، في حين أن يسوع معروف الأصل والعائلة (ع. ٢٧). ويأتي جواب يسوع صرخة مبدوية في الهيكل: «نادى» (را. ١: ١٥؛ ٧: ٣٧؛ ١٢: ٤٤) ليُفهم الجميع أنه ليس من يظنون، وأن أصله ليس من الجليل، بل من لدن الآب. فقد ظنّ الناس أنهم يعرفونه، ومع ذلك فهم لا يعرفون الآب وإلا لتعرفوا إلى من أرسله. ويسوع هو مرسل الآب، يكرّر الرب ذلك أربع مرات في العديدين ٢٨-٢٩. وصحيح ما قاله الناس: «المسيح لا يعرف أحد من أين هو»، إنه سرّ الابن الذي كان مع الله والذي أتى من لدن الله.

في كل الأحوال يبقى الإنسان واقعاً بين معرفة يسوع، وجهله له ولرسالته الإلهية الخلاصية، فوحده رسول الآب يعرف من أرسله ويعرف إرادته (ع. ٢٨).

وإعلان يسوع هذا جعل أهل أورشليم يتحولون هم أيضاً إلى معادين «يريدون إمساكه»، ولكن «ساعته لم تكن قد جاءت بعد» (ع. ٣٠). وفي هذه العبارة عودة إلى آية قانا الجليل وموضوع «الساعة» التي يجب فيها على يسوع أن يظهر مجده (٢: ٤)، وكأنّ في ذلك إشارة إلى أن الآية الحقيقية التي ستتم «عندما تأتي الساعة» هي موته وقيامته. وهذه الساعة لا أحد يحددها إلا الله الآب (١٢: ٢٣؛ ١٧: ١).

ولكن بين الجموع، كان هناك من عرف كيف يميّز بين الظاهر والحق؛ ففهم هؤلاء تعليم يسوع ومعنى الآيات التي قام بها، فتعرفوا إلى الله من خلاله، وعرفوا أنه مرسل الآب الحق فأمنوا. وقام

(٧) را. ٧: ٣٢، ٤٥، ٤٧، ٤٨؛ ٨: ١٣؛ ٩: ١٣، ١٦، ٤٠؛ ١١: ٤٦-٤٨، ٥٧؛ ١٢: ١٩، ٤٢؛ ١٨: ٣. في الحقيقة لم يكن عند الفريسيين أيام يسوع أية سلطة، ولكنهم استلموا السلطة بعد دمار الهيكل ٧٠ م، فشكّلوا خطراً حقيقياً على التلاميذ بعد موت يسوع وقيامته. وهذا ما سيظهر بوضوح في نصّ شفاء الأعمى (را. ف. ٩).

يجري الماء الحي، الذي أتى به وحي يسوع، في القلوب ويتحول بالإيمان إلى أنهار تثبت الحياة الجديدة. إنه عمل الروح.

وعندما تكلم يسوع في الهيكل لم يكن الروح قد أعطي بعد، ولكن يوحنا يلفت النظر إلى ساعة يسوع، أي إلى موته وقيامته. فقد شهدنا تحقيق ما أعلنه يسوع في يوحنا ٧: ٣٨ عند حادثة الحربة في يو ١٩: ٣١-٣٧، حيث يوضح يوحنا أنه جرى من يسوع على الأثر دم وماء (١٩: ٣٤). فأنهار الماء التي يجب أن تجري من جوف يسوع هي الماء الذي خرج مع الدم من جنبه على الصليب. ويذكر يوحنا هنا الماء بعد الدم مما يعني أن «عطية الروح هي ثمرة ذبيحة يسوع».

ولم يعط يسوع الروح في أثناء تقدمه ذاته وحسب، بل ظهر بشخصه بعد قيامته ليهب الروح لتلاميذه. وهذا ما ينقله القديس يوحنا في مساء يوم القيامة «قال هذا ونفخ فيهم وقال لهم: اقبلوا الروح القدس» (٢٠: ١٩-٢٣). وفي الفعل اليوناني «نفخ» عودة إلى سفر التكوين وخلق الإنسان (تك ٢: ٧) وكأن الأمر يتعلق بخلق جديد. ففي نفخ يسوع في التلاميذ يشركهم بـ«نفخة» الروح ويخلق فيهم الحياة الجديدة مدشناً الخلق الجديد.

وكان يسوع قد علم تلاميذه في خطابات الوداع عن دور الروح ورسالته. ويكتب القديس يوحنا إنجيله بعد القيامة وحلول الروح القدس، أي بعد أن اختبر الرسل والتلاميذ فيض الروح القدس فيهم، وفهموا مغزى كلام يسوع (١٤: ٢٦)، وقادهم إلى الحقيقة الكاملة (١٦: ١٣). والخبرة عينها يقدمها الرب لكل من يسمع كلمته ويرتوي منها، بحيث يصبح المؤمن نبع ماء حي للآخرين، باتحاده مع ابن الله (١: ١٢). وعندما مُجد يسوع بموته وقيامته، أفاض على المؤمنين بالروح القدس، لأنه هو الممجد دائماً (١٧: ٥)، وسمح بموته وقيامته لكل من يؤمن به بأن يشترك معه بالمجد (١٤: ٢٠).

فبعد هذا الإعلان عن الماء الحي، انقسم الجمع من جديد فقال بعضهم «هذا بالحقيقة هو النبي... هذا هو المسيح»؛ في حين اعترض آخرون على ذلك نظراً إلى أصله الجليلي فيما كانوا يعتقدون أنه يجب أن يكون من نسل داود وقريته (ع. ٤٠-٤٤). وحدث الاختلاف أولاً بسبب ما يقوم به يسوع وقد اعتبره الجليليون خارقاً، كما جرى بعد تكثير الخبز (٦: ١٤)؛ ثم بسبب التأكيد على أنه المسيح (ع. ٤١)؛ فإذا بأصله الجليلي يتسبب برفض ذلك نظراً إلى النبوءات التي تؤكد سلالة المسيح الداوودية (را. ٢ صم ٧: ٥؛ مي ١: ١؛ إش ٧: ١٣؛ ٩: ٦؛ ١١: ١؛ مز ١٨: ٥١). وذكر متى ولوقا مولد يسوع في قرية بيت لحم، بلدة الملك داود، في حين لم يذكر يوحنا أبداً هذا الأمر، وهو ما شكّل عقبة لأهل أورشليم أمام الإيمان بأن يسوع هو المسيح المنتظر. وكانت الجموع قد رفضت مسيحانية يسوع، لأنها اعتبرت أن أصل المسيح يجب أن يكون مجهولاً (ع. ٢٧)؛ وهنا يرفضونه

ونادى» (ع. ٣٧). وبعد الكلام عن أصله (ع. ٢٥-٢٩)، وعن ذهابه القريب (ع. ٣٣-٣٦)، ها هو يتكلم الآن عن الروح القدس. فإن كان الماء رمز الحياة التي أعطاها الله للشعب في الصحراء القاحلة، وهو أيضاً رمز الحياة الروحية المتجددة، النابعة من الهيكل لتروي الأرض برمتها (حز ٤٧: ١-٢)، فإن يسوع هو تمام هذه الوجود.

ويقف يسوع وينادي، ليس فقط في الماضي، وإنما في الحاضر أيضاً: «إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب» (ع. ٣٧). فوحده من يعطش يعرف قيمة عطية الله ليس للماء فقط بل لكلمة الله (را. عا ٨: ١١؛ تث ٨: ١٥؛ خر ١٧: ٦؛ عد ٢٠: ٨، ١١؛ مز ٧٨: ١٦-٢٠؛ إش ٤٨: ٢١). وقد عاش الأجداد خبرة العطش في الصحراء، ويعيش المؤمنون اليوم عطشاً روحياً لا يمكن أن ترويه سوى معرفة الله وكلماته (مز ٤٢: ٢-٣). ويسوع هو نبع هذه المعرفة، إذ هو من يعطي «الماء الحي»، ويدعو الجميع ليجدوا فيه ملء الحياة الموعودة. ويمكننا أن نفهم كلمات يسوع أيضاً على هذا النحو: «وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبْ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيَهُ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الْأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيَهُ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعُ مَاءٍ يَنْبُعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ»، مما يعني أن يسوع، نبع الحياة الحي، يقدم ذاته للجميع، ولكن المؤمنين وحدهم قادرون على الارتواء، فيتحوّل هذا الماء فيهم إلى نبع حياة أبدية (٤: ١٤). وإن كل من يشرب من نبع الحياة تدوم فيه الحياة وتفيض لتسقي الجميع، وتغذي الجميع (حز ٤٧: ١٢). ويصبح المؤمن كنبع لا ينضب (إش ٥٨: ١١). ولكن، من ناحية أخرى، طالما رمزت المياه عند اليهود إلى شريعة الله التي تحيي من يرتوي من تعاليمها. فقد أعلن الله على لسان النبي إرميا أنه سيرم مع شعبه عهداً جديداً فسيضع عهده في قلوبهم (إر ٣١: ٣٣؛ را. حز ٣٦: ٢٦). وفهم المسيحيون هذا العهد على أنه الروح القدس الذي سيأخذ مكان حرف الشريعة؛ والماء هو رمز هذا الروح الذي سيفاض على الشعب في نهاية الأزمنة، في زمن العهد الجديد (را. حز ٣٦: ٢٦؛ ١١: ١٩؛ ٣٩: ٢٩؛ إش ٤٤: ٣؛ يو ٣٩: ١). وهذا ما يوضحه يسوع بإعلانه أنه نبع هذا الماء لمن يعرفه (ع. ٣٩). ويعلن يسوع في تعليمه مضمون وعد الله: إن الماء الحي الموعود هو الروح القدس، وقد تمّ الزمن بيسوع.

ويعطينا يسوع الروح بواسطة كلمته، ولكن كلما تقدمنا في قراءتنا للإنجيل فهمنا إلى أن الروح القدس هو عطية الله لنا بشخص يسوع المسيح. يرمز الماء الحي أولاً إلى الوحي الذي أتى به يسوع في أثناء رسالته الأرضية، ولذلك يدعو إلى الإيمان به، وإلى الشرب من الماء الذي يجري منه، ولكن الأمر مفتوح على المستقبل، على زمن الروح. فكما الماء الذي يخرج من الهيكل، في رؤيا حزقيال، ويتحوّل إلى نهر يحمل الخصب والحياة حيث يجري، هكذا يجب أن

يمكن لرجل ناصري معروف الأصل والنسب أن يكون ابن الله؟ وكأن الشريعة تحولت إلى حاجز أمام الإيمان، بدلاً من أن تلعب دورها في تنوير درب الباحثين عن خلاص الله، والانفتاح على مشيئته كيفما ظهرت!

ولم يتخذ الرؤساء قراراً واضحاً تجاه يسوع، فسنرى فيما يلي بأنه سيتابع تعليمه في الهيكل (٨: ١، ١٢)، وسيؤمّن «به الكثيرون» (٨: ٣٠)، ولكنّ النزاع سيقوى، والشقاق سيشتدّ، حتى الوصول إلى الفصول ١٣-١٧ حيث تبقى مجموعة صغيرة آمنت بيسوع ابن الله واتّحدت به.

وبدأت محاكمة يسوع باكراً في إنجيل يوحنا، فشكّل الفصلان ٧-٨ مرحلته الأولى التي ستكمل حتى ف. ١٠: ٢٤-٣٣، وهو ما يوازي عند الإزائيين النزاعات التي ستؤدي إلى توقيف يسوع والحكم عليه (را. لو ٢٢: ٦٧، ٦٩، ٧٠). وكل ما سيُقال وسيحدث بعد الآن، سيكون على خلفية هذا النزاع الذي سيؤول إلى موت يسوع.

٨: ١-١١ المرأة الخاطئة يتألف الفصل الثامن من خبر قصير (ع. ١-١١)، يليه خطاب تقطعه اعتراضات اليهود من حين إلى آخر (ع. ١٢-٥٩). والخبر هو حادثة المرأة الخاطئة، وقد اعتبرها العديد من المفسرين نصّاً غير يوحناوي (ربما لوقاوي!). فالخبر من جهة، لا يتماشى مع سياق ما يجريه يسوع من أحاديث في الهيكل؛ ومن جهة أخرى تبدو مفردات النصّ غريبة عن استعمالات القديس يوحنا الذي لا يستعمل أبداً عبارات «جبل الزيتون» و«الكتبة والفريسيين»، ويفضّل عبارة «رابي» على «معلم»، ولا يصف يسوع وهو يعلم «واقفاً»؛ إضافة إلى أنّ هذا النصّ غائب عن عدد كبير من المخطوطات اليونانية. ولكنّ النصّ حاضر في الإنجيل اليوحناوي، والعدد الأكبر والأقدم من المخطوطات يحتفظ به في بداية الفصل الثامن، ممّا يؤكد إرادة الإنجيلي في إبراده في هذا المكان بالذات، ولو قطع سياق خطاب يسوع. أمّا الخطاب الذي يلي القصة، فهو تابع لما قرأناه في الفصل السابع، والذي يقع في الهيكل، في إطار عيد المظال وطقوس الماء والتنوير التي ترافقه: «ثمّ كلمهم يسوع أيضاً» (٨: ١٢)، وقد أرادوا إمساكه (٨: ٢٠). وردت في الخطاب السابق (ف. ٧) مواضع ستتابع توسيعها في ع. ١٢-٥٩ وأهمّها كشف يسوع عن هويته. فبعد أن أعلن أنّه «نبع الماء الحي»، وسيلن أنّه «نور العالم» ليتوصّل إلى القول «أنا هو» (٨: ١٢، ٥٨)، ممّا يعني أزليّته باتّحاده مع الآب. وهذه الإعلانات الثلاثة هي بالحقيقة انعكاس لما كان يوحنا قد أعلنه في المقدمة اللاهوتية (١: ١-١٨) عن «الكلمة» «الله»، و«من لدن الله»، وفي «حضر الله» الذي حمل إلى العالم الحياة والنور. ثمّ إنّ في هذا النصّ متابعة لموضوع رفض العالم للمسيح «الكلمة» نور العالم وحامل الحياة، ممّا يعني

لأنّه ليس من بيت لحم! وسيبقى الناصري الإنسان عثرة أمام الإيمان بالمسيح ابن الله، أمس واليوم وغداً! ولم يجب يسوع عن هذا الاعتراض، فهو أعلن سابقاً أن الحكم يجب ألا يكون على المظاهر (ع. ٢٤). وحدث بينهم انشقاق بسببه (ع. ٤٤).

وفي ع. ٤٥-٥٣ عودة إلى ع. ٣٢ حيث كان «الفريسيون ورؤساء الكهنة قد أرسلوا خداماً ليمسكوه». فبعد التعليم، يختفي يسوع عن الساحة، فيعود بنا القديس يوحنا إلى الفريسيين والكهنة، الذين يتلقون تقريراً من الخدام حول المهمة التي أرسلوهم لأجلها. فقد فشلت هذه المهمة (ع. ٤٥-٤٦؛ را. ٨: ٢٠)، ويظهر التقرير غامضاً، وسيعرف القارئ تكلمته في يو ٨: ١٣-٥٩، من خلال النقاش بينهم وبين يسوع في الهيكل. وعند سؤالهم عن عدم إتمام مهمتهم باعتقال يسوع (ع. ٤٥)، يجيب الخدام بإعجابهم بكلام يسوع «لم يتكلم قط إنسان هكذا» (ع. ٤٦). ولكنّ المسؤولين ظلوا عند قناعتهم الجامدة بأن أصل يسوع لا يتناسب مع كرامة «النبي . . المسيح». فإنّ المواجهة الآن هي بين كلام يسوع وكلام الرؤساء والفريسيين. وقال هؤلاء كلمتهم القاضية بتوقيف يسوع، ففشلت أمام «كلام هذا الإنسان»، ممّا أغضبهم فحكموا على الخدام وعلى يسوع في الوقت عينه: هو مضللّ وهم مضللون (ع. ٤٧). واعتبر المسؤولين أنّ الناموس هو مسؤوليتهم وحدهم، وهم الذين درسوا الكتب وتعمّقوا بها، فقام واحد منهم وهو «نيقوديموس» ووضح أنّ ما يقومون به من حكم على يسوع لا يتماشى مع «ناموسنا» الذي يفرض على من يعرفه أن يتصرّف بالحق لا بالظلم.

وحكم الرؤساء على يسوع ظمناً، ضدّ الناموس الذي يعرفونه جيداً، ويعرفون أنّه في جوهره تمييز لإرادة الله وليس تطبيقاً لإرادتهم الخاصة. فقد حكم الرؤساء على يسوع من دون أن يسمعه، وكأنهم أصدروا الحكم من دون محاكمة، على ما يقول نيقوديموس. فلم يسمعه، لكنّ المقصود بذلك أنّهم لم يفهموا ما قاله الرب فلم يصلوا إلى الإيمان به (را. ١٠: ٢٦؛ ٤: ٤٢؛ ٥: ٢٣، ٣٧؛ ٦: ٦٠؛ ١٢: ٤٧)، وعلى عكس المؤمنين «خرافي تسمع صوتي» (١٠). وما يلوم نيقوديموس أصحابه عليه، هو أنّهم لم يسمعوا يسوع، فلم يعرفوا بالتالي عمله (ع. ٥١). وبهذا يوجّه إليهم حكماً قاسياً مفاده أنّهم يحكمون على يسوع باسم الناموس، الذي لا يطبقونه، لأنهم صمّوا آذانهم عمّا ينادي به. ولكنّ جواب الفريسيين له لم يكن سوى تكرار لما واجهوا به الخدام بصفته أصحاب السلطة العارفين تماماً بالكتب: «فتش وانظر» في النبوءات ولن تجد فيها ما يدعم المعتقد بأنه يمكن أن يقوم نبي «من الجليل» (ع. ٥٢).

رفض الفريسيون يسوع بسبب أصله الجليلي، وهذا ما تكرر ثلاث مرات (ع. ٢٧، ٤٢، ٥٢)، وكأنّ القديس يوحنا يوحى للقارئ بأنّ سرّ التجسّد يبقى الصعوبة الأكبر أمام الإيمان، فكيف

كان يسوع معلماً، فهو إذاً يعرف الناموس، وإن أجاب عن غير ما يأمر الناموس به فهو كافر بلا ريب. وبالفعل كانت أحكام الناموس واضحة: «إذا زنا رجل مع امرأة: فإذا زنا مع امرأة قريبة فإنه يُقتل، الزاني والزانية» (لا ٢٠: ١٠)؛ و«إذا وُجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يُقتل الاثنان» (تث ٢٢: ٢٢)؛ وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخرجوها كليهما إلى باب تلك المدينة وأرجموها بالحجارة حتى يموتا» (تث ٢٢: ٢٣-٢٤)؛ ولكن «إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده» (تث ٢٢: ٢٥-٢٦). فالقضية ثابتة واضحة إذ «أمسكت في زنا» والحكم واضح لا لبس فيه «يموتا»، «يرجما حتى الموت». فلماذا إذا السؤال؟ فقد كان على هؤلاء «القضاة» تنفيذ حكم الناموس المطلق من دون العودة إلى يسوع. وثم لماذا أتوا بها وحدها في حين أن الناموس يحكم على الرجل الزاني والمرأة الزانية معاً؟ ولا يقول النص شيئاً عن وضع المرأة. فهل هي متزوجة أو مخطوبة؟ وما هي ظروف الإمساك بها؟ ولماذا يغيب الرجل شريكها؟ وأين هو زوجها؟ ثم لماذا يُخضع الفريسيون والكتبة قضية قانونية لحكم يسوع، وهو لا صفة له؟

فالمقصود إذاً ليس الحكم على المرأة، بل الإيقاع بيسوع للحكم عليه هو (ع. ٦)، ولكن لماذا ينقل يوحنا هذا الحدث في هذا المكان بالذات؟ وأمام السؤال-التجربة، لا يجيب يسوع بشيء، بل يصمت وينحني «إلى أسفل وكان يكتب بإصبعه على الأرض» (ع. ٦، ٨)، وكأنه يذكر علماء الشريعة هؤلاء بكلام الرب في الناموس: «أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطي كل واحد حسب طريقه حسب ثمر أعماله... الحائدون عني في التراب يكتبون» (إر ١٧: ١٠، ١٣؛ را. أي ١٣: ٢٦) ويدين فيه كل إنسان بحسب مسلكه. ولكن نزولاً عند إصرارهم على السؤال يقول: «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر» (ع. ٧)، معيداً كلاً منهم إلى ضميره ليعرف ليس حرف الناموس بل حقيقته. وهكذا فقط يستطيع علماء الناموس أن يصلوا إلى الوحي الذي يحمله الناموس، فتتحول الوصايا من شريعة وقانون إلى نور داخلي ينير قلب الإنسان.

وبهذا لم يرفض يسوع الناموس ولا أحكامه، ولكنه أعاد القضاة إلى ذواتهم وإلى الوعي أن «لا أحد بارٌّ أمام الله» (مز ١٤: ١-٣؛ ٥٣: ٢-٤). فكما يعرف العلماء الأحكام ليطبقوها على الخطاة، من المهم أن يعرفوا ذواتهم ليطبقوا الأحكام كل على نفسه. فالمرأة زانية بالتأكيد، ولكن للحكم عليها يجب أن يكون الحاكم «بلا خطيئة». واعتبر الكتبة والفريسيون أن الزنا هو خرق لأحكام الناموس، وهو ما أمسكت المرأة بموجبه، أما بالنسبة إلى يسوع فهو خطيئة، ويجدر بمن يحكم في خرق الناموس أن يكون بلا خطيئة. وارتكز الفريسيون

الدينونة (را. ٧: ٢٤؛ ٨: ١٥-١٦، ٢٦، ٥٠). وصحيح أن المسيح «لا يدين أحداً» (٨: ١٥)، ولكنه هو المتحد بالآب حامل الدينونة الحق (٩: ١٦). ولكن «كثيرون آمنوا به» (٨: ٣٠) مما يعني أن صراعاً ونقاشاً حادين سيؤديان إلى «ارتفاع ابن الإنسان» (٨: ٢٨)، وذهابه إلى حيث لا يعرفون (٨: ١٤، ٢١-٢٢). وبموته كما في حياته يسوع هو المتحد كلياً بأبيه (٨: ١٤-١٦، ٢٥-٢٩). وتأتي حادثة المرأة الخاطئة لتقطع خطاب يسوع وإعلاناته عن هويته، وردات فعل مستمعية عليها. ولكن الإنجيلي ربط الخبر بما يليه بحيث جعل منه جزءاً لا يتجزأ من الإطار القصصي العام. ويبدو النص كأنه تحقيق صحفي ينقله شاهد عيان عن خلاف قانوني حول مسألة أخلاقية، تواجه فيها خاطئة خطر الحكم عليها بالرجم فتنتهي بعدم الحكم عليها (ع. ١١)، في حين يواجه يسوع ذات الحكم (٨: ٥٩). فقد أخذ يسوع خطيئتها وقدم لها غفراناً مجانياً. وفي الهيكل، انتقد يسوع الدينونة بحسب الجسد (٧: ٢٤؛ ٨: ١٥)، وأكد بأنه لا يدين أحداً (٨: ١٥)، وهذا ما أظهره في موقفه من هذه المرأة.

وانتهى الفصل السابع بالإعلان: «مضى كل واحد إلى بيته» (٧: ٥٣)، «أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون» (٨: ١). فنحن في إطار الاعتراضات العديدة على يسوع (هويته، وأقواله، وأعماله)، وكأننا أمام دعوى قضائية تجمع الأدلة والبراهين للحكم عليه (٨: ٦). ففي ذكر الإنجيلي لجبل الزيتون، إشارة إلى صلاته واتحاده بالآب من جهة، وإلى رفضه وتسليمه من قبل البشر من جهة ثانية. فكل الإشارات تدل على ما يحيط بيسوع من خطر الموت.

«ثم حضر أيضاً إلى الهيكل»، فهو كل ما يواجهه، يكمل رسالته في تعليم «جميع الشعب» الذي يأتي إليه. ولكن في مقابل الالتفاف حول يسوع المعلم (ع. ٢)، سيقوم التفاف حول «امرأة أمسكت في زنا» (ع. ٣). وجعلت مجموعة صغيرة من «الكتبة والفريسيين» هذه الخاطئة في الوسط للاستجواب القانوني. ولكنهم في الحقيقة لن يستجوبوها ولن يوجهوا إليها كلمة واحدة، بل ستطرح الأسئلة على يسوع وكأنه هو المتهم الأول أو بالأحرى المعد ليصبح في موقف المتهم. ففي حين كان من المفترض مساءلة المرأة عن وضعها، تحول الأمر سريعاً إلى استجواب ليسوع حول موقفه من الناموس. وكان المعلم يجلس في الوسط، ويجلس حوله تلاميذه، فجاء الفريسيون والكتبة «وأقاموا المرأة في الوسط وقالوا له يا معلم... موسى أو صانا... فماذا تقول؟» (ع. ٤-٥). فصار يسوع والمرأة هما محور الحدث، هي لأنها «أمسكت في زنا»، وهو لأنه مُتهم من دون برهان: أرادوا «ما يشكون به عليه» (ع. ٦).

ويسوع، بحسب قولهم، هو «معلم»، ولكنهم لا يبتغون تعليمه، فإنهم يعلمون تماماً ماذا يقول «موسى في الناموس»، بما لا يدع مجالاً لأي شك. فالناموس يأمر وما على المؤمن إلا أن ينفذ. فإن

وتتتابع أحداث عيد المظال في الفصل التاسع وحتى يو ١٠: ٤٢. فقد خرج يسوع من الهيكل في يو ٨: ٥٩، وتوقف في مروره أمام أعمى فشفاه، ونال منه اعترافاً إيمانياً واضحاً. وأما الفريسيون فنالوا من يسوع توبيخاً وحكماً على عماهم، ثم جواباً على اعتراضهم من خلال خطاب يعلن فيه أنه الراعي الصالح. وفي يوحنا ٩: ١-٢٠ يصور القديس يوحنا بالعمل، ما قاله يسوع في يو ٨: ١٢: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ»، وهو ما يكرّره في يو ٩: ٥: «مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ». فمع تكميم آية شفاء الأعمى، تستكمل الدعوى المقدمة ضد يسوع والمستمرة منذ بداية الإنجيل، وتنتقل لتطال الأعمى الذي شفي: أنكر الفريسيون هويته، ثم أنكروا شهادته، وطردوه من المجمع. فإن كل ما عانى منه يسوع، يعاني منه أيضاً كل من يقبله ويقبل كلمته. ولكن هؤلاء، ويرمز إليهم هذا الذي كان أعمى فشفاه، فهم أول خراف الراعي الصالح وقد جمعهم راعيهم في «رعية واحدة».

وعلى عادة القديس يوحنا، نجد إذاً في ف. ٩-١٠ خبراً، هو آية شفاء الأعمى في بركة سلوام، يليه حوار بشكل محاكمة، ثم يتحول إلى خطاب في يو ١٠: ١ ويستمّر حتى نهاية الفصل؛ إذ نجد في بداية ف. ١١ حيث خبراً جديداً.

وقدّم يوحنا يسوع «الحياة والنور» الذي انكشف للعالم و«العالم لم يقبله». وركزت الفصول الأولى على يسوع الحياة من خلال «الولادة الجديدة» (ف. ٣) و«الماء الحي» (ف. ٤) و«خبز الحياة» (ف. ٦). أما الآن فالنور هو المحور: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» (٨: ١٢؛ ٩: ٥). وما شفاء الأعمى إلا رمز لانتصار النور على الظلمة، ف«النور يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ، وَالظُّلْمَةُ لَمْ تَدْرِكْهُ» (١: ٥). وربط الإنجيلي هذا الموضوع بموضوع الماء، فكما يولد البشر من «الماء الحي» (ف. ٧-٨)، فإنهم يحصلون على النور باغتسالهم في ماء سلوام (ف. ٩)، ولو بدا الأمر أنهم مرفوضون مطرودون.

٨: ١٢-٥٩ خطب متفرقة

٨: ١٢-٣٠ «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» بعد كلامه عن الحياة في إطار طقوس الاحتفالات بعيد المظال، يكمل يسوع خطابه فيتكلم عن النور (ع. ١٢)، الذي كان له أيضاً طقس خاص في هذا العيد. فقد كانت المنارات تُضاء في الهيكل وساحاته، بحيث يعمّ النور كل بيوت أورشليم. ولم يقبل الفريسيون الشهادة من يسوع لأنه يشهد لنفسه، فعّل يسوع الأمر باعتبار أنه متحد دائماً بأبيه وبالتالي فإنه ليس وحده من يشهد لنفسه بل الآب هو من يشهد له أيضاً وبالتالي هما اثنان (ع. ١٣-١٩). ثم ينتقل في ع. ٢١-٢٩ إلى إعلان موته القريب، وأمانته لمن أرسله. ويمكن إذاً أن نرى في هذا المقطع من الخطاب قسمين: يبدأ الأول (ع. ١٢-٢٠) بكلام يسوع وينتهي به

والكتابة على أحكام الناموس للحكم على المرأة، أما يسوع فأعادهم إلى العلاقة بالله الذي على نوره يظهر الإنسان باراً أو خاطئاً. «ثم انحنى أيضاً» (ع. ٨) وإذا بالمفاعيل سريعة ومدهشة. فقد استطاعت كلمة يسوع أن تمنع حادثة قتل. وعاد القضاة عن قرارهم بالرجم، وكأنهم يوافقون ضمناً على ما قاله الرب، ليبدؤوا مسيرة وعي جديد. فقد «خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ» (ع. ٩)، وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط.

وأراد «الكتبة والفريسيون» حصار يسوع ليشكوه، وكانوا محيطين بالمرأة لرجمها، فإذا بهم يفكون حصارهم، ويفقدون القدرة على متابعة مسعاهم في تجربته. ولكن المرأة التي لم يعد من مبرر لوجودها في هذا المكان لم تذهب بعد ذهاب قضائتها ونجاتها من خطر الموت رجماً. وظلت «في الوسط» في مركز الاتهام بانتظار حكم يسوع. وانتصب يسوع فلم يجد سواها، وبدلاً من إعلان حكمه، طرح عليها سؤالاً تاركاً لها الكلام «أين هم؟ أما دألك أحد؟» وإذا بالمرأة تجيب «لا يا سيد»، فإنّه هو «السيد» وليس «المعلم»، ولكن يسوع السيد لا يعلن لها أن خطيئتها قد غفرت، بل يطلب منها أن تذهب ولا تعود إلى الخطيئة (ع. ١١). فلم يرفض يسوع حكم الشريعة، ولكنه لم يتنكر لرسالته الخلاصية والدعوة إلى التوبة. وكما وضع الكتبة والفريسيين أمام مسؤوليتهم الشخصية، ها هو يضع المرأة أيضاً أمام تحمل مسؤولية حياة بارّة تتماشى مع الخلاص الذي نالته.

فإنّ شعب إسرائيل هو الشعب الزاني، وما المرأة الخاطئة ليست سوى صورة عنه. فقد خان الشعب عهد الله دائماً، فعبد آلهة كثيرة، ولكن الله ظل أميناً لعده.

ولا يقول النصّ في النهاية، ماذا كان موقف المرأة من هذا الطلب، وكأنّ الإنجيلي يريد أن يضع القارئ نفسه مكان هذه الخاطئة، ويترك له حرية اختيار موقفه: هل سيبقى في دائرة الخطيئة، دائرة الموت، أم سيذهب ولا يعود يخطأ؟

٨: ١٢-١٠: ٤٢ عيد التجديد بعد توقف حديث يسوع في الهيكل «عند الخزانة»، وتوقف شرحه للدعوة التي وجهها إلى العطاش للمجيء إليه فليتحولوا بدورهم إلى ينبوع ماء حي (٧: ٣٧-٣٨)، وبعد انقسام الشعب وذهاب «كل واحد إلى بيته» (٧: ٥٣)، عاد يسوع إلى الهيكل (٨: ١) حيث استأنف التعليم، فقاطعه «الكتبة والفريسيون» الذين يريدون تجربته فانتهى مشروعهم بالفشل (٨: ١-١١). وفي ع. ١٢ يستكمل يسوع إذاً تعليمه من حيث انقطع. وينقسم خطابه في الفصل الثامن إلى قسمين: في القسم الأول (ع. ١٢-٣٠) يشهد يسوع أنه «نور العالم»، فيعلن هويته وأصله الإلهي ويبرّر هذه الشهادة: أما القسم الثاني (ع. ٣١-٥٩) فيدور حول هوية اليهود وأصلهم، انطلاقاً من شخصية إبراهيم المؤمن الذي يعتبره اليهود «أباهم»، في حين أنهم يتصرفون عكس ما فعل، فهو الذي آمن بالوعد.

القانوني المحض، من دون محاولة القبول بالانتقال إلى معنى الكتاب المقدس والشرعة. وقال يسوع «أنا هو نور العالم»، والنور ليس بحاجة ليشهد عن نفسه، فوجوده شهادة كاملة عن وجوده، شرط قبول الإنسان أن يفتح عينيه ليرى. وبذلك فقط يعرف من يرى النور مصدره وأهدافه.

فإن عرف الإنسان النور-يسوع، يعرف في الوقت عينه الآب. فحين سألوهم «أين أبوك؟» كأنهم يريدون المجيء بيوسف (را. ١: ٤٦؛ ٦: ٤٢ والكلام عن ابن يوسف). فبقي يسوع على موقفه من محاولة رفع تفكيرهم إلى أعلى: «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً» (ع. ١٩). ولكن بسبب عدم الإيمان لم يكن باستطاعتهم التواصل مع يسوع. فقد ظلّ الفريسيون على موقفهم: أرادوا الحكم على يسوع «بحسب الجسد»، وبقي يسوع على موقفه: يحكم «بحسب الحق» لأنه ليس وحده بل مع الآب.

وقال يسوع هذا التعليم «في الخزانة». في الهيكل. ولم يُسكه أحد» (ع. ٢٠). ولطالما علم يسوع علانية (١٨: ١٩-٢٠)، على مسمع من الجميع. وقد كانت الخزانة تقع في الهيكل بين رواق النساء والرواق الداخلي، بحيث يستطيع الجميع سماع ورؤية ما يدور فيها، وهي على مقربة من مكان اجتماع السنهدريم الذي سيحكم على يسوع. فهو إذا لم يعلم شيئاً في الخفاء، بل تكلم في مكان رسمي علني موثوق. ومرة جديدة أرادوا الإمساك به، ولكن «ساعته لم تكن قد جاءت بعد» على الرغم من ترتيب اليهود كل الأمور للقبض عليه.

وفي القسم الثاني من الحوار الأول سيدور الحديث عن موت يسوع القريب وعن سرّ هويته: «أنا هو». وتتضمن هذه الأعداد تحذيراً يتكرّر (ع. ٢١، ٢٤)، ويتبع كلا منهما سؤال من قبل اليهود (ع. ٢٢، ٢٥)، ومداخلة أخيرة حول بنية يسوع الإلهية (ع. ٢٨-٢٩). وفي إعلان يسوع عن عودته إلى حيث لا يمكن لليهود أن يأتوا، تكرر لما قاله في يو ٧: ٢٣. فقد علم يسوع أن عداوة اليهود وقساوتهم تجاهه ستؤدي إلى اقتراب ساعته، ساعة تتميم رسالته وبذل ذاته لخلاص البشر. ولكن هذه الساعة ستكون ساعة ابتعاد كل من لم يؤمنوا به. وسيطلب هؤلاء لقاءه لكن من دون جدوى (٧: ٣٤؛ ٨: ٢١). وأعلن يسوع أن اليهود لن يستطيعوا أن يأتوا إلى حيث يذهب، ولكنهم «لم يفهموا» لأنهم من «أسفل» وهو «من فوق» (ع. ٢٣). وظنوا أنه سيترك أرضه ويهاجر لينقل البشري إلى الوثنيين (٧: ٣٥)، ومع أنهم فهموا بأنه يعلن موته، ولكنهم فكروا في أنه سينتحر.

وهنا يوضح يسوع أنهم هم الذين سيموتون لأنهم في الخطيئة: «من أسفل» (ع. ٢٣)، في حين هو يمضي إلى «فوق»، ولا تواصل بين هذين العالمين. وهذا الموت هو خيار يقوم به الإنسان، فإما أن يسعى ليكون من أولاد الحياة «من فوق» وإما أن يبقى من أولاد الموت: «من أسفل». وهذا الخيار مرتبط بإيمان الإنسان «أني أنا

(ع. ١٢) في الخزانة (ع. ٢٠). كلامه هو إعلان عن نفسه، وردّ على من يعترضون عليه.

وبالتزامن مع التطويبات بالمشاعل التي كان الشعب يقوم به بمناسبة العيد، تعبيراً عن انتظار النور الموعود مع مجيء المسيح، أعلن يسوع: «أنا هو نور العالم». وبهذا يكشف سر الله الخلاصي المخفي عن البشر، وتتميم انتظارات الشعب للنور الإلهي الأزلي «لأنّ عندك ينبوع الحياة. بنورك نرى نوراً» (مز ٣٦: ٩). ويؤكد يسوع بذلك أن الناموس، «كلمة الله»، الذي لعب دور نور السبيل لكل المؤمنين المتقين للرب (مز ١١٩: ١٠٥)، لم يكن سوى تحضير للنور الحقيقي الذي ينير الشعب اليهودي، وكل الشعوب (إش ٤٢: ٦؛ ٤٩: ٦).

ومنذ المقدمة يظهر يسوع أنّه هو النور الذي أتى إلى خاصته وخاصته لم تقبله (١: ٤)، ولكن الذين قبلوه والتزموا به أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله (١: ١٢). والالتزام بيسوع النور هو التزام حياتي وجودي، إنه حياة اتباع يسوع إلى الأمام. وللوصول إلى الله، وإلى الحياة التي يهبها، يحتاج المؤمن إلى نور يضيء له الطريق، ويسوع هو هذا النور. فبعد رمز الخبز للحياة الأبدية (٦: ٥٠)، ونبع الماء الحي (٧: ٣٧)، يأتي رمز النور ليكمل هوية يسوع الذي يتم الوعود المسيحانية (مز ٤: ٧؛ ١٨: ٢٩؛ ٢٧)، فينتشل الإنسان من ظلمة عدم معرفة الله الآب. فيسوع هو من يكشف الله ويعلنه لهذا العالم المظلم لتكون له الحياة (١: ٤). وهذه الحياة لن تكون إلا من خلال اتباع يسوع بالعمل والسلوك اليوميين.

واعترض الفريسيون على شهادة يسوع لنفسه (ع. ١٣). فمن حيث القانون لا يجوز لإنسان أن يشهد لذاته، مما يعني أنهم يصرون على عدم الاعتراف بهوية يسوع الإلهية، لأنهم يصرون على حكمهم بحسب الجسد (ع. ١٥). وفي اعتراضهم، يطلقون عليه حكماً، في حين أنه لا يحكم على أحد (٣: ١٧).

وفي جوابه يكشف يسوع سرّ وحدته مع الآب (را. ٧: ٢٨، ٣٣): فهو من الآب وسيعود إليه (٧: ٢٨، ٣٣)، وها هو الآن يعلن أنه يعرف من أين يأتي وإلى أين يذهب (ع. ١٤) في حين أنهم غارقون في جهلهم له. وبالإضافة إلى ذلك، فإن شهادته قائمة لأنه ليس وحده من يشهد، بل الآب يشهد له أيضاً لأنه معه (٨: ٢٩، ١٦، ٣٢)، وهو فيه (١٠: ٣٨)، ومع ذلك فهما واحد (١٠: ٣٠): «ناموسكم» إذا مصان. وكأنّ يسوع لم يعد يعترف بالنفسير الذي يعطيه الفريسيون للناموس، صارت الشريعة «ناموسكم» أنتم!

وفي كلامه عن الآب، نقل يسوع الحديث من مستواه المنظور إلى مستوى سرّي غير منظور، ولكنّ الفريسيين لم يفهموا. ويبدو أنهم أرادوا استدعاء «الآب» للشهادة فسألوا يسوع «أين هو أبوك» (ع. ١٩). وتجمّدوا في ظل حرف الناموس، وظلّوا على المستوى

وأمام هذه الأعداد نشعر وكأننا نقرأ تقريراً عن مجادلات اليهود مع الجماعة المسيحية الأولى، أو توضيح أن هذه الجماعة هي سلالة إبراهيم الحقيقية لأنها من الله وقد آمنت بآبانه.

وبعد أن «آمن به كثيرون»، يوضح يسوع في ع. ٣١-٣٦ أن المهم هو الثبات في كلامه، لتكون التلمذة حقيقية، وليس مجرد انتماء عائلي أو اجتماعي أو ديني. فتتمحور الآيات حول كلمة الحرية والعبودية، فهي تبدأ بع. ٣١ «إن ثبتم... الحق يحرركم»، وتنتهي بع. ٣٦ «بالحقيقة تكونون أحراراً»، وذلك للتأكيد على نقطتين: التلمذة ليسوع، والحرية.

وفي الحقيقة، ظهر أن هناك تلاميذ، وهناك تلاميذ حقيقيون. ففي يو ٦: ٦٦ تركه الكثير من تلاميذه، وسيظهر في هذا النص أن هناك من المؤمنين به (ع. ٣٠) من لا يؤمنون حقاً (ع. ٤٦). فإن يكن الإنسان تلميذاً لله فهو أن يثبت في كلامه، أي أن يكون أميناً لتعاليمه (مز ١٠٢: ١٢، ٢٤؛ إش ٨: ١٠؛ ٦٦: ٢٢)؛ وأن يكون تلميذاً ليسوع هو أن يكون في «الحقيقة»؛ فيعرف الحقيقة (أم ٢٢: ٢١؛ ٢٣: ٢٣)، وسرّ إرادة الله (دا ١٠: ٢١)، فيؤمن بأن يسوع هو ابن الله الذي يكشف إرادة الله للإنسانية. فإن كانت الحقيقة تحرر (ع. ٣٢) فيسوع هو الحقيقة وهو إذاً من يحرر (ع. ٣٦).

وفي كلامه عن الحرية حرّك يسوع مشاعر اليهود الوطنية. فقد كانوا تحت الاحتلال الروماني، ولكنهم لا يعترفون أبداً بسلطة هذا الاحتلال، ويسعون إلى التحرر عبر حركات ثورية. فقد كانوا يؤمنون بأن لا سيّد عليهم سوى الله وحده، وهم الذين لم يسجدوا لأي صنم عبر تاريخهم. فإنهم أحرار ولم يولدوا في العبودية (إر ٢: ١٤)، وقد افتداهم الرب قديماً كي يظلوا أحراراً ولا يعبدوا إلا الله الواحد الأحد. أليس هذا هو معنى خبرة الخروج والحرية (حز ٦: ٥-٧)؟

وقد كانت الحرية هي كنزهم الأعظم، يجاهدون للحفاظ عليها بكل قواهم، وها يسوع يكلمهم عن عبوديتهم وعن ضرورة تحررهم. فهل هم مستعدون؟ يؤكد يسوع أن الجواب هو نعم، لأنهم إن كانوا أحراراً من عبادة الأصنام لأنهم سلالة إبراهيم، فإن هناك عبودية أخرى يخضعون لها هي الخطيئة، التي لا يمكن إلا لله أن يحررهم منها (مز ١٣٠: ١٣؛ ١٤١: ٣؛ إر ١٣: ١٥-٢٧). والحقيقة هي إنه لا إنسان معصوم من الخطيئة، ولكن اليهود يرفضون ذلك ويعتبرون ذواتهم مقدسين لا خطيئة عليهم.

فإن «من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة»، والخطيئة المقصودة هي رفض «النور» الذي جاء إلى خاصته فلم تقبله خاصته. فإنها خطيئة رفض الوحي الذي أرسله الله للخلاص. والأحرار هم أولاد الحرية، ووحده الابن يجعل من الناس أولاد الحرية لأنه يجعلهم أولاد الله.

هو» (ع. ٢٤، ٢٨)، فالمؤمنون لا يموتون (٦: ٥٠؛ ٨: ٥١)، أما غير المؤمنين فيموتون في خطاياهم (ع. ٢٤).

وتتكرر عبارة «أنا هو» مراراً في العهد القديم للدلالة على اسم الله (را. تت ٣٢: ٣٩؛ إش ٤١: ٤؛ ٤٣: ١٣، ٢٥؛ ٤٦: ٤؛ ٤٨: ١٢). وفي إنجيل يوحنا، يستعملها يسوع في كلامه عن ذاته وكأنه بذلك يعلن ألوهيته. ففي ف. ٨ لا ينفك يسوع يعلن أنه رسول الآب (ع. ١٦)؛ وأنه لا يقول إلا ما علمه الآب (ع. ٢٨)؛ وما رآه (ع. ٣٨)؛ وما سمع (ع. ٤٠)؛ وأنه يكرم الآب (ع. ٤٩)؛ ويحفظ كلمته (ع. ٥٥)؛ ولا يطلب مجده الخاص (ع. ٤٩). وهو المتحد بالآب؛ هو ليس الآب، لكنه والآب واحد: «أنا هو». وحين سأله «من أنت» (ع. ٢٥)؟ لم يوضح يسوع تماماً سرّ هويته، التي ما انفك يحدثهم عنها (ع. ١٣-١٩)، ولكنه وجه أنظارهم نحو الآب الذي أرسله؛ و«لم يفهموا» (ع. ٢٧).

وفي نهاية هذا القسم الأول من الخطاب (ع. ٢٨-٣٠)، يعلن يسوع عن آلامه بوضوح بعد أن كان قد ألمح إليها في ع. ٢١. وفي قبوله لآلامه وموته، برهاناً على أنه ظل أميناً للرسالة التي أكلها إليه الآب حتى النهاية، وهذه الأمانة ستجعل من لم يتعرف إلى يسوع في حياته، يفهم أنه ابن الآب الحق، وأن الآب لم يتركه وحده (ع. ٢٩). فإن موت يسوع ليس برهاناً على نبذ الله له بل على العكس من ذلك، فهو برهان ساطع على تمجيده.

٨: ٣١-٥٩ «الحق يحرركم» يتمحور هذا القسم الثاني من خطاب يسوع، حول شخصية إبراهيم. فإنه الأب الذي يستوحي منه الأبناء إيمانهم وسلوكهم. ويتوجه يسوع في هذه الأعداد إلى «اليهود الذين آمنوا به» (ع. ٣١)، ولكنهم سرعان ما يعودون إلى موقف معاد عند أول صعوبة (ع. ٣٣، ٤٥). فمن هو «ابن الله»؟ هذا هو السؤال الذي يحاول النص أن يجيب عنه. وفي المقدمة كان يوحنا قد أكد أن من يقبلون الكلمة، لهم السلطان أن يصبحوا «أولاد الله» (١: ١٢-١٣). والله أعطى «كلمة» لإبراهيم، وقد أورثها لسلالته، فالشعب اليهودي هو إذاً «ابن الله» لأنه «ابن إبراهيم». ولكن الأنبياء أعلنوا منذ القديم أن الشعب «لم يفهم»، و«لم يعرف الله»، وأنهم سيعرفونه (إر ٣١: ٣٤؛ إش ٥٤: ١٣؛ حك ٩: ٩). وها يسوع يؤكد أنه هو «الكلمة الحق»، وأن من يثبت فيها سيفهم ويعرف الحق (ع. ٣١-٣٢). فإنه إذاً يؤكد لهم أنه وحده القادر أن يفهمهم ما ينتظرونه منذ البدء، وأن في عدم قبولهم له يبرهنون على أنهم لا ينتمون فعلياً إلى سلالة إبراهيم الذي آمن فكانت له الحياة. فإبراهيم ليس أباً للشعب، إلا بمقدار تعلقه بالله نبع الحياة، فإن رفض الشعب لله يعني أنهم ليسوا أولاد إبراهيم (إر ٩: ٢٤؛ مي ٣: ١١؛ عا ٥: ١٤). فإن البنوة الإبراهيمية ليست حرراً يؤمن الخلاص أو توماً تيكياً، بل هو التزام بكلمة الله، وبتحقيق الوعود ببسوع المسيح (غل ٣: ١٦).

(٤٨): وبالتالي يصرون على رفض بنوته الإلهية، كما يرفضون قوله بأنه من دون خطيئة. وعلى هذا الاتهام يجيب يسوع أنه يتحدث على مستوى آخر، فإنه يتكلم ويتصرف لإكرام الله الأب القادر وحده على الدينونة (ع. ٥٠). وتبدأ ع. ٥١-٥٥ بعبارة «الحق الحق» إن كان أحد «يحفظ كلامي»، وتنتهي بـ «أحفظ قوله» (ع. ٥٥)؛ وتبرز وعد يسوع بعدم موت من يؤمن به (را. ١٦: ٣؛ ١٤: ٤؛ ١٤: ٥؛ ٢٤: ٦؛ ٤٠، ٤٧). وهنا أيضاً يعترض اليهود على قوله استناداً إلى المنطق البشري الواقعي: فإن الموت هو مصير كل إنسان وقد خضع له كل الأنبياء (را. مز ٨٨: ٤٩؛ لو ٢: ٢٦، عب ١١: ٥). فبعد أن تغاضى اليهود عن كلام يسوع وعن عدم موت التلميذ، وركزوا كلامهم على يسوع فقط، يعود يسوع من جديد إلى التركيز على علاقته بالأب، وعلى خبرته مع الله الذي يعرفه، في حين أنهم لا يعرفونه. فهو الابن الذي وعد به إبراهيم!

وأثار هذا الإعلان حفيظة اليهود الذين ينتسبون إلى إبراهيم أبي المؤمنين: «أرأيت إبراهيم؟» ممّا قاد يسوع إلى الإعلان: «أنا كائن» (ع. ٥٨؛ را. ع. ٢٤، ٢٨). فلإيمان إبراهيم مكّنه من سبر أغوار سرّ مشروع الله المستقبلي، تماماً كما إشعياء (١٢: ٤١؛ را. عب ١١: ١٣). ولكنّ محدّثي يسوع، كعادتهم، لم يفهموا كلامه إلّا على المستوى الأرضي الزمني المرتبط بعدد السنين.

وفي ع. ٥٨ عودة إلى المقدّمة اللاهوتية والكلام عن كينونة الكلمة منذ البدء، وفي هذا تجديد، باعتبار أنّ يسوع يدّعي الألوهة. وهذا ما لم يقبله اليهود «فرفروا حجارة ليرجموه» (ع. ٥٩)، بناء على أحكام الناموس (لا ١٦: ٢٤)، أما يسوع فـ «خرج من الهيكل... ومضى» ومعه فرح الله (حز ١٠: ٤، ١٨: ١١؛ ٢٣: ٢٣).

٩: ١-٤١ يسوع هو النور يتشابه خبر شفاء الأعمى في إنجيل يوحنا وشفاءات العمى عند الإزائيين^(٨) التي تهدف إلى تأكيد أنّ يسوع هو محقق الأزمنة المسيحانية «العمى يبصرون» (إش ٢٩: ١٨؛ ٣٥: ٥؛ ٤٢: ٧). ثمّ أنّ الأعمى الذي صار مبصراً هو صورة المؤمن الذي كان أعمى عن معرفة الحقيقة قبل انفتاحه على يسوع، والذي استنار بنعمة الإيمان (را. أع ٢٦: ١٦-١٨؛ ١٨: ١؛ ١٨: ٥؛ ١٨: ٨-١٤؛ عب ٦: ٤؛ ابط ٢: ٩). والخير كما ينقله القديس يوحنا شديد التعبير على هذا الصعيد. فالأعمى أعمى منذ مولده، وشفاءه ليس أعجوبة تُظهر قوة يسوع المسيح، بل هو «آية» (١٦: ٩)، يشرح يسوع معناها، قبل أن يتمّمها، بإعلانه أنّه هو «نور العالم»، وأنّ من يرفض الآيّة هو الأعمى، ولو كان لا يشكو عمى العيون. فوجود يسوع «نور

وهنا يأتي مقطع آخر (ع. ٣٧-٤٥) يطرح فيه يسوع مسألة بنوة هؤلاء الذين يظنون أنّهم أولاد إبراهيم المؤمن، في حين أنهم لا يؤمنون بيسوع.

وبعد اعتراض اليهود بطرق مختلفة قائلين: «إنّنا ذريّة إبراهيم ولم نُسعبد لأحد قط، كيف يقول إنكم تصيرون أحراراً» (ع. ٣٣)، و«إننا لم نولد من زنا، لنا أب واحد هو الله» (ع. ٤١) يأتي جواب يسوع على مستويين: كلام عن إبراهيم (ع. ٣٧-٤٠)، وكلام عن الشيطان (ع. ٤١-٤٥).

لقد قبل إبراهيم كلمة الله، فصار الله أباه، وسلك بحسب هذه الكلمة طيلة حياته فكانت له الحياة؛ أمّا اليهود فلم يقبلوا كلمة يسوع فطلبوا الموت (ع. ٣٧). فإن نواياهم قاتلة (ع. ٣٤، ٤٠) تجاه من ينقل لهم كلام الله الأب (ع. ٣٨-٤٠). وهؤلاء الذين يدعون أنّهم أولاد إبراهيم، لم يروا في الحقيقة وجه الله ولا سمعوا صوته (٣٧: ٥). فإنّ الله حياة فيما هم يطلبون القتل، فهم إذاً أولاد القاتل الشرير (ع. ٣٨)، وليسوا أولاد إبراهيم (ع. ٣٩). ففهم اليهود أنّ يسوع يوجّه إليهم شتمة، شبيهة بما كان الأنبياء يوجهونه إلى شعبهم: فإنهم أولاد آلهة غريبة يتبعون إرادتها، وكأنّهم أولاد زنا (هو ١: ٢؛ حز ١٦: ١٥، ٢٤)، وليسوا أولاد الله الواحد. وبهذا تحوّل الحديث من إبراهيم إلى العلاقة بالله. فمن يرفض رسول الله يرفض الله بالذات، ويرفض بالتالي علاقة البنوة معه لأنّه يرفض إرادته.

وفي خلفية إرادة اليهود بقتل المسيح، يرى يسوع رغبات إبليس؛ إذ أنّ مشاريعهم تقضح انتماهم. فبعد أن سأل يسوع «لماذا، لا تفهمون كلامي» (ع. ٤٣)، و«لماذا لستم تؤمنون بي؟» أعلن أنّ الجواب يكمن في سماعهم وتأثرهم بالشرير «القتال... الكذاب» (را. حك ٢: ٢٤). فمن يرفض الله يعلن انتماهم إلى ما ليس الله، أي إلى كلّ ما ليس حقاً وعدلاً وحياة، فيبتعدون عن الثبات في يسوع الذي يقول الحق (ع. ٤٠، ٤٥، ٤٦).

وعند هذا الحدّ ينتفض يسوع ليتحدّى مناوئيه «من منكم يبكتني على خطيئة» (ع. ٤٦)؟ ثمّ يلخص كل ما سبق (ع. ٤٦-٤٧) فيؤكد من جديد أنّ كل النبوءات والوعود تدلّ عليه وحده. وهذا ما أثار الاعتراض عليه: «من تجعل نفسك؟» (ع. ٥٣).

وتصاعدت إعلانات يسوع شيئاً فشيئاً حتى قوله «أنا كائن» (ع. ٤٦، ٥١، ٥٦، ٥٨)، ومعها تصاعدت الاعتراضات حتى محاولة رجمه (ع. ٥٩).

وفي تشديده على قوله الحق يتّهم يسوع معاديه بالكذب. فهو يحفظ أقوال الله (ع. ٥٥)، «الذي من الله يسمع كلام الله» والعكس صحيح (ع. ٤٧). وفي مقابل اتّهامهم بأنّهم ليسوا أولاد إبراهيم؛ بل «أولاد إبليس»، يتهم اليهود يسوع بأنّه «سامريّ وبه شيطان» (ع.

(٨) را. مت ٢٠: ٢٩-٣٤؛ مر ١٠: ٤٦-٥٢؛ لو ١٨: ٣٥-٤٣؛ مت ٩: ٢٧-٣١؛ ١٢: ٢٢؛ مر ٨: ٢٢-٢٦.

كَّرَّ الفريسيون هذه القناعة في ع. ٣٤ «في الخطايا ولدت أنتَ بِجُمْلَتِكَ». طالما رفض الأنبياء مقولة ارتباط ألم الإنسان بخطيئة لم يقترفها (إر ٣١: ٢٩؛ حز ١٨)، كما احتار الحكماء في كيفية اقتراف الجنين للخطيئة وهو في بطن أمه. وأما يسوع فلا يدخل أبداً في هذه المجادلات، ولا في لعبة الحكم على ضحايا البؤس والألم، ولا في البحث في أسباب ألم البريء، بل يعلن أن هذا «تظهر أعمال الله فيه». وهذا الأعمى الذي سيتحول إلى مبصر، هو «آية» تظهر أن الله يعمل في العالم. فيربط يسوع في ع. ٣-٥ عمله على هذه الأرض بعمل الآب: «ما دام نهار» (را. ٥: ٤)، مما يبرر خرقه لأحكام يوم السبت (ع. ١٤). والنهار ليس سوى نتيجة لوجود يسوع «نور العالم» (ع. ٨: ١٢). فطالما هو موجود سيكون نهار لا وجود فيه للظلمات. ومن هنا نفهم أن العمى الذي ولد فيه هذا الرجل ليس نتيجة خطيئة، بل هو الظلام الذي يغرق فيه كل إنسان قبل استنارته بيسوع المسيح ابن الله، لأن يسوع هو النور الذي «يضيء في الظلمة» (١: ٩). فلا يولد الإنسان مستنيراً لأن الاستنارة بنور «الحق والحياة» هي مسيرة شخصية، تؤدي إلى ولادة جديدة بمبادرة الرب بالذات. ولذلك لن يطلب الأعمى أن يُبصر لأنه لا يقدر أن يطلب ما يجهله؛ فإن الاستنارة هي مبادرة مجانية من الرب (إش ٤٢: ١٦)، وهذا ما حصل مع كل المهتدين ومنهم شاول الذي صار بولس الرسول عندما انكشف له سر الله الخلاصي بالمسيح يسوع (را. ١ كو ٢: ٧؛ رو ١٦: ٢٥؛ أف ١: ٩؛ كو ١: ٢٦؛ ٢ تي ١: ١٠).

وجبل الرب طيناً وضعه على عيني الأعمى، وطلب منه أن يذهب ليغتسل في «بركة سلوام» ومعناها المرسل، وما إن أطاع حتى «أتى بصيراً» (ع. ٦-٨، ١١، ١٤، ١٥). وأمام هذه الآية العظيمة لم يرَ الفريسيون سوى خرق لأحكام السبت فاحتجوا وعارضوا (ع. ٩، ٢٤). وبوضعه الطين على عيني الأعمى، علامة لفرق الإنسان في بؤس الجهل والعمى (مز ٦٩: ٣، ١٥؛ ٤٠: ٣)، وبإرساله إلى بركة «المرسل»، دعوة إلى الاغتسال بالحق الذي يقدمه يسوع رسول الآب، القادر أن يسقط غشاوة الطين عن الأعين. فإن الطلب الوحيد من الأعمى هو طاعته «العمياء» لكلمة «نور العالم». وكان المؤمنون يذهبون في طواف طقسي إلى هذه البركة التي بناها حزقيّا مع القناة، فأدخل المياه إلى المدينة (٢ مل ٢٠: ٢٠)، وفي أثناء عيد المظال ليستقوا من مياهها المقدسة لاستعمالات الهيكل. وأطاع الأعمى فأبصر،^(٩) من دون أن يذكر الإنجيلي تفاصيل ما حدث.

(٩) يتكرر خبر عودة الأعمى بصيراً أربعة عشرة مرة في النص. را. ٩: ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٥، ٢٦، ٣٠، ٣٢.

العالم» في هذا العالم هو كشف (ع. ٣-٥) ودينونة (ع. ٣٩).^(٩) ويشير نصّان الشفاء إلى بركة (kolymbèthra)، وهي عبارة لا نجدها في العهد الجديد إلا في هذين النصين (٥: ٢، ٧: ٩؛ ٧: ٩)؛ وفي الحالتين يتم يسوع عمله يوم السبت (٥: ٩؛ ٩: ١٤)، مما يتسبب بمعارضة اليهود أو الفريسيين؛ وفي الحالتين يختفي يسوع بعد الشفاء (٥: ١٣؛ ٩: ١٢)، ليعود فيظهر في ما بعد ليقابل من شفاه ويتحدث معه عن التزامه الروحي (٥: ١٤؛ ٩: ٣٥)؛ كما أن الحالتين تشكّلان مناسبة للتطرق إلى موضوعي «العمل الذي قام به يسوع» (٥: ١٧، ٢٠؛ ٩: ٣)، و«الدينونة» (٥: ٢٢-٣٠؛ ٩: ٢٩).

ولكن المريض الذي شفي في الفصل الخامس لم يعلن إيمانه، في حين أن الأعمى الذي عاد مبصراً، تحول إلى شاهد ليسوع أمام الفريسيين، وأعلن إيمانه الكامل أمامه. ويشكل هذان الخبران، صورة عن خبرة المسيحيين الأوائل الذين عانوا من المشاكل مع اليهود، نظراً إلى تقديسهم يوم الأحد يوم قيامة الرب، وإلى عدم تمسكهم الحرفي بأحكام يوم السبت التي كان معمولاً بها عند الفريسيين من جهة؛ ونظراً إلى طردهم من المجمع بعد اجتماع جمنيا ٩٠ م.، بعد اتخاذ الفريسيين تدابير قاسية بحق الهراطقة، مما أدى إلى نتائج كارثية على كل من يعترف بأن يسوع هو المسيح (ع. ٢٢. را. رو ١٠: ٩)، كما على عائلته.

٩: ١-٧ آية تفتيح عيني المولود الأعمى ولا زلنا إذاً في إطار عيد المظال، و«كان سبت» (ع. ١٤)، حين خرج يسوع من الهيكل و«رأى إنساناً أعمى منذ ولادته»، وهذا ما يخلق مناسبة للحوار بين يسوع وبين تلاميذه، الذين كانوا قد اختفوا عن ساحة الأحداث منذ نهاية ف...

وتساءل التلاميذ عن سبب البؤس الذي أصاب هذا الإنسان حتي ولد أعمى، فهل يعود ذلك إلى الخطيئة؟ «من أخطأ: هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟» وكان المجتمع اليهودي مقتنعاً بأن الخطيئة هي سبب كل تعاسة صحيّة أو عائليّة أو ماديّة أو وطنيّة (را. ٢٠: ٥؛ عد ١٤: ١٨؛ تث ٥: ٩؛ طو ٣: ٣)؛ كما أن البرارة هي سبب للصحة والرفعة والعمر الطويل. وهذا ما يظهر في سؤال التلاميذ عن خطيئة «هذا» الذي ولد أعمى، وقد

(٩) فعند قراءتنا لخبر شفاء الأعمى، يلفتنا الشبه الكبير بينه وبين خبر شفاء مريض بركة بيت حسدا (ف. ٥) من حيث التركيب الثلاثية (شفاء؛ واعتراض وجدال بين الذي شفي وبين اليهود؛ ثم يتحول إلى خطاب بين هؤلاء ويسوع). وفي كلتا الحالتين، يتعلق الأمر بآية تظهر كيف أن يسوع يحول الحالة البشرية المزرية لأنه حامل الخلاص الاسخاتولوجي.

من موتى . التبرع وزرع الأعضاء هي عملية نزع أعضاء سليمة من أشخاص أحياء أو موتى مازالت الدورة الدموية تجري في عروقهم (أي في وقت الوفاة) ونقلها لشخص آخر يحتاج إليها . في الوقت الحالي هذه العملية تشمل القلب ، الرئتين ، الكبد ، الكلى ، البنكرياس ، الأمعاء ، العظام ، الجلد والقرنية . أكثر عمليات زرع الأعضاء انتشاراً هي عمليات زرع الكلى ، يليها الكبد ثم القلب ثم القرنية .

أكثر المشاكل الأخلاقية التي تواجه هذا الأمر هو التعريف الدقيق للموت . أغلب الأطباء اتفقوا على أن الموت هو توقف المخ عن العمل ، وبالتالي لم يعد هذا الأمر يمثل مشكلة . لكن هل يحق لنا كمؤمنين أن نتبرع بأعضائنا أو نقبل زرع أعضاء فينا؟ أجمعت كل الطوائف الدينية المسيحية ومعظم الديانات الأخرى أن نقل الأعضاء عمل مشروع . لا يوجد في كلمة الله ما يمنع هذا الأمر سواء بالتبرع أو قبول الزرع ، ولأن آخر أسفار الكتاب المقدس كتب منذ ألفين عام ، لذلك بالطبع لم يكن هذا الأمر معروفاً ولم تتطرق إليه كلمة الله . إلا أنه في واقع الأمر الكتاب المقدس يؤيد هذا الأمر فيكتب ويقول «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» . (يو ١٥ : ١٣) . فالتبرع بالأعضاء هو إظهار المحبة الحقيقية .

لكن المشكلة الوحيدة التي قد يبرزها البعض حول زرع الأعضاء هو فيما قاله الرسول بولس «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم؟ لأنكم قد اشتريتم بثمن . فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» . (١ كور ٦ : ١٩-٢٠) . لكن عندما نتحدث عن هذا الجزء في مناقشة زرع الأعضاء فإننا ننزعه من قريته الكتابية . هنا كان يناقش مشكلة الزنا الجسدي لا موضوع التبرع بجزء من الجسد لشخص محتاج .

لعل البعض يتساءل ويقول : هل يحق للإنسان أن يتدخل ويغير عمر إنسان آخر؟ إن أحد الأهداف الرئيسة للتطور الطبي هو إطالة عمر الإنسان وتحسين نوعية الحياة التي نعيشها . هناك عمليات لزراعة الأعضاء قد تطيل من عمر الإنسان مثل زراعة القلب والرئتين والكلى والكبد ، وهناك عمليات أخرى قد لا تطيل من عمر الإنسان لكنها تحسن من نوعية الحياة مثل زراعة القرنية .

إذا رجعنا إلى كلمة الله قد نجد بعض الأجزاء الكتابية تؤيد هذا الأمر . فعندما أقام الرب يسوع لعازر من الأموات كان يقدم له حياة أطول ، وقدم له ولأسرته فرصة جديدة . لقد سجلت الأناجيل أن الرب يسوع في ثلاثة وعشرين مرة شفى مرضى وأقام موتى . لقد قدم لهم فرصة لحياة أطول من خلال إقامتهم من الأموات ومن خلال شفاء أمراضهم المستعصية ، وقدم لهم أيضاً فرصة لحياة أفضل من خلال فتح أعين العميان . ومن هنا نقول إن الكتاب المقدس لم يمنع إطالة الحياة أو تحسين نوعية الحياة .

ويقدم يوحنا ردات الفعل تجاه الآية من خلال لوحات أربع . في اللوحة الأولى (ع . ٨-١٢) يظهر «الجيران» الذين لا يتوقفون إلا عند تفاصيل الأعجوبة؛ وفي الثانية (ع . ١٣-١٧) يستجوب الفرّيسيون الأعمى حول هوية فاعل الأعجوبة من دون أن يفتحوا على الآية؛ ثم في الثالثة (ع . ١٨-٢٣) يستجوبون أهل الذي شفي فيبدو وكأنهم يؤمنون من دون أن يشهدوا لإيمانهم؛ وفي اللوحة الرابعة (ع . ٢٤-٣٤) عودة إلى الأعمى أمام الفرّيسيين ، لكن في هذه المرة نشهد تركيز الذي أبصر على هوية يسوع ، فيرفض إعادة وصف ما جرى ليقدم شهادة واضحة عن إيمانه به .

وتكمن أهمية النص في معنى الأعجوبة ، وليس فيما جرى بالتفصيل . وما يهم الإنجيلي هو ردات الفعل التي أنتجها الحدث . ومن خلال توقفه عند ردات الفعل تجاه شفاء الأعمى ، يضعنا القديس يوحنا أمام أمثلة حيّة نفهم من خلالها أن هناك من يفتح فيصّل إلى مستوى الآية ، في حين يبقى آخرون على مستوى الأعجوبة؛ وأن هناك المستعد للشهادة ، فيما يرفض آخرون ذلك .

٨-١٢ كيف انفتحت عيناك؟ أول ردّة فعل يذكرها الإنجيلي ، من دون أن يتوقف عندها طويلاً ، هي ردّة فعل الجيران الذين يعرفون الأعمى منذ طفولته . ولم يتخط هؤلاء مستوى الأعجوبة ، ولم يتساءلوا إلا عما حدث وعن كيفية حدوثه ، من دون أن يتوقفوا عند هوية الشافي وعلاقته بالله . ويسألون عن مكان وجوده (ع . ١٢) لمجرد الحشوية ، مما يذكر بقول يسوع للجموع في يو ٦ : ٢٦ «الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لَأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ ، بَلْ لَأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ . فَلَن يَظْهَرَ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ بَعْدَ ع . ١٢ ، ممّا يبرز الطابع السطحي لردّة فعلهم ، التي بقيت عند مستوى الحواس والمنطق البشري فقط ، فلم تستطع الأعجوبة أن توقظ فيهم مسألة الإيمان . وحضورهم وحوارهم مع الأعمى الذي شفى يؤكّدان حقيقة ما جرى: (١١) «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ» هو الشافي (را . ٥ : ١٥) ، والذي أبصر لا يعرف أين هو (ع . ١٢) .

زرع الأعضاء

في وقت يحدث فيه تطور هائل في الاكتشافات الطبية ووسائل العلاج الطبية ، تطفو على السطح أسئلة بخصوص التطور الطبي وعلاقته بالمبادئ والأخلاق المسيحية؛ وأحد القضايا التي تحتاج إلى دراسة هي قضية التبرع ببعض أعضاء الجسم سواء من أحياء أو

(١١) كما كان حضور رئيس المائدة في آية قانا الجليل في يو ٢ : ٩ ، وعبيد خادم الملك في يو ٤ : ٥١ .

كائن حي ولا ينبغي أن يتدخل أي من كان في إنهاء حياته. هو ليس كائن للبيع كقطع غيار أو للاستغلال. كما أنه ليس من اللائق أن تُستخدم أجنة السيدات اللواتي يطلبن الإجهاض إما بغرض تحديد النسل أو بغرض التخلص من حمل غير شرعي، في عملية زرع الأعضاء. كما أنه من الجرم أن تُجبر سيدة على الحمل بغرض الإتجار بجنينها في زرع الأعضاء. إلا أن هناك بارقة أمل في علاج بعض الأمراض التي تحتاج إلى زرع أعضاء مثل التليف الكبدي، وذلك باستخدام الخلايا الجذعية.

ومن هنا فالأخلاق المسيحية تشجع التبرع بالأعضاء من موتى أو أحياء كنوع من التعبير عن محبتنا لل قريب بدون تعرض الشخص المتبرع لأي خطر يهدد حياته، كما أن الأخلاق المسيحية لا تتفق مع أي إجراء غير أخلاقي ذكر من قبل.

المراجع

International Congress on Transplantation (Rome)
August 2000

الدكتور رضا لمعي الجمل

٩: ١٣-١٧ من هو الشافي؟ في هذه الآيات وصف حوار الفريسيين مع الأعمى الذي استتار، ووصف لردة فعلهم. فبعد أن عرفوا بالحدث وكيفية حدوثه (ع. ١٣-١٥)، افترضوا تفسيرين يتخطيان المستوى السطحي. فمنهم من قال «هذا الإنسان ليس من الله، لأنه لا يحفظ السبت» (ع. ١٦ أ)؛ ومنهم من تسأل «كيف يقدّر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات» (ع. ١٦ ب)؛ فكان ذلك سبباً للخلاف فيما بينهم. وعلى هذا المستوى يمكن لهؤلاء المتسائلين أن ينتقلوا من الأعجوبة إلى الآية التي تقود إلى التساؤل عن أصل يسوع وهويته. ففي حين لم يستطع «الجيران» أن يتخطوا ظاهر الأعجوبة، ميّز الفريسيون شيئاً آخر، ولكنهم رفضوا الانفتاح للوصول إلى عمق المعنى. وللهرب من التعمق في التساؤل لفهم الآية، عادوا إلى مستوى الأعجوبة للتشكيك في حدوث الشفاء (ع. ١٩). وعندما لم يستطيعوا إنكار حدوث الشفاء، لم يعد بإمكانهم إلا التمسك بالعودة إلى التفسير الأول: «نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطئ» (ع. ٢٤ ر). ع ١٦)، حتى لا يفتحوا على الثور. وأصدر الفريسيون حكمهم على يسوع لأنه لا يحترم السبت. وتمسكوا بالشرعية على أساس أن الله لا يمكن أن يناقض نفسه. فكيف يمكن لله أن يمنع العمل يوم السبت من جهة، وأن يكشف عن ذاته من خلال عمل في هذا اليوم المقدس؟ أما قناعة يسوع فقد أعلنها في قوله: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار» (ع. ٤). وصحيح أنه لا يمكن للإنسان أن يعمل يوم السبت، ولكن الله فوق الشريعة، ولا وقت كافٍ لتتميم أعمال

التبرع من الموتى: إن هناك الآلاف من البشر يحتاجون إلى زرع أعضاء يعانون بل ويموتون لأن هناك نقص في الأعضاء البشرية، بينما يتم دفن أو حرق آلاف الأعضاء السليمة كل يوم. هذا الأمر يقدم تحدياً لنا كل يوم.

إن التبرع بأعضائنا قد يهب حياة لشخص بعدما نذهب نحن لنكون مع المسيح. إن كان الشخص الذي يحتاج إلى أعضائنا مؤمناً فنحن نهيب له فرصة لأن يستمر خادماً لله هنا على الأرض. أما إذا لم يكن مؤمناً فنحن نقدم له فرصة أخرى لكي يتوب ويرجع إلى الله. بعض الناس لديهم تحفظ على التبرع بالأعضاء، ويظنون أن التبرع بالأعضاء يؤثر في القيامة في اليوم الأخير. بالطبع الله لا يحتاج أي ذرة من أجسادنا ليقمنا في اليوم الأخير؟ القيامة ينتج عنها جسداً روحياً جديداً.

أعلن البابا يوحنا بولس الثاني في أغسطس ٢٠٠٠ في مؤتمر دولي حول زرع الأعضاء وقال «إن زرع الأعضاء هو خطوة رائعة للعلم في خدمة الإنسان، وهناك الكثير من الناس يعيشون الآن نتيجة زرع أعضاء لهم. نحن نريد أن نحرك قلوب الناس لممارسة هذا الأمر الذي يعبر عن المحبة الأخوية، المحبة التي تظهر في اتخاذ قرار أن تتبرع بأعضائك»

إن هبة الحياة التي وهبها لنا الله، تقودنا إلى أن نقدر هذه الهبة من خلال قرارنا بأن نتبرع بأعضائنا عند الموت (أو أحيانا في حياتنا إن كان هذا لا يؤثر علينا) الأمر الذي يساعد على استمرار حياة شخص آخر. إن التبرع بالأعضاء هو عمل من أعمال المحبة الأصلية.

لعل أعظم مثل أمامنا هو الرب يسوع الذي بذل نفسه ليهبنا حياة «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكيلا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦).

لكن في عملية زرع الأعضاء قد نجد بعض التصرفات غير الأخلاقية المرتبطة بهذا الأمر. فهناك عصابات تخصصت في سرقة الأعضاء البشرية من أشخاص أحياء ليستخدموها في زرع الأعضاء. كما أنها انتشرت في بعض البلاد عملية التجارة بالأعضاء، وهنا نجد استغلال حاجة الناس وانتزاع أعضاء منهم بغرض المتاجرة. هذه الأمور تتنافى تماماً مع القيم الإنسانية والقيم المسيحية.

لكن هناك أمراً آخر في زرع الأعضاء. فهناك من يستخدمون بعض أعضاء الأجنة لزرعها في المرضى بغرض علاجهم. تم هذا الأمر أولاً في زرع بعض خلايا المخ من جنين كان قد أجهض وتم زرعها في شخص يعاني من مرض الشلل الرعاش بغرض علاج الخلل الذي يصيب وظائف المخ.

هناك بعض السيدات يحبلن بغرض استخدام بعض أعضاء الجنين لنقلها إما لأقاربهم أو بغرض التجارة. ينبغي أن ندرك أن الجنين

جديد، تقدّم أكثر بقوله «إنّ هذا الرجل من الله»؛ وأخيراً قاده لقاؤه بيسوع إلى إعلان إيمانه: «أؤمن يا سيّد، وسجد له» (٩: ٣٨).

وتقدّم الرجل في الإيمان وكان يعلن إيمانه في كل مرحلة من مراحل مسيرته. وما يلفت النظر هو أنّ المعرفة تولد الشهادة، ومن خلال الشهادة تتعمّق المعرفة وتتقوّى رويداً رويداً. ونظنّ من خلال بداية النصّ أنه لو لم يُستدعَ للتحقيق لكان الأعمى بقي ربّما على نظريته غير الواضحة إلى شخصية يسوع، ولمعنى ما حصل له: نظرة من أضاع فاعل الأعجوبة ولا يظنّ أنه سيراه من جديد (٩: ١٢). ولم يتراجع أمام الأسئلة المتلاحقة، ولا أمام الدّلّ والشكّ والاضطهاد، ورفض تزوير الأحداث أو كتمان ما يؤمن به؛ وعندما انكشف له نور العالم في نهاية مسيرته، انفتح له بكلّ ما فيه من طاقة. وعلى عكس من لم يتساءلوا، وعلى عكس من تساءلوا ولم يريدوا الإيمان، وعلى عكس من آمنوا ولم يريدوا الشهادة لإيمانهم، يشكّل الأعمى، في نظر الإنجيليّ، مثال التلميذ الحقيقيّ في مقابل «تلاميذ موسى»، وهو ما تظهره عبارة الفريسيين «أنت تلميذه» (٩: ٢٨).

وفي حين رفض الأهل الشهادة خوفاً من الطرد من المجمع (٩: ٢٢)، «أخرج الأعمى خارجاً» (٩: ٣٤)؛ وفي ذلك يذكر الإنجيلي وضعاً يحياه ويعرفه جيّداً، ويتمثّل بالمسيحيين المضطهدين والمطرودين من أجل إيمانهم.

والانفتاح على الآيّة يؤدّي إلى التعرّف إلى يسوع. قبل أن يشفي الأعمى، قدّم يسوع نفسه على أنّه نور العالم (٩: ٥). وهذا ما سيكون في ف. ١١ أيضاً، حيث يقدم يسوع نفسه على أنّه «القيامة والحياة»، قبل إعادة لعازر إلى الحياة (١١: ٢٥). فإنّ الآيّة إعلان وتأكيّد للسّرّ الذي تكشفه الكلمة، قبل العمل.

ويمكن أن نرى أيضاً من خلال عبارة «نور العالم» عودة إلى عيد المظال، الذي كان يتضمّن تنوير الهيكل عند حلول الظلام، (را. ٨: ١٢) وفي هذا الإطار، ترتبط مياه بركة سلوام (٩: ٧) بطقس سكب المياه في هذا العيد.

ولكنّ لقب «ابن الإنسان» الذي أطلقه الأعمى الذي شفي (٩: ٣٥-٣٨)، يبدو للوهلة الأولى خارج هذا الإطار، فالإيمان يقود إلى «ابن الله» (٢٠: ٣١) أكثر منه إلى ابن الإنسان. فعبارة «ابن الإنسان» تشير إلى الديّان في اليوم الأخير (٣: ١٤، ١٧-١٩: ١٢: ٣١-٣٤)، ولكنّ إطار النصّ يشير إلى أنّ خطيئة الفريسيين تكمن في عدم تعرّفهم إلى يسوع (٩: ٤١)، وإلى أصله الإلهي: «فإذا لم تؤمنوا بأنّي أنا هو تموتون في خطاياكم» (٨: ٢٤). أمّا في ف. ٩ فنرى أنّ الفريسيين يعارضون ما يؤمن به الأعمى، أي أصل يسوع الإلهي (ع. ٢٩، ٣٣). وقد تكلم يسوع عن هذا الأصل الإلهي في معرض كلامه عن «الذي أرسلني» (٩: ٤). فابن الإنسان هو إذا الآتي من السماء (٨: ٢٦). وباعترافه بيسوع نور العالم، يعترف

الله، لأنّ رسول الأب غير باقٍ سوى وقت قصير، ويجب بالتالي الإسراع في العمل في كل وقت (را. ٥: ١٧). وكان يمكن للفريسيين أن يستفيدوا من حدوث الشفاء يوم السبت للتساؤل عن هويّة من تمّمه؛ فإن كان الله وحده قادراً على العمل يوم السبت، ألا يشير ذلك إلى أنّ من تمّمه هو المساوي لله؟ ولكن تساؤلهم أو صلهم إلى الانشقاق (ع. ١٦) بدلاً من إيصالهم إلى الله.

٩: ١٨-٢٣ خوف من الحقيقة؟ بعد شهادة الأعمى الثابتة لقوّة الله التي أنارتها، لم يكن أمام الفريسيين إلا أن يلجأوا إلى أهله. ففي ع. ١٨-٢٣ ينقل القديس يوحنا صورة عن ردّة الفعل المتمثلة بالاعتراف بالحدث، من دون المقدرة على الشهادة لمن تمّمه، ولكيفيّة تنميته (ع. ٢١). فقد كان الأهل مهتئين للإيمان وللإعتراف بأنّ يسوع هو المسيح، ولكنهم رفضوا ذلك «خوفاً من اليهود». ورأى القديس يوحنا في أهل الأعمى رمزاً للمؤمنين الذين، أمام تهديد الفريسيين في القرن الأول، لم يتجرأوا على إعلان إيمانهم. وهكذا، في حين يمثّل الفريسيون الفئة التي ترفض الإيمان، يمثّل الأهل الفئة التي ترفض من يرفضون الشهادة مفضّلة «مجد الناس على مجد الله» (١٢: ٤٣). ويصوّر هذا الصراع الوضع الذي عانى منه اليهود الذين تبعوا المسيح بعد موت يسوع وقيامته، وبخاصة بعد دمار الهيكل على يد الرومان سنة ٧٠ ميلاديّة، واستلام الفريسيين زمام السلطة الدينيّة، وإصدار الحكم بالطرد من المجمع لكل من يعترف بأنّ يسوع هو المسيح.

وتدلّ قصة أهل الأعمى على ما هو أبعد من زمن رسالة يسوع، فهي تشير لوقت الكنيسة ومشاكل الجماعات في الكنيسة الأولى والمعارضات التي واجهتها تجاه اليهودية ومواقف المسيحيين من أصل يهودي الخائفين من المجاهرة علناً بكونهم تلاميذ المسيح يسوع.

وهنا يشكّل موقف الأعمى الذي شفي تناقضاً واضحاً مع كل المواقف الباقية. فقد تميّز الأعمى من كل الذين يحيطون به، بأنّ شفاؤه الذي تمّ رويداً رويداً ظهر له كعلامة، أكثر منها أعجوبة استفاد منها. وتميّز من الفريسيين بأنّه انتقل من العلامة إلى الإيمان، والتعرّف إلى المسيح يسوع، وتميّز من أهله بأنّه شهد بجرأة عمّا تعرّف إليه.

ولم يتوصّل الأعمى إلى ذلك فجأة، بل تقدّمت مسيرته بحسب مراحل متلاحقة، فانتقل من النظر الماديّ والنور الطبيعي، إلى الإيمان الذي سمح له بالوصول إلى نور العالم. ونرى ذلك من خلال الطريقة التي وصف من خلالها يسوع. وبدأ أولاً بالحديث عن «إنسان يُقال له يسوع» (٩: ١١)؛ ثم أمام المسألة الفريسيّة المتعلقة بشخص من قام بالأعجوبة (٩: ١٦) تقدّم مؤكداً بأنّه «نبي» (٩: ١٧ب)؛ ثم في مقابل قسوة الفريسيين (٩: ٢٤) وبعد أن استدعوه من

الإنسان أمام خيارين لا ثالث لهما: أن يبصر أو أن يعمى (١٢: ٤٦؛ إش ٤٢: ٦-٧؛ مز ١٤٦: ٨).

فمشكلة الإنسان ليست عمى العيون فهذه ليست خطيئة، إنما الخطيئة الحقيقية هي رفض: الاستنارة، ومعرفة الحق، والحياة. فإن مشكلة الفريسيين وخطيئتهم هي تحجرهم في معرفتهم التي تحجب عن قلوبهم حكمة الله، وتمنعهم من قبول مبادراته الخلاصية، وتتميمه لوعوده. فالخطيئة الحقيقية هي اكتفاء الإنسان الذي يظن أنه «يرى»، وأنه ليس بحاجة إلى النور، فيرفض الإيمان. ويعود يسوع هنا إلى ما قاله في جدال الفصل السابق: «إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ» (٨: ٢٤). فإن العميان الاختياريين في يو ٩ هم الذين يرفضون الإيمان على الرغم من الآيات؛ والفريسيون هم مثال لمن يتكلم عنهم الإنجيلي في نهاية كتاب الآيات بقوله «وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتَ هَذَا عَدَدَهَا، لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ... لِئَلَّا يُبْصِرُوا بَعْيُونَهُمْ، وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ، وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ» (٣٧: ١٢-٤٠).

١٠: ١-٤٢ يسوع هو الراعي الصالح وهو المسيح يشكل هذا الفصل جزءاً من قسم متكامل يتألف من ف. ٩-١٠، بحيث يتابع يسوع الكلام الذي بدأه مخاطباً الفريسيين في يو ٩: ٤١. ويُقسم ف. ١٠ إلى قسمين، يتمحور الأول (ع. ١-٢١) حول موضوع الراعي وقطيعه ويتضمن خطابين. ولم يفهم السامعون الخطاب الأول (١-٥)، وتسبب الخطاب الثاني (ع. ٧-١٨) بانشقاق اليهود؛ أما القسم الثاني (ع. ٢٢-٤٢) فينقل حواراً جرى في أورشليم في أثناء عيد التجديد في الهيكل (ع. ٢٢)، ويتمحور حول جدال بين يسوع واليهود بخصوص إعلانات يسوع المسيحانية، مما أدى إلى محاولة رجمه (ع. ٣١) واعتقاله (ع. ٣٩).

ولا نجد في الإنجيل اليوحناوي أمثالا على ما نقرأ في الأنجيل الإزائية. ومثل «الراعي الصالح» فريداً لا مقابل له في النصوص الإنجيلية الأخرى، مع أن مرقس ومتى ولوقا وجدوا في يسوع صورة الراعي المهتم بالجموع (مر ٦: ٣٤؛ مت ١٥: ٣-٧)، وبالخطاة (مت ١٨: ١٢-١٤؛ لو ١٥: ٣-٧)، وبالتلاميذ (مر ١٤: ٢٧؛ مت ٢٦: ٣١). ولا يمكن أن نفهم هذا النص اليوحناوي خارج التقليد النبوي في العهد القديم، الذي طالما شبه شعب الله بالقطيع وقاد الله شعبه، في الصحراء (مز ٧٨: ٥٢؛ ٧٧: ٢١؛ ٩٥: ٧؛ عا ٣: ١٢)، وفي المصاعب نحو اكتمال الأزمنة (إش ٤٩: ٩). ولم يكتف بعلاقة جماعية، بل نسج علاقة شخصية مع المؤمنين به (إش ٤٠: ١١؛ را. سي ١٨: ١٣؛ مز ٩٥: ٧). وحتى لا يكون الشعب كقطيع لا راعي له (عد ٢٧: ١٧؛ مل ٢: ٢٢؛ ١٧: ١٧؛ إر ٥٠: ٦)، أوكل أمر قيادته إلى أشخاص بحسب إرادته كموسى، ويشوع، والقضاة، ودادو، وكورش (را. مز ٧٧: ٢١؛ صم ٧: ٧؛ إش ٤٤: ٢٨). ولكن الأنبياء قاموا ضد بعض الرعاة الخونة الذين أدوا بتصرفاتهم إلى

الأعمى بالنور الذي كان «عند الله» والذي ينير العالم» (١: ٩)، وسيدان الناس بحسب موقفهم من هذا النور كما في الحوار مع نيقوديموس «إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسَ الظُّلْمَةُ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شَرِيرَةً» (٣: ١٨-١٩).

٩: ٢٤-٣٤ هذا الرجل من الله في هذه اللوحة الرابعة يستجوب الفريسيون الأعمى الذي صار مُبْصِراً مرة ثانية. وعبثاً حاول الأعمى الذي استنار أن يفتح عيونهم، ولو بطريقة ساخرة من إمكانية ثانية لشرح الأمر، فكانوا قد استشفوها بأنفسهم: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ؟» (ع. ١٦، ٣١-٣٣). ويبدو هذا المستنير وكأنه عالم بالكتب ويتكلم انطلاقاً من معرفته هذه: «نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْمَعُ لِلْخَطَاةِ» (ع. ٣١)، (را. ٣: ٢؛ أم ١٥: ٢٩؛ ٢٨: ٩؛ إش ١٥: ٣؛ ملا ٣: ٤).

وطلبوا منه أن «يمجد الله» فيقول إن يسوع خاطئ لأنه خرق السبت، أما هو فمجد الله لأنه فهم أن يسوع تمم بعمله إرادة الله. ووعى هذا الذي كان أعمى أن يسوع حقق ما لم يستطع أحد قبله تحقيقه.

ووجد الفريسيون في أصل يسوع الغامض مبرراً لعدم الاعتراف به، في حين شكل موقفهم دهشة لهذا الأعمى المستنير. فالأعجوبة لم تعد بالنسبة إليه دهشة، بل المدهش العجيب هو كيف أن الفريسيين لا يعرفون أصل من قام بها (ع. ٣٠). وكالعادة أمام عجزهم عن محاكاة منطقهم، وأمام حيرتهم وعدم إرادتهم في التغيير قرروا أن الأعمى منذ الولادة ليس سوى «خطيئة منذ ولادته» وقرروا أن يخرجوه خارجاً (ع. ٣٤).

٩: ٣٥-٣٨ «أومن يا سيد» وعلم يسوع بأنه طرد «فوجده» والتقاء شخصياً وحواره. ففي اللقاء الأول أطاع الأعمى ومن دون أي سؤال، وفي اللقاء الثاني طرح عليه يسوع سؤالاً عن إيمانه «بابن الله». وكان يظن أنه نبي، وعندما عرف أنه «هو»، وأنه رآه «سجد له» (ع. ٣٨؛ را. ٤: ٢٠-٢٣). ويرتبط الإيمان هنا بالرؤية وبكلمة الرب. فلم يكتشف الأعمى الذي استنار «من» هو الذي أناره إلا بعد حوار مع يسوع، وإعلان يسوع له أنه «ابن الله». فكلمة الرب هي العطية التي تسمح للإنسان بالانتقال من الظلمة إلى النور الإلهي (تك ١: ٣). فإن هذا الذي كان أعمى منذ ولادته، هو من الخراف التي تسمع صوت الراعي ليقودها إلى الآب (ف. ١٠).

٩: ٣٩-٤١ «نحن أيضاً عميان» على مدار النص، فهم القارئ أن موقف الفريسيين هو موقف المتكبرين المكثفين بمعرفتهم، الرافضين كل إمكانية لقبول يسوع كالمخلص المرسل من الله. وأمام اهتداء الأعمى منذ الولادة الذي طرد بسبب استنارته، أعلن يسوع هدف رسالته على هذه الأرض. وكان في بداية النص قد قال «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ»، وها هو الآن يوضح مفاعيل قبول هذا النور أو رفضه في «هذا العالم». فإن مجيء يسوع النور هو «دينونة» تجعل

وترسم اللوحة صورةً من الحياة الواقعية للراعي والقطيع. ففي كل صباح يأتي الراعي مع رعاة آخرين إلى الحظيرة حيث تبيت القطعان بحراسة بواب مسؤول (ع. ١٣ أ)، فيدعو خرافه التي تسمع صوت سيدها، ويخرجها (ع. ٣ ب) ليقودها نحو المراعي (ع. ٤). فأخراج الخراف من الحظيرة منوطة بالراعي وحده، في حين أنه يمكن للآخرين دخول الحظيرة وقيادة الخراف. ففي دخوله من الباب يتميز الراعي من السارق واللص الذي يدخل «من موضع آخر» (ع. ١-١٣ أ)؛ بسبب علاقته الحميمة بالخراف هو قادر على قيادتها وإقناعها باتباعه وهذا ما لا يستطيع أن يفعله الغريب (ع. ٣ ب-٥). ومن هنا، يمكننا أن نفهم توجه القديس يوحنا المزدوج. فهو يشير من ناحية إلى شرعية الراعي تجاه السارق واللص، ومن ناحية أخرى إلى العلاقة الوثيقة التي تربطه بخرافه على عكس الغريب.

وبدخوله من الباب، ينادي الراعي خرافه كلاً باسمه، على ما يفعل الله مع من يحبّه (إش ٤٣: ١؛ ٤٩: ١؛ ٦٢: ٢). وهذا ما فعله ويفعله يسوع مع من يؤمن به. فهو يتوجه إلى خرافه «الخاصة»، وخاصته (را. ١: ١١؛ ١٣: ١) الموجودة بين خراف عديدة وقطعان مختلفة، في حظيرة واحدة. وهذه الخراف هي التي سمعت كلام يسوع وأمنت به، على مثال الأعمى منذ الولادة، الذي «ترك» المجمع وآمن بيسوع الرب (٩: ٣٥). وهذه الخراف «تسمع صوته» (را. ٥: ٢٥) و«تعرفه» و«تتبعه».

ويُخرج الراعي الخراف، من دون أن يحدّد النص وجهة الراعي في مسيرته أمام خرافه. لكن الفعل يذهب (*poreuomai*) الذي يستعمله القديس يوحنا، يشير في الإنجيل الرابع إلى عودة يسوع إلى الآب، (را. ١٤: ٢، ٣، ١٢، ٢٨، ١٦: ٧، ٢٨). وكأنّ في النصّ نظرة إلى مسيرة المؤمنين الإسخاتولوجية نحو الملكوت في اتباعهم ليسوع. وهكذا تتعدّى اللوحة التي يرسمها القديس يوحنا صورة الراعي، لتطال أيضاً الخراف في علاقتهم معه. ولكنّ الإنجيلي لا يعنّ بوضوح هوية هذه الخراف، بل يشير إليها بطريقة رمزية. فهو على هذا الصعيد لا يستعمل مثلاً عبارة *épaulis* المتداولة في اللغة اليونانية للدلالة على الحظيرة، بل يعتمد كلمة *aulé* التي تدل على ساحة بناء ما (را. ١٨: ١٥؛ خر ٢٧: ٩؛ ١ مل ٨: ٦٤؛ مر ١٤: ٦٦)، وقد استعملها العهد القديم اليوناني في كلامه عن ساحة «دار المسكن» أو «ساحة الهيكل» (٢ أخ ٦: ١٣؛ خر ٢٧: ٩-٢٠). فإن أخذنا بعين الاعتبار أنّ الخراف تدل في المفهوم الكتابي اليهودي على إسرائيل (مز ٩٥: ٧؛ إر ٢٣: ٢-١؛ حز ٣٤: ٣١؛ را. مت ١٠: ٦؛ ٢٥: ٣٢)، فإن «الحظيرة» تكون إذاً ساحة الهيكل حيث يجتمع الشعب اليهودي (مز ٩٩: ٣-٤)، وحيث يفترض أن يسمعوا صوت الرب ويتبعوه. فقد رفض المسؤولون اليهود كلام يسوع، الذي دخل الهيكل يعلم ويعلم كلام الله (ف. ٧-٨)، ولكن من سمع صوته، أخرجه يسوع من الحظيرة، فتبعه لأنّه عرفه؛ وهذا ما فعله الأعمى الذي شفي.

هناك القطيع. فحزقيال في ف. ٣٤ على سبيل المثال، يتهم رؤساء إسرائيل الفاسدين بأنهم رعاة كذبة لقطيع الله، ويسرقون الخراف بدلاً من تغذيتها والاهتمام بها، وبدلاً من حمايتها يتركونها ضائعة في الخطر بحيث تلتهمها الحيوانات الضارية. وعليه، يصدر الحكم: سيّال هؤلاء الرعاة من مسؤولياتهم، وسيحمّل الله بنفسه مسؤولية الاهتمام بقطيعه: سيخرجه من سببه، وسيجمعه من شتاته وسيقوده إلى المراعي الخصبة، وسيحكم بين خرافه، ويرسل لها راعياً هو داود (من سلالته). ويمكن أن نرى بوضوح التشابه الكبير بين هذا الفصل النبوي، ويو ١٠: ١-٢١. فيسوع يتكلم عن الخراف التي يسرقها السارقون، والتي يهملها الرعاة الأجراء، فتشتتت حتى أصبحت عرضة للذئاب. ولكنّ الراعي الصالح يقودها، ويخلصها فتدخل وتخرج وتجد المراعي الخصبة، وينقذها من الذئاب. ويعرف خرافه وخرافه تعرفه، ويأتي بخراف أخرى لتصبح جميعها قطعاً واحداً.

وكما يحكم حزقيال على رؤساء إسرائيل الفاسدين، وينعتهم بالسارقين وقتلة الخراف (حز ٣٤: ٣)، الذين يتركون خرافهم فريسة (٣٤: ٨)، يتهم يوحنا من يسرقون ويقتلون ويهلكون القطيع (١٠: ١، ١٠)، ويتهم كذلك الأجراء الذين يتركون الخراف للذئاب (ع. ١٢-١٣). وفي حين ينتهي حزقيال بوعد بالخلاص، الذي ينهزم فيه السارقون والأجراء أمام الراعي الصالح وأمام الله؛ تتخطى اللوحة التي يرسمها يوحنا أفكار حزقيال، فالراعي الصالح لا يكتفي بالاهتمام بالخراف بل يبذل نفسه عنها (ع. ١١)!

١٠: ٢١-٢١ يسوع هو الراعي الصالح يكمل يسوع الجدل الذي بدأه مع بعض الفريسيين في يو ٩: ٣٩-٤١، من خلال خطاب موجه إليهم بالتحديد «الحق الحق أقول لكم» (ع. ١). وهذا الخطاب هو «مَثَل» (*paroimia*) (ع. ٦)، يتطلب شرحاً يقدمه الرب (ع. ٧-١٨). ويأتي هذا الشرح من خلال صورتين: الأولى هي صورة باب الخراف (ع. ٧-١٠)، والثانية صورة الراعي بالمقابلة مع الأجير (ع. ١١-١٥)، والراعي بعلاقته مع الخراف ومع الآب (ع. ١٦-١٨). فالمثل الرمزي (ع. ١-٥) لا يفهم إذاً إلا في علاقته مع المسيح الذي يقدم نفسه على أنه «الباب» (ع. ٧-١٠) و«راعي الخراف» (ع. ١١-١٨).

ولا يستعمل يوحنا في ١٠: ١-٦ في توصيفه لهذا «المَثَل» كلمة *parabole*، كما يفعل الإنجيليون في أمثالهم، بل يعتمد كلمة *paroimia* مما يشير إلى لوحة رمزية تتعدد فيها التوجهات التي تركز على أساس موحد وليس إلى مثل يهدف إلى أمثلة محددة. وتتألف هذه اللوحة من قسمين، في الأول (ع. ١-٣) صورة تقابل بين الراعي والسارق، وفي الثاني (ع. ٣-٥) مقابلة بين الراعي والغريب، تتبعها ملاحظة تشير إلى عدم فهم السامعين للمثل (ع. ٦).

بأن يأخذها منه أحد (خر ٢٠: ٥؛ ٤٣: ١٤). وهؤلاء السارقون يأتون «ليذبحوا» الخراف (ع. ١٠؛ ر. ١٦: ٢)، في حين أن يسوع يأتي ليخلصها (ر. ٣: ١٧؛ ٥: ٣٤؛ ١٢: ٤٧). والمطلوب هو أن «تسمع» الخراف صوت يسوع وتتبعه، أي أن تطيعه، لا أن تتبع من لم يرسلهم الآب وقد أرادوا أن يمارسوا دور الرعاية عن غير حق. فإن الفريسيين «تلاميذ موسى» (٩: ٢٨) أرادوا الانغلاق في الوحي القديم، في حين أن يسوع هو المرسل الوحيد الذي يعلن وحي الحياة الأبدية (ر. ٧: ١٧-١٩).

وفي الجزء الثاني (ع. ١١-١٨)، تقابل ع. ١١-١٥ دور الراعي الصالح بدور الأجير، في حين تغيب هذه المقابلة في ع. ١٦-١٨. وفي نهاية مقطع ع. ١١-١٥ ذكر للآب، وفي نهاية ع. ١٦-١٨ أيضاً. ويمكننا أن نفهم ع. ١١-١٥ في إطار علاقة الراعي والأجير بالآب، وكأن المقصود هو معنى الموت الحقيقي. ولا يأخذ التقابل بين الراعي والأجير سوى ع. ١١-١٣. أمّا في ع. ١٤ فيغيب الأجير لتظهر العلاقة بين الراعي والآب (ع. ١٤-١٥). ويسمح التقابل بين الراعي والأجير بإبراز ناحية جديدة من دور الراعي. فالأخير لا يؤذي الخراف كما يفعل السارق (١٠: ١٠)، ولكن باعتبار أن الخراف لا تخصّه فهو لا يضع نفسه في دائرة الخطر لأجلها، بل يتركها لينجو بنفسه. أمّا يسوع الراعي الصالح فيبذل نفسه لأجل الخراف لأنها «خرافه» (ع. ١١، ١٥؛ ر. ١٥: ١٣). وبذل الذات هو هنا بكل وضوح إشارة إلى موت يسوع حباً للخراف. وهو «يعرفها» أي أنّ له معها علاقة حميمة، علاقة محبة عميقة كما هي العلاقة بينه وبين الآب (ر. ٨: ٥٥؛ ١٧: ٢٦). وفي ع. ٧-١٠ أعلن يسوع رسالته، أمّا في ع. ١١-١٥ فهو يعلن معنى موته لتتيمم هذه الرسالة.

وفي ع. ١٦ عودة إلى مواضيع ع. ١-٣، في حين يتوسّع ع. ١٧-١٨ في موضوع بذل الذات والعلاقة مع الآب في انفتاح على مستقبل القطيع من جهة (ع. ١٦)، وعلى مستقبل الراعي من جهة ثانية (ع. ١٧-١٨). فموت الراعي غير منفصل عن قيامته، فهو يبذل نفسه ثم يأخذها أيضاً (ع. ١٧)، (ر. ٢٠: ١٩-٢١؛ إش ٥٣: ١٠-١٢). وهو بحسب إرادة الآب الذي أعطاه «أن يحيي من يشاء» (٥: ٢١؛ ٢٦) لأنه و«الآب واحد» (١٠: ٣٠).

أمّا القطيع فيتوسّع ليطال خراف أخرى من غير هذه «الخطيرة»، خراف من الخارج، أي من الوثنيين سينضمّون إلى من هم من اليهودية، فيكونون جميعهم واحداً (ر. ١٧: ٢٠). فكل من يقبل النور الإلهي يدخل حظيرة الخراف، أي عائلة أولاد الله (ر. ١: ١٢-١٣؛ يو ١: ٣، ١٠، ٢، ٥: ٢)، من أي مكان أتى لأنّ العالم كلّه للابن (٣: ١٦)، (ر. ١: ٢٣؛ ٣: ٣١؛ ٨: ١٠). ويأتي المقطع ١٠: ١٩-٢١ لتربط المثل بخبر شفاء الأعمى.

ويأتي حديث يسوع بعد جدال حول هويته المسيحانية. فإنّه يتكلّم الآن عن الراعي الصالح «داود» الذي سيقمّه الله في «تلك الأيام» (حز ٣٤: ٢٣)، وفي خلفية الحديث تساؤلات الناس «أهو المسيح؟» (٧: ٢٦، ٣١)، وتأكيدات يسوع على سؤالهم «من أنت؟» بقوله «من أرسلني هو حق» (٨: ٢٥)، وانقسام اليهود بشأنه بين من يؤمن بأنّه «المسيح» (٧: ٤١) ومن يشكك بذلك (٧: ٤٢).

وبالإضافة إلى صفة «المسيح»، في النص إشارة أيضاً إلى مجيء الراعي في الأزمنة المسيحانية ليرعى قطيعه بقوة الرب على ما أعلن ميخا ٥: ١-٣، (ر. مت ٢: ٦). فيسوع هو إذاً الراعي المسيحاني المنتظر الذي أرسله الله ليتمّ انتظارات شعبه، وهذا ما سيظهره يوحنا في ع. ٢٤-٢٩. ولكن إن كان الله قد تمّ وعده وأرسل المسيح، فإنّ الشعب مدعو للتجاوب مع مبادرة الله، والتعرّف إلى المسيح، وسماعه (ع. ٣، ٢٧)، واتباعه (ع. ٤، ٢٧)، (ر. ٥: ٢٤؛ ٨: ١٢، ٤٥، ٤٧).

ويتألف ع. ٧-١٨ من جزئين (ع. ٧-١٠؛ ع. ١١-١٨)، ويتبدئ كلّ منهما بعبارة «أنا هو». ففي ع. ٧ نقرأ «أنا هو باب الخراف»، وفي ع. ١١ «أنا هو الراعي الصالح».

وأمام عدم فهم السامعين، يستأنف يسوع خطابه بالقول «الحق الحق أقول لكم»؛ ولكن حديثه الآن يأتي بصيغة المتكلّم، وليس كما في القسم السابق حيث كان الخطاب بصيغة الغائب. ويأتي الشرح من دون أي سؤال من قبل السامعين، ولا يتضمّن تفسيراً لكل العناصر الموجودة في المثل الرمزي (ع. ١-٥). ومن الواضح في هذا الشرح أن العددين ٩ و ١٠ يفسّران ع. ٧، في حين أن ع. ١٠ يشرح ع. ٨. ويكمن معنى المثل في الهدف من تصرفات السارق من جهة، وتصرّفات يسوع من جهة ثانية تجاه الخراف. فالأول يأتي ليهلك، في حين يأتي يسوع لتكون لهم الحياة، (ر. ٣: ١٦؛ ٦: ٣٧؛ ١٠: ٢٨؛ ١٢: ٢٥).

ويمكن أن نفهم عبارة «أنا هو باب الخراف» بطريقتين، فهو الباب الذي يسمح للخراف بدخول الحظيرة والخروج منها من ناحية، وهو من ناحية ثانية الباب الذي يسمح بالدخول نحو الخراف. وبحسب القراءة الأولى، يسوع هو الوحيد الذي يسمح بالوصول إلى الخراف. ولكن الإطار لا يتكلّم عن رعاة عديدين يسعون إلى الدخول عند الخراف، بل عن راع واحد هو يسوع، أمّا الآخرون الذين يسعون إلى الدخول نحو الخراف فلا يدخلون من الباب بل بطرق أخرى. ولا يقول يسوع إنه «باب الحظيرة» بل «باب الخراف»، فالمقصود إذاً أن يسوع هو الباب الذي يؤدّي بمن يمرّ به إلى الحياة، مما يعني أن لا باب للحياة سواه. فالخراف «خاصته» وقد أعطاه إياها الآب (ع. ٢٩)، وكأنّ السارق هنا يسرق من الله بالذات خرافه. وهذه الخراف هي شعب الله، وهو لا يقبل

(٨: ٧)، والميت خرج من القبر (ف. ١١)، ولكن اليهود أغلقوا على ذواتهم في الوحي الماضي، ولم يقبلوا ما أتى به الله في الأزمنة الأخيرة. ويعود القديس يوحنا في هذه ع. أربع مرات إلى «الأعمال» (١٠: ٢٥، ٣٢، ٣٧، ٣٨)، ودائماً في علاقتها بالآب، ممّا يؤكد أنّ يسوع هو الابن الذي يحقق إرادة الله الآب (٥: ٣٦). فإنّ هذه الأعمال وحدها كافية ليعرف الإنسان كيف يميّز ليأخذ قراره تجاه يسوع (ع. ٣٨). ولكن هؤلاء غير المؤمنين ليسوا من «خرافة» التي تسمع صوته وتتبعه (١٠: ٣). وأراد الله أن يضم الجميع إلى ابنه فكانت مبادرته الخلاصية، ولكن الإنسان يبقى حراً في القبول والرفض. وها اليهود يرفضونه ويحاولون رجمه هو الذي عمل أعمال أبيه الحسنة «أنا والآب واحد»، لأن في كلامه «تجديفاً» (ع. ٣٣؛ را. ٥: ١٧). ويحاكمونه على كلامه، فنراه يطالبهم بالتوضيح (ع. ٣٢). وكما يمكن أن نظن أنّهم يحاكمونه لأجل خرقة لنا موس يوم السبت (ف. ٥: ٧)، ولكنهم هنا لا يتوقفون إلا عند كلامه عن بنوته الإلهية «تجعل نفسك إلهاً»، وسيتهمونه مباشرة أمام بيلاطس بأنّه قال عن نفسه «ابن الله» (١٩: ٧).

ولا يرفض يسوع اتّهامهم، بل يجيب بأعداد من الكتاب المقدس في المزمور الثاني والثمانين: «أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم». وسُمّي القضاة «آلهة» لأنّ الله القاضي الأعظم (تث ١: ١٧) أوكل إليهم كلمته بسبب علاقتهم الحميمة به (تث ١٩: ١٧)، بحيث يقف أمام الله من يقف أمامهم (خر ٢١: ٦؛ ٢٢: ٨). ولم يستعمل يسوع القسم الثاني من العدد «بنو العلي كلكم» وكأنّه يعلن أن الكتاب المقدس هيّا الناس لحضور «ابن الله» الذي «قدسه الآب وأرسله إلى العالم» (ع. ٣٦) ليخلص العالم (٣: ١٧). فإنّ من يقولون عنه إنه مجدّف يفصلون بين كلامه والأعمال، في حين أنّ أعمال يسوع هي تجسيد لأقواله.

وينتهي هذا القسم وكأنّ يسوع فشل مع هؤلاء الناس الذين «طلبوا أن يمسخوه فخرج من أيديهم» (ع. ٣٩)، ونراه من جديد في «عبر الأردن» وكأنّه في بداية رسالة جديدة فيأتي إليه الكثيرون (١٠: ٤٠-٤٢).

ولنا في ١٠: ٤٠-٤٢ الذكر الأخير ليوحنا المعمدان في الإنجيل الرابع (را. ١: ٦-٨، ١٥: ١-١٩، ٣٧: ٣-٣٦، ٥: ٣٣-٣٥). وهنا أيضاً تكمن أهمية يوحنا في علاقته مع يسوع: إنّه الشاهد للنور. وهذه المواجهة هي الأخيرة قبل المواجهة مع عظيم الكهنة (١١: ٥٠) حيث سيعلن الاتهام بوضوح تام. ويبقى على الإنسان أن يأخذ قراره.

١١: ١-١٢: ٥٠ القسم الرابع: يسوع يتوجّه نحو ساعة موته، وتمجيده

١١: ١-٤٤ آية لعازر: يسوع هو الحياة يشكّل نصّ خبر إقامة لعازر من الموت (١١: ١-٤٤) مقطّعا موحّداً، وهو الأطول في

ففي الوقت الذي يسعى فيه يسوع إلى جمع خراف القطيع، يتسبّب عمله وكلامه بانشقاق، ليس بين الفريسيين الذين يتوجّه إليهم منذ يو ٩: ٤١، بل بين اليهود (را. ١١: ٧، ٣١، ٣٥، ٤٠-٤٣)، ومعهم يشعر القراء بأنهم غير قادرين على أخذ القرار تجاه يسوع.

ففي هذا النص لم يقم يسوع بأي عمل، ولكنّ كلامه خلق انشقاقاً لأنّ السامعين فهموا بأنّه يقدم ذاته على أنّه الراعي الإلهي الموعود بحسب نبوءة حزقيال، ممّا جعل بعضهم ينعتة بالجنون في حين وجد بعضهم الآخر نفسه في حالة شكّ أمام ما أتى به من أعمال خارقة.

١٠: ٢٢-٤٢ يسوع هو المسيح وتأتي هذه المواجهة في إطار «عيد التجديد»، وهو عيد ذكره سفر ٢ مكا ١: ٩، ويحتفل به اليهود بذكرى انتصارات المكابيين (١٦٧-١٦٤ ق.م.)، وطرد يهوذا المكابي للسوريين اليونان الذين نجسوا الهيكل عندما رفع فيه أنطيوخس أيبفانوس صنماً للعبادة (١ مك ١: ٥٤، ٥٩؛ ٤: ٣٦-٣٩؛ را. ٧: ٤). وبنى يهوذا المكابي المذبح من جديد، ودشّن الهيكل كلّهُ، وصار يُعيد كل سنة لتجديد الهيكل والمذبح. وهكذا، أخذ العيد اسم «حانوكاه» أي التقديس، وفي اليونانية «egkainia» أي التجديد. وكانت احتفالاته الدينية تمتد على مدى ثمانية أيام، وهي شبيهة بعيد المظال الذي تمّ فيه تدشين هيكل سليمان (١ مل ٨: ٦٢-٦٨). وأمام انتظاراتهم المسيحانية المتقدّدة والمترجّبة ظهور مسيح يطرد الرومان على مثال المكابي الذي طرد اليونان، وأمام حيرتهم وشكهم في هويّة يسوع، نفهم إلحاح اليهود لكي يكشف لهم عن شخصه.

وكان يسوع يتمشّي في الهيكل وكأنّه في بيته. وهو هنا لا يعلم بل «ليتمشّي» (ع. ٢٣) كما كان يفعل في الجليل (٧: ١)، فأحاطوا به وكأنهم أعداء يطوقون البار (مز ٢٢: ١٧)، يضغطون عليه في محاولة للإيقاع به والحكم عليه. وهم الذين يشكلون خطراً على حياة يسوع، يعلنون أنه هو الخطر على أنفسهم «إلى متى تعلق أنفسنا؟» بينما لا يمكن لأحد أن يأخذ حياته منه (١٠: ١٨). وأرادوا أن يقول لهم «جهراً» إن كان هو المسيح (را. ٧: ١٣، ٢٦)، ولكنّ يسوع لم يقل لليهود أبداً أنّه «المسيح». فهذا للقلب كان غامضاً نوعاً ما أيام يسوع، لأنّه أخذ توجّهات زمنية سياسية نظراً إلى الاحتلال الروماني. يسوع ليس المسيح بهذا المعنى، ومع ذلك «فهو المسيح» المنتظر، وقد أعلن للسامريّة «أنا الذي أكلّمك هو» (٤: ٢٦).

ولم يقل يسوع جهراً لليهود أنّه المسيح، لكنّه أكد مسيحانيته دائماً بطريقة غير مباشرة. ففي كلامه عن الراعي الصالح إشارة إلى أنّه الراعي الداودي الذي أنبأ به حزقيال، ولكن منذ بدء رسالته كرّر إعلانات متلاحقة عن أنّه الهيكل الفعلي، وأنّه محيي الأموات ومعلن الآب ومحقق الوعود (٢: ١٩؛ ٨: ١٢؛ ١٠: ١١، ١٤-١٦). ولكنّ كلامه لم يقبل «قلت لكم ولستم تؤمنون» (ع. ٢٥). وقام بالأعمال العديدة التي تؤكد كلامه، فالمرضى مشى (٥: ٨-٩)، والأعمى أبصر

يسوع والتلاميذ (ع. ٧-١٦)، ثم يسوع ومرثا (ع. ١٧-٢٧)، ثم يسوع ومريم واليهود (ع. ٢٨-٣٧)، ثم يسوع والميت (ع. ٣٨-٤٤). وقد كتبت على مستويين: مستوى الحدث، ومستوى الرمز. فالآية بكونها تدل على حقيقة أبعد مما يرى، وتتعدى كونها أعجوبة قيامة ميت، لتتحول إلى مناسبة تمجيد لله. ومن هنا نفهم الشروحات التي تخترق النص وترافقه لتجعل من ع. ٢٥ المحور الأساسي «أنا القيامة...».

١١: ٦-١ إنسان مريض في عائلة يحبها يسوع يبدأ النص
بتقديم شخصيات الحدث ومكانه. ويتعلق الأمر بإنسان مريض اسمه لعازر. ولعازر هذا غير وارد أبداً في الأناجيل الأخرى، مما يعني بأن قارئ الإنجيل الرابع، الذين يعرفون تقاليد الأناجيل الإزائية لا يعرفونه ولم يسمعوها به، ولذلك نجد القديس يوحنا يعرف به بواسطة أخته «مريم ومرثا» المعروفتين من خلال إنجيل لوقا (لو ١٠: ٣٨). واسم لعازر «أليعازر» يعني «الله يؤازر، يعين»، والنص بأكمله يدور حول يسوع ابن الله الذي يعين من يؤمن به ويسمع كلمته. وأما بيت عنيا «بيت العناء»، فهي قرية قريبة من أورشليم على مسافة كيلومترين منها، على الجهة الشرقية لجبل الزيتون.

وكانت هذه القرية معروفة كمركز راحة اتخذها يسوع في رحلاته إلى أورشليم (مر ١١: ١، ١١: ١١؛ مت ٢١: ١٧). وفي ع. ٢، يستبق القديس يوحنا الخبر الذي يورده في يوحنا ١٢: ٢-٣ ليقدّم مريم ويعرف بها. فهل في ذلك إشارة إلى معرفة القارئ لهذا الحدث، أم أن يوحنا أراد أن يضع في بداية حديثه عن آية إقامة لعازر ذكراً لآلام يسوع وموته؟ «إِنَّهَا لِيَوْمٍ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظْتُه» (١٢: ٧).

وأمام مرض أخيهما، أرسلت الأختان تبتان «السيد»، وفي عبارة «السيد» دلالة على أنهما من التلاميذ المؤمنين بأن يسوع هو السيد والرب. وفي رسالتهما، اكتفت مرثا ومريم بإعلام يسوع بحالة «من يحبه». ولم يطلبوا الشفاء ولا طلبا منه المجيء؛ بل مجرد رسالة تعلم بما يحدث. وهكذا فعلت أم يسوع في عرس قانا عندما نقلت إلى ابنها حالة أهل العرس: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ» (٢: ٣). فإن في هذه الرسالة ثقة بأن يسوع هو القادر على ملء النقص الإنساني من أي نوع كان، وأنه رب الحياة القادر على منحها لمن يؤمن به. وإن في رسالتهما دعوة مبطنة للإسراع في المجيء لنجدة لعازر.

وتأتي ردّة فعل يسوع على الرسالة مفاجئة للقارئ. فبدلاً من إظهار مشاعر المحبة والتعاطف مع لعازر، لا يذكر يسوع المريض؛ بل يتوقف فقط عند المرض: «هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ لِأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ» (ع. ٤)، وكأنه يتكلم عن شخص لا يعرفه ولا تربطه به صداقة ومحبة. وهذه كانت بالحقيقة ذات ردّة فعله أمام مصيبة الأعمى منذ ولادته: «لَتُظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ» (٩: ٣). وفي كل الأحوال هذا الكلام غير موجّه إلى التلاميذ الذين سيكلّمهم في ع. ٧ فقط. فإنّه كلام

الإنجيل خارج نصوص الآلام. ويبدأ الإنجيلي بالإعلان عن «إنسان كان مريضاً»، وينتهي بشفاء هذا الإنسان الذي كان بين الإعلان الأول ونهاية الخبر، قد مات ودُفن. ويخبر يوحنا بالحادثة بكل تفاصيلها، على غير عادته، ومن دون أن يتخلّلها أي خطاب منفصل على ما نقرأ في سرده للآيات الأخرى. ولكن الحوارات والخطابات تشكّل جزءاً كبيراً من النص، حيث يأخذ أبطال الحدث (مريم ومرثا وتوما والمرسلون من بيت عنيا والتلاميذ واليهود) أدواراً، إمّا في محاوره يسوع أو في التعليق على الأمر. ويشكّل الحواران في يو ١١: ٧-١٦؛ ١١: ٢١-٢٧ أطروحة لاهوتية شديدة الأهمية. ولا يذكر أي من الإزائين، آية إقامة لعازر من الموت، مع أن مرقس ٥: ٢١-٤٣ ينقل خبر قيامة ابنة يائرس من الموت، فيما ينقل لوقا ٧: ١١-١٧ قيامة ابن أرملة نايين. ومن الواضح أن يوحنا اختار الآيات التي قدّمها في إنجيله، وقد أعلن ذلك بنفسه في خاتمة إنجيله «آيَاتُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ صَنَعَ يَسُوعُ قَدَامَ تَلَامِيذِهِ لَمْ تَكْتُبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ. وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كَتَبْتُ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ» (٢٠: ٣٠-٣١). وآية إقامة لعازر من الموت هي الآية السابعة والأخيرة في إنجيل يوحنا. فبعد آية تحويل الماء إلى خمر (ف. ٢)، وآية شفاء ابن خادِم الملك (ف. ٤)، وآية شفاء مريض بيت حسدا بعد أن كان به مرض منذ ثمان وثلاثين سنة (ف. ٥)، وآية إشباع الجموع من خمس أرغفة وسمكتين (ف. ٦)، وآية السير على الماء وإسكات الريح والموج (ف. ٦)، وآية شفاء الأعمى منذ ولادته (ف. ٦)، تأتي آية إقامة لعازر لتتوجّ آيات القسم الأول من الإنجيل الرابع الذي سمّي كتاب الآيات (ف. ١-١٢). فتظهر هذه الآيات مجد الله، ويتمجّد ابن الله بها (٢: ١١؛ ١١: ٤، ٤٠) فيؤمن البشر وتكون لهم الحياة (١١: ١٥) من جهة، ولتختتم كامل القسم الأول من جهة ثانية. فقد أعلن يسوع في الفصل الخامس أن الحياة الأبدية لمن يسمع كلمته (٥: ٢٤-٢٥)، وأنه تأتي ساعة يسمع فيها الأموات صوته فيحيون (٥: ٢٨-٢٩). وفي الفصل السادس قال إن «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (٦: ٥٤). وها هو في الفصل ١١ يعلن بأن «... مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ» (١١: ٢٥-٢٦). فإن أعمال يسوع تشهد له (٥: ٣٦؛ ١٠: ٢٥). ولقد انتصر يسوع على الموت عدوّه وعدوّ البشرية الأخير. وإن من يؤمن بيسوع، لا يؤمن بشافٍ للأمراض، بل بمن هو «القيامة والحياة».

وأقام يسوع لعازر من الموت فوضع نفسه في دائرة الخطر وواجه الموت. وما ع. ٤٥-٤٦ التي تنقلنا إلى خبر حكم المجلس على يسوع (١١: ٤٥-٥٣) سوى تأكيد على ذلك.

ويمكننا أن نقسم النص إلى خمسة أقسام: مقدّمة (ع. ١-٦)، ثم

المتكلم «لنذهب»، بحيث يفهم القارئ بأن حركة النص قد بدأت، وبأن الخطر قريب. ويأتي التذكير بالرجم ليعيد القراء إلى الأحداث السابقة (٨: ٥٩؛ ١٠: ٣١، ٣٩) وإلى الجوّ المعادي ليسوع. وأراد الرسل أن يثبته عن قراره، وأن يجعلوه يلتزم الحذر والفطنة والمنطق (مر ١٠: ٣٢؛ مت ١٦: ٢٢). ولكن يسوع ملتزم بقرار بذل ذاته لأجل خاصته (١٥: ١٠)، وبالسير «في النهار». فلا خوف إذا من أي خطر طالما أن الرسل يسرون في ضوء المسيح «سيروا ما دام لكم النور» (١٢: ٣٥-٣٧)، وما الخوف الحقيقي إلا في السقوط في ظلمات الخطيئة بعيداً عن يسوع «نور العالم».

وفي ع. ١١ يعلن يسوع هدفه من الذهاب إلى اليهودية «لِعَارِزُ حَبِيبِنَا قَدْ نَامَ. لَكِنِّي أَذْهَبُ لِأَوْقَظَهُ». وفي الإنجيل بحسب مرقس، يقول يسوع لأهل ابنة يائرس إنها «لَمْ تَمُتِ الصَّبِيَّةُ لَكِنْهَا نَامَتْ» (مر ٥: ٣٩)، (را. أع ٧: ٦٠؛ ٢ صم ٧: ١٢؛ ١ مل ٢: ١٠). فليس الموت سوى رقاد بانتظار القيامة (١ تس ٤: ١٣-١٥). ولكن الرسل لم يفهموا ما رمى إليه يسوع، فأخذوا كلامه بشكل حرفي وظنوا بأنه رقاد النوم. وتأتي المفاجأة في كلام يسوع عن فرحه لأنه لم يكن حاضراً! وليس لأن غيابه كان سبب موت لعازر كما يظن بعضهم ومنهم الأختان (ع. ٢١، ٣٢)؛ بل لأن حضوره هو القيامة والحياة، وهو بالتالي دافع لبورة الإيمان وتشبيته. ولعازر هو «حبيبنا»، وإنه الصديق (٣: ٢٩)، والحبيب (١٣: ١١، ١٤، ١٥)، والتلميذ الذي يحبه يسوع إن هو فعل ما يوصيه به. ولعازر هو أحد تلاميذ يسوع الذين لا يسميهم يسوع عبيداً، بل أحبباء. ومرة ثانية يطلق يسوع الحركة «لنذهب إليه». وهذه المرة ليس «إلى اليهودية» (ع. ٧)، بل «إليه»، إلى الميت الذي سيقوم. ولكن الرسل، لا يرون في إرادة يسوع سوى الخطر المحدق بحياته. وهو يتكلم عن قراره بإحياء لعازر، وهم لا يجدون في ذلك سوى خطر الموت الذي يواجهه ويواجههم معه. وهذا ما يعبر عنه توما «التوأم» باسم الجميع (يذكر توما أيضاً في ١٤: ٥؛ ٢٠: ٢٤-٢٩؛ ٢١: ٢؛ را. مت ١٠: ٣؛ أع ١: ١٣)، وكأن الأسهل عليه أن يتحمس للموت مع يسوع من يؤمن بأنه القيامة. وقال لهم يسوع «لتؤمنوا» فأجاب توما «لنموت معه»؛ بدلاً من إعلان استعداده للحياة معه. في كل الأحوال لن تدوم هذ الحماسة طويلاً، فأمام الخطر الحقيقي والموت المحقق لن يصمد التلاميذ طويلاً، فبطرس سينكر معلمه (١٣: ٣٨)، والتلاميذ بأجمعهم سيتركونه (١٦: ٣٢)، (را. مت ٢٦: ٣١، ٥٦؛ مر ١٤: ٢٧، ٥٠).

إن إقامة لعازر لن تتم بسبب محبة يسوع لأصدقائه وحسب؛ بل ليظهر مجد الله فيؤمن الناس بيسوع الذي يواجه الموت ليعطي الحياة.

موجه إلى القراء، الذين يضعهم منذ البداية في أجواء «مجد الله، لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ اللَّهِ بِهِ». فلا مرض يمكن أن يؤدي بالمؤمن إلى الموت، لأن كل شيء في حياة من يؤمن بآبَنِ اللَّهِ يؤدي إلى تتيميم قصد الآب (٧: ١٨). وعلى الرسالة يأتي الجواب: لا داعي للقلق، فمجد الله سيظهر بواسطة الابن فيؤمن به التلاميذ. وإن مرض لعازر ليس سوى مناسبة يظهر فيها الله مشروعه في القضاء على الموت وإعطاء الحياة لكل من يؤمن به (٢٠: ٣١).

«وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْتَا وَأَخْتَهَا وَلِعَارِزَ» (ع. ٥)، فمكث يومين حيث هو! غريب أمر يسوع في إظهار محبته. فبدلاً من الإسراع في المجيء، إذا به ينتظر يومين في عبر الأردن قبل أن يأتي بيت عنيا، التي لا تبعد سوى مسيرة يوم واحد. فهل أراد أن يترك لعازر يموت ليتدخل؟ بالطبع لا. فلعازر كان قد مات عند وصول الرسول، ويسوع يعلم ذلك جيداً (ع. ١١، ١٤) فعند وصوله إلى بيت عنيا كان لعازر قد دفن منذ أربعة أيام (ع. ١٧)، فالموت إذاً واحد بعد يوم أو بعد أربعة أيام، وتدخل الرب لا يحده وقت أو زمن. فمكث يومين في عبر الأردن، وفي اليوم الثالث سيظهر مجد الله فيتمجد ويؤمن به تلاميذه. إنه اليوم الثالث المشابه لما حدث في قانا، والذي يستبق «اليوم الثالث» الحق، يوم القيامة، وما على القراء سوى الانتظار ليروا مجد الله بعد هذين اليومين.

وأرسلت الأختان تقولان «هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ»، وهنا يقول الإنجيلي: إن يسوع كان يحب مَرْتَا وأختها ولعازر. فإنها عائلة الأحباء، أي عائلة التلاميذ (١٥: ١٥)، صورة الكنيسة التي أراد يسوع أن يؤسسها. فالكنيسة الأخوية، تربطها بالرب علاقة محبة حميمة؛ تلتجئ إليه عند الحاجة وتعرف كما يعرف الجميع أن كل أفرادها هم أحبائه المختارون، من دون تفرقة بينهم. فنحن نعرف من إنجيل لوقا أن مَرْتَا كانت صاحبة الضيافة الدائمة للرب والعناية به. وفي عالم كان الناس لا يعطون اسماً للبيت إلا اسم الرجل الذي يسكنه، تظهر مَرْتَا ومريم كأساس للبيت، ويأتي ذكر لعازر كأخ لهما وحسب.

١١: ٧-١٦ يسوع وتلاميذه في مواجهة الموت بعد الكلام
عن يسوع وعلاقته بعائلة لعازر، يعود التلاميذ إلى الظهور بعد غيابهم منذ خبر شفاء الأعمى. وتشكل ع. ٧-١٦ أحد الحوارين اللاهوتيين الموجودين في النص (والثاني في ع. ٢١-٢٧).

ولا يتضمّن النصّ تقريراً عن إقامة لعازر، فيأخذ الحواران دور شرح الحدث وإعطائه المعنى الحق. ففي آية شفاء الأعمى كان حضور التلاميذ وسؤالهم حافزاً ليفسر يسوع عمق ما سيعمل، وأما هنا فإن اعتراضهم على ذهابه إلى اليهودية سيسمح ليسوع بالتعبير عن قراره أمام موت لعازر، وموته هو بالذات.

فبعد الكلام السرد في ع. ١-٦، يتحوّل النصّ إلى صيغة

نيل «كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ» حتى بعد أربعة أيام من موت لعازر (ع. ٢٢).

وأجاب يسوع مرثا بأن أخاها سيقوم، ومرة جديدة تعلن مرثا إيمانها: «أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ، فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (ع. ٢٤) كما يؤمن كل يهودي ملتزم (رأ. دا ١٢: ١-٣؛ ٢ مك ٧: ٢٢-٢٤؛ ١٢: ٤٤؛ مت ٢٢: ٢٣؛ مر ١٢: ١٨؛ لو ٢٠: ٢٧؛ أع ٢٣: ٨؛ ٢٤: ١٥؛ رو ٤: ١٧). ولكن المطلوب أكثر من مجرد إيمان يهودي بقيامة آخر الأزمنة. وإذا بيسوع يوضح: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ» (رأ. ٥: ٢٩؛ ٦: ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٧، ٥٤، ٥١) ولا حياة إلا بالإيمان به: «مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ» (ع. ٢٥-٢٦). وحده الإيمان بيسوع هو المهم، وهو ما يُبعد الموت، ويعطي الحياة الأبدية. وإن في هذين العددين عودة إلى ما أعلنه يسوع في خطاب خبز الحياة: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يَقْبَلْ إِلَيَّ فَلَا يَجُوعُ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلَا يَعْطَشُ أَبَدًا» (٦: ٣٥). فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ هُوَ ابْنُ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي حَاضِرًا وَمُسْتَقْبَلًا؛ (رأ. ٥: ٢٨؛ ٦: ٣٩، ٤٤، ٥٤؛ ٨: ٥١) وهو حي منذ الآن لأنه زرع فيه الحياة. ومطلوب من مرثا أن تعلن إيمانها، وهو ما تقوم به: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ» (ع. ٢٧). وأراد يسوع أن تنتقل مرثا من إيمانها اليهودي التقليدي إلى إيمان مسيحي بحقيقة خلاصية حاضرة الآن وكل الأيام بالمسيح يسوع. وهكذا يأتي إعلان إيمان مرثا متماشيًا مع الإيمان الذي يعلنه الإنجيلي الرابع في نهاية إنجيله «لَتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَكُونُ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِاسْمِهِ» (٢٠: ٣١). فَإِنَّ مَرثَا تَعْلَنُ إِيمَانَهَا بِاسْمِ كُلِّ الْجَمَاعَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْيُوحَنَّاوِيَّةِ، وَكَأَنَّهَا النَّاظِقَةُ اللَّاهُوتِيَّةَ بِاسْمِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ. واكتفت بهذا المقدار من الثقة والإيمان والرجاء، وكأن لا أهمية بعد لأي طلب يختص بوضع أخيها أمام «ابن الله» من هو «القيامة والحياة». وعبرت عن إيمانها بالكلام وأرفقته بالأعمال: «مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أَخْتَهَا» (ع. ٢٨).

١١: ٢٨-٢٧ المسيح ومريم واليهود لم تشأ مرثا أن يبقى الوضع التام، والحقيقة التي آمنت بها وأعلنتها لها وحدها، فذهبت لتدعو أختها كما فعل التلاميذ الأوائل بعد لقاء يسوع (١: ٤١، ٤٥)، فتعرف مريم أيضًا رحمة الرب وتعزيته. ودعت مرثا أختها «سرًا»، مما يميزها من «اليهود» الحاضرين «في البيت»، ولكنها عندما خرجت خرجوا يتبعونها، وكأنهم جوقة عزاء يرافقون الأخت الباكية.

وخرجت مريم للقاء «المعلم»، فهي إذا كأختها، من التلاميذ، وهي لا تخرج إلا لتبعية لدعوة «المعلم»، ولكن اليهود لم يفهموا من هذا الخروج السريع إلا خروجًا إلى القبر للبكاء. وصلت مريم إلى حيث كان يسوع ورأته، وخرت عند رجليه لتعيد ما قالت أختها قبلها:

والتلميذ الذي يحبه يسوع إن هو فعل ما يوصيه به. ولعازر هو أحد تلاميذ يسوع الذين لا يسميهم يسوع عبيدًا، بل أحبباء. ومرة ثانية يُطلق يسوع الحركة «لنذهب إليه». وهذه المرة ليس «إلى اليهودية» (ع. ٧)، بل «إليه»، إلى الميت الذي سيقوم. ولكن الرسل، لا يرون في إرادة يسوع سوى الخطر المحدق بحياته. وهو يتكلم عن قراره بإحياء لعازر، وهم لا يجدون في ذلك سوى خطر الموت الذي يواجهه ويواجههم معه. وهذا ما يعبر عنه توما «التوأم» باسم الجميع (يذكر توما أيضًا في ١٤: ٥؛ ٢٠: ٢٩-٢١؛ ٢: ٢١؛ ١٠: ٣؛ ١٣: ١)، وكأن الأسهل عليه أن يتحمس للموت مع يسوع من يؤمن بأنه القيامة. وقال لهم يسوع «لتؤمنوا» فأجاب توما «لنموت معه»؛ بدلًا من إعلان استعدادة للحياة معه. في كل الأحوال لن تدوم هذه الحماسة طويلاً، فأمام الخطر الحقيقي والموت المحقق لن يصمد التلاميذ طويلاً، فبطرس سينكر معلمه (١٣: ٣٨)، والتلاميذ بأجمعهم سيتركونه (١٦: ٣٢)، (رأ. مت ٢٦: ٣١، ٥٦؛ مر ١٤: ٢٧، ٥٠).

إن إقامة لعازر لن تتم بسبب محبة يسوع لأصدقائه وحسب؛ بل ليظهر مجد الله فيؤمن الناس بيسوع الذي يواجه الموت ليعطي الحياة.

١١: ١٧-٢٧ يسوع ومرثا وصل يسوع إلى بيت عنيا، ووجد ما كان يعرف ويترقب: مات لعازر وله في القبر أربعة أيام. وقد كان اليهود يعتقدون ويؤمنون بأن الروح تترك الأرض نهائيًا بعد ثلاثة أيام من الدوران ومحاولة العودة إلى الجسم؛ ولكن هذا الجسد الترابي يفسد وينتن وينحل بعد ثلاثة أيام مما يجعل الروح تقطع الأمل منه، وتنضم إلى عالم الأموات حيث أرواح الموتى. ووصل يسوع إذا إلى بيت عنيا في وقت انقطع فيه الأمل من أي عودة للميت إلى الحياة.

وفي الأعداد ٢٠-٢٧ سنقرأ عن حوار بين يسوع ومرثا، ثم في الأعداد ٢٨-٣٧ عن حوار ولقاء بينه وبين مريم واليهود، ويليها عمل يقوم به يسوع تجاه لعازر القابع في القبر، أمام كل المجتمعين (ع. ٣٨-٤٣).

وصل يسوع، وكان «اليهود» يقومون بواجب التعزية تجاه مرثا ومريم، وكان العزاء يدوم سبعة أيام. وهؤلاء «اليهود» الذين يهددون حياة يسوع، هم هنا ليلعبوا دور الشهود أمام ما سيحدث، وبعدما رأوا بعيونهم شفاء الأعمى منذ بطن أمه (ع. ٣٧).

فلما سمعت مرثا بمجيء يسوع، خرجت للقاءه فيما بقيت مريم جالسة بين المعزين بحسب ما يليق. وأمام «الرب» تركت مرثا العنان لألمها، وراحت تسكب أمامه كل ما تفكر فيه، حتى إنها لامته على غيابه الذي تسبب بموت الأخ الحبيب الغالي. ولكن الغريب في كلامه هو تلك الثقة الكاملة، التي جعلتها تعلن إيمانها بقدرته على

لأنَّ النور والحياة هما عمل «الكلمة» (١: ٤؛ ٨: ١٢). فانزعج يسوع مرة ثانية من كلام بعض اليهود. نعم، كان يسوع قادرًا على أن يمنع الموت عن لعازر، ولكنَّه لن يمتنع عن بذل ذاته (١٨: ١١) لأنَّ لهذا جاء، وهذه هي إرادة الآب (٣: ١٤؛ ١٠: ١٨). وجاء يسوع ليُطِل سلطة الموت عدو عمل الله وإرادته بالحياة، ولهذا انزعج! فإنَّه أمام تكميم العمل الذي من أجله أتى إلى العالم. فيسوع جاء إلى اليهودية وهو عالم تمامًا بأنه يواجه الموت (ع. ٨، ١٦)، وسينتهي النص بالحكم الذي سيعلنه عظيم الكهنة «بأن يموت واحد عن الأمة» (ع. ٥١). فإنَّ في آية لعازر استباق للآية العظمى، أي لما ينتظر يسوع من صلب وموت وقيامة.

١١: ٣٨-٤٤ يسوع ولعازر الميت «جاء يسوع إلى القبر» ليواجه العدوَّ في عقر داره. وكان «القبر مغارة وقد وضع عليه حجر». والقبور في فلسطين كانت على شكلين، إمَّا مغارة طبيعية أو منحوتة في صخر تغلق فوَّهتها بحجر دائري، وإمَّا على شكل بئر محفورة في الأرض يمكن نزولها بواسطة درج، ويُغلق بحجر للحفاظ على أجساد الموتى من هجمات الوحوش.

ووصل يسوع بعد أربعة أيام من موت لعازر، فوقف أمام قبره وقال «ارفعوا الحجر». والأمر غير منطقي، وهذا ما حاولت مرثا أن تلتفت نظر الرب إليه: «لقد أنتن». فصحيح أن موقفها لا يتماشى مع إعلانها إيمانها بقدرة يسوع على الحياة ونصرته على الموت، ولكنَّها بالحقيقة أرادت التأكيد على الأيام الأربعة التي مضت (١١: ١٧)، وعلى الفساد الذي لابدَّ وأن يكون قد أصاب الجثة. فإنَّ في ملاحظة مرثا، إشارة إلى هشاشة الإنسان وزواله الجسدي. ولعازر الحبيب هو إنسان، آدمي، ترابي، أنتنته الخطيئة وأفسدته. وحالته هي حالة كل بني البشر، ولكنَّ هذا الإنسان النتن هو حبيب الله، وقد حدث به إلى المجيء إليه وتغيير الوضع: «إن آمنْتَ تَرَيْنَ مجد الله» (ع. ٤٠؛ ر. ٤). فإنَّ مجد الله هو المعنى الحقيقي لكل أعمال يسوع. فبدلًا من التركيز على نتانة الإنسان وفساده، يحوّل يسوع النظر إلى الله وحده، الذي هو أصل الحياة وهو القادر على خلق حياة جديدة حيث يظنَّ الإنسان أنَّ الأمل قد انقطع، وأنَّ لا رجاء يُرجى. في ظروف صعبة كهذه لا يمكن إلاَّ للإيمان أن يرى مجد الله، ومن يرَ مجد الله يؤمن (ع. ١٥، ٤٢).

طلب يسوع من الناس النظر إلى الله وليس إلى الموت، وأمامهم «رفع عينيه إلى فوق» نحو أبيه (ر. ١٧: ١؛ مر ٦: ٤١؛ لو ١٨: ١٣؛ أع ٧: ٥٥؛ مز ١٢٣: ١؛ مرا ٣: ٤١). وهم «رفعوا» الحجر وهو «رفع عينيه» وفي ذلك ارتفاع من الأرض إلى السماء. فيسوع هو المتصل بأبيه دومًا (١: ٥١)، ويحدِّثه لا ليطلب منه أي شيء، كما سيفعل في يوحنا ١٢: ٢٧، بل ليشكره. وإنَّه الابن الذي يعرف تمامًا أن طلباته مستجابة قبل أن يعلنها «فهو والآب واحد»، وكلمته هي كلمة الله «لا

يَا سَيِّد، لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي» (ع. ٢١، ٣٢). ولم تفتح مریم على كامل الرجاء. فبقيت مكبلةً بأثقال الألم الذي تسبَّب به موت لعازر، ولم تر سوى الفراق الذي حصل. وقالت مرثا «أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ... أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ... أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ»؛ وأمَّا مریم فما في عيونها إلاَّ البكاء بحيث تعذَّر عليها رؤية الحقيقة. فبككت مریم وبكى اليهود بأصوات عالية، إنَّه صراخ الحزاني أمام موت الأحباء، فتأثَّر الرب و«انزعج بالروح»، و«اضطرب» و«بكى» (ع. ٣٣، ر. ٣٨؛ ٣٥). فهل انزعج يسوع من قلَّة إيمان مریم واليهود (ع. ٣٧)؟ فمریم هي من التلاميذ، وقد لبَّت دعوة الرب «بسرعة»، وقد اهتمَّ الإنجيلي بأنَّ يقدِّمها منذ بداية النصِّ على أنها «التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها» فوجَّه النص نحو آلام الرب وموته (ع. ٢)، وأنها مع أختها أرسلتا بطلب الرب لأن أحاهما مريض. فإنَّ بكاء مریم لا يدلُّ أبدًا على عدم إيمانها، فقد جثت عند قدميه ما أن رأته، وهو ما لم تفعله مرثا، وفي حركتها هذه دلالة على عبادتها له (ر. ١٠؛ مر ٥: ٢٢؛ ٧: ٢٥؛ لو ٨: ٤١؛ أع ١٠: ٢٥؛ رؤ ١٩: ١٠؛ ٢٢: ٨). ثمَّ أنها أعلنت صراحة إيمانها بأنَّ حضور يسوع كان كافيًا لمنع موت لعازر. وكان اضطراب يسوع إذاً وانزعاجه ودموعه بسبب لعازر وليس بسبب مریم واليهود. وفي سؤاله عن مكان القبر، ودعوة الحاضرين له «تعال وانظر»، تركيز على حضور الموت المأساوي الذي يتسبَّب بألم عميق جعل عينيَّ يسوع تدمعان. وأمام موت لعازر، وقف يسوع أمام حقيقة الموت الذي يواجهه هو أيضًا. إنَّه يقف أمام موته بالذات (١١: ٧-١٦). وفي وقفة يسوع ودمعه، تعبير عن صراعه الداخلي، وكأنَّه أمام نزاعه عشية مواجهة الموت. فتألَّم يسوع مع آلام مریم واليهود «فتضايق لضيقهم» (إش ٩: ٦٣)؛ ومع صاحب المزامير تساءل «لِمَاذَا أَنْتِ مُنْحَنِية يَا نَفْسِي وَلِمَاذَا تَتَنَيْنِ فِي» (مز ٤٣: ٥، ١٢)؛ وقد أخبر كاتب الرسالة إلى العبرانيين عن الدموع التي ذرفها المسيح في نزاعه (عب ٥: ٧). ولم يدرك الحاضرون انزعاج يسوع واضطرابه، فلم يروا إلاَّ دموعه التي عزوها إلى صداقته الحميمة ومحبة الكبيرة للعازر. وهذا صحيح بالطبع، ولكنَّ ذلك ليس الحقيقة كاملة، لأنَّ دموع يسوع هي دموع محبة للآب ولتلاميذه، أمام الانفصال الذي يتسبَّب به الموت. و«بكى» يسوع، كما «تعب» (٤: ٦)، وكما «عطش» (٤: ٧؛ ١٩: ٢٨)، و«أحب» (٢٠: ٢). وقد توقَّفت الأنجيل الإزائية أيضًا عند هذه الصفات الإنسانية، فذكرت أنَّ يسوع «جاع» (مت ٤: ٢)، و«هلَّل» (لو ١٠: ٢١)، و«غضب» (مر ٣: ٥)، و«حزن» (مت ٢٦: ٣٨).

فإنَّ من فتح عينيَّ الأعمى كان قادرًا على أن يمنع الموت عن صديقه (ع. ٣٨)، وحضوره كان كافيًا بعدم موت لعازر على ما قالت الأختان (ع. ٢١، ٣٢)، فمن يعطِ النور يعطِ الحياة بالتأكيد

قام بها يسوع إلى ردّات فعل مختلفة. فقد آمن الكثير من اليهود الذين كانوا حاضرين، فيما نقل بعضهم الآخر الأمر إلى الفريسيين عن سوء نيّة أكيدة (١١: ٣٦؛ ١٢: ٧؛ ٤٠: ١٠؛ ٢٠)، فصار من المؤكّد للسلطات اليهوديّة ضرورة محو يسوع من الوجود (٥: ١٨؛ ٧: ١، ١٩، ٢٥؛ ٨: ٣٧، ٤٠).

فإنّ في اجتماع المجمع إثر آية إقامة لعازر إشارة واضحة إلى إرادة الإنجيلي بربط الحدثين، والتأكيد على أنّ الحكم على يسوع بالموت تمّ بقرار من السلطة الموكلة. ومنذ البداية تكاثرت الإشارات إلى موت يسوع الذي يقترب، تارة بالكلام عن «ارتفاعه» أو عن «بذله لجسده» لحياة العالم، أو «رجمه» أو «إمساكه»؛ وإلى التأكيد على أن موته هو قرار حرّ يتّخذه يسوع، ولكنّه في الوقت عينه مؤامرة يدبرها أعداؤه لإهلاكه. فإنّها مؤامرة الظلمة ضدّ النور. وقد جاء يسوع إلى اليهوديّة ليقدم حياته فيستطيع لعازر أن يقوم من الأموات، فكان الحكم عليه بالموت هو المفعول الأول لما فعله. ويورد القديس يوحنا الحكم على يسوع بالموت بعبارات معبّرة جداً تأتي على لسان رئيس الكهنة قيافا: «خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلَا تَهْلِكَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا» (ع. ٥٠)، ويضيف القديس يوحنا بأنّه «لَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ»؛ بل لأنه، ومن دون أن يعلم، تنبأ بما يخوّله مركزه المقدّس. ولقد أعلن قيافا أنّ المسيح سيموت «لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللَّهِ الْمُتَفَرِّقِينَ» في وحدة أولاد الله، على ما أعلن يسوع نفسه في خطابه عن الراعي الصالح الذي يجمع خرافه وخرافاً أخرى، فيكون قطع واحد لراعٍ واحد (١٠: ١١، ١٦؛ را. حز ٣٤: ١٢-١٣).

ويدور نصّ آية إقامة لعازر حول القيامة طبعاً، وقد تبلور ذلك من خلال حوار يسوع مع الأختين، وحديثه مع تلاميذه في بداية النص. وليس الموضوع إذاً مجرد إقامة لعازر من الموت؛ بل يسوع الذي ظهر على أنّه القيامة والحياة، بواسطة تقديمه لذاته لتكون الحياة لمن يؤمن به.

ولم يفهم رؤساء الكهنة والفريسيون دور يسوع، فبداهم خطراً يمكن أن يضلّ الشعب بسبب ما يقوم به من آيات (٢: ٢٣؛ ٣: ٢؛ ٧: ٣١؛ ٩: ١٦؛ ٢٠: ٣٠)، وربما تسبّب بفوضى وانتفاضة ضدهم. فأهل الجليل الذين اعتبروه نبياً أرادوا أن يقيموه ملكاً (٦: ١٤)، وهذا ما ستفعله الجموع الآتية إلى أورشليم للفصح (١٢: ١٣)، فيستبّب ذلك بغضب المحتلين الرومان فيهدمون الهيكل (الموضع ٤: ٢٠)، (را. دا ٣٨: ٣٨؛ مت ٢٤: ١٥؛ أع ٦: ١٣)، والأمة (١٨: ٣٥) أيّ كل الأمة اليهوديّة دينياً وسياسياً. وفي محاولتهم لردع الخطر عن الشعب، أخذ الرؤساء قرارهم في هدم الهيكل الحقيقي (را. ٢: ١٩-٢٢)، وحضور الله الفعلي بين شعبه، فأظهروا أنّهم أبعد ما يكونون عن إرادة الله الحقيقية.

ترتدّ فارغة» (إش ٥٥: ١١). ورغم إنه يبكي مع الباكين؛ ولكنّه رب القيامة وهو «الحياة». فإنّ قدرة يسوع التي ستتجلّى بإقامة لعازر من القبر بعد أربعة أيام، علامة على اتّحاده بالله الآب «ليؤمنوا أنك أرسلتني» (ع. ٤٢)، وهي «لمجد الله» وليس لمجد خاص. فبعد الاضطراب والانزعاج والدموع، يأتي تأكيد استجابة الله وتحقيق الغلبة (مز ٤٢: ٦، ١٢؛ ٤٣: ٥؛ را. عب ٥: ٧). فيقف يسوع أمام الله الآب باسم كلّ البشر، ويشكره بلسان الناس أجمعين وكأنّه البشريّة قاطبة تقف أمام الله الخالق والمخلص، تشكره على كلّ الخلاص الذي حقّقه لها عبر التاريخ. فإنّها البشريّة التي تشكر الله الذي يسمع لها كلّ حين ويستجيب لرغبتها في الحياة. وفي موقف يسوع أمام الموت درس لكل الحاضرين والقارئ: إنّ ألم الموت والفراق لا يمكن أن ينسي المؤمن أنّ إرادة الله هي حياة الإنسان. وإنّ أساس الإيمان المسيحيّ هو استجابة الآب للابن. وسيقول يسوع لتلاميذه إنهم يستطيعون أن يطلبوا من الآب ما يشاؤون باسمه (١٦: ٢٤) وسينالونه. فإنّ في هذا المسؤولية عظيمة سلّمنا إيّاها الرب لنكمل عمل خلاصه. ونحن قادرون بنعمته أن نصلي ونطلب مجده وخير البشريّة، والرب سميع مجيب (١٤: ١٣، ١٤)، إذ «تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ» (١٥: ٧). «... أَنَّ الْآبَ نَفْسَهُ يُجَبِّمُ، لَأَنَّكُمْ قَدْ أَحْبَبْتُمُونِي، وَأَمَنْتُمْ أَنِّي مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجْتُ» (١٦: ٢٦، ٢٧). ثمّ «صرخ بصوت عظيم: لعازر هَلَمْ خَارِجاً». ولا يتوقّف الإنجيلي عند وصف الآية التي جرت، فهو لا يذكر تفاصيلها؛ بل يوردها في عديد فقط. فوقف ابن الإنسان أمام الراقدين في القبور (٥: ٢٨)، وصرخ ليسمعوا جميعاً صوته (١: ١٥؛ ٧: ٢٨)، ونادى لعازر باسمه. فإنّه من تنبأ عنه إشعياء، يدعو المسجونين «للخروج»، ومن في الظلمات للظهور (إش ٤٩: ٩؛ را. ٤٢: ٧). وأمر يسوع لعازر المقبور بالخروج من قبره والمجيء إليه، وإذا بالميت يستجيب: «خَرَجَ الْمَيِّتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ، وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ» (ع. ٤٤). وكانت عادة اليهود في دفن الموتى تقوم على تكفين الميت بتربيطة، فكان لا بدّ من أمر آخر يوجّهه يسوع هذه المرة، ليس للميت الذي قام ولا يزال مربوطاً؛ بل للموجودين الشاهدين على الآية ليحلّوه فيستطيع لعازر أن «يذهب».

وكما في حالة المريض الذي شفاه يسوع، والأعمى الذي أعاد إليه النظر، يترك لعازر أيضاً ليذهب في طريقه، وكأنّه يترك لهم حرية اختيار أتباعه أو عدم الاتّباع (٥: ٨، ١٣؛ ٩: ٧؛ ١٥: ٦).

وينتهي خبر آية لعازر عند هذا الحدّ، من دون التوقّف عند أجواء الفرح التي لا بدّ وأن تكون قد عمّت بيت عنيا، أو عند مشاعر الأختين اللتين توقّف الإنجيلي طويلاً عند أهمّهما وأفكارهما حول الموت والإيمان بالقيامة. فإنّ آية إقامة لعازر ليست سوى تحضير لما سيتمّه يسوع بموته وقيامته!

١١: ٤٥-٥٧ المجمع يحكم على يسوع كالعادة أدّت الآية التي

مختصرًا، إلا أن موضوعه يبدو واضحًا وبسيطًا: إنه يتمحور حول الموت والقيامة. فالحبة التي تموت تغطي حياة وافرّة (ع. ٢٤)، فلا بدّ إذا من موت مَنْ يريد أن يحيا (ع. ٢٥). ولكنّ موت يسوع ليس مجرد حياة لمن يؤمن به؛ بل هو في الوقت عينه دينونة العالم (ع. ٣١-٣٣).

وما يجمع بين الأحداث الثلاثة هو إذاً الفصح والمجد الذي يأتي من الصليب. فخبز مائدة بيت عنيا، والفرح بلعازر القائم من الموت وبحضور يسوع، يوجّهه الرب نحو آلامه: «ليوم تكفيني حفظته» (ع. ٧)؛ وخروج الجموع وهتافها للملك الآتي يجعله يسوع دخولا متواضعا على جحش (ع. ١٤)؛ وطلب اليونانيين رؤيته ليس سوى إعلان مجيء الساعة وضرورة الموت للوصول إلى المجد (ع. ٢٣). وطيلة هذه الأحداث، نرى الجموع حاضرة ترافق كل المراحل (١٢: ٩، ١٢، ١٧، ٢٩، ٣٤) بعد أن كانت قد اختفت بين الفصلين ٨ و ١١. وإيّها ممثلة «العالم الذي ذهب وراءه» (ع. ١٩)، في مقابل من يرفضونه؛ (را. ١١: ٥٦، ٥٧؛ ١٢: ٩؛ ١٢: ١٠، ١٧، ١٩)، ولكنّ هذا الاختلاف بين الاثنين سيختفي في النهاية فتبدو الجموع أيضًا من فئة غير المؤمنين (ع. ٢٩، ٣٤)!

وبعد قرار الفريسيين بقتل يسوع (١١: ٥٧)، يؤكّد الإنجيليّ أنّ القرار سيُطال لعازر أيضًا الذي تحوّل حضوره إلى سبب لإيمان الآخرين بيسوع (ع. ٩-١١). وبين القرارين، يأتي خبر المائدة التي أقيمت ليسوع في بيت لعازر «الذي أقامه يسوع من الأموات» (ع. ١). والحدث إذاً هو داخل بيت مرثا التي أعلنت الإيمان الصحيح: «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم» (١١: ٢٧؛ را. ٣١: ٢٠)، ومريم التي سجدت أمام يسوع (١١: ٣٢)؛ ولعازر الأخ الحبيب (١١: ٦، ١١) الذي أقامه يسوع من الموت (١١: ٤٤). وإنّه بيت العائلة المسيحية الحقّة.

ويجري الحدث «قبل الفصح بستّة أيام»، وقد ذكر متى ومرقس حدثًا مشابهًا في بيت عنيا، من دون أن يذكرّا عائلة مرثا ومريم ولعازر «قبل الفصح بيومين»، بعد دخول يسوع إلى أورشليم (متى ٢٦: ٦-١٣؛ مر ١٤: ٣-٩). وعند متى ومرقس تأتي امرأة وتسكب الطيب الغالي على رأس يسوع، على عادة تكريم الضيوف المميّزين (مز ١٣٣: ١؛ ٢٣: ٥) قبل الأكل، وقد أخذ الحدث معنى المسح الملوكي. وأما عند القديس يوحنا فإنّ سكب الطيب الغالي على قدمي يسوع لا مثيل له في الأدب اليهودي. ونجد عند القديس لوقا خبرًا شبيهًا بما حدث في بيت عنيا، حيث نقرأ عن «خاطئة من المدينة» تبكي على قدمي يسوع وتمسحهما بشعرها (لو ٧: ٣٨) دلالة على توبتها. وأما في بيت عنيا، فلا وجود لموضوع التوبة والخطيّة، فالإطار هو مائدة احتفال بالرب الذي أقام لعازر من الموت (١٢: ١). فإنّها مائدة شكران (إفخارستية)، بعد غروب يوم السبت، أي في مساء

وظنّ قيافا أنّه لا مجال للخيار بين خلاص الأمة بكاملها من جهة، وبين العدالة التي طالب بها نيقوديموس (٧: ٥١) من جهة ثانية، فلا بدّ بالتالي من موت واحد من أجل الخير العام. ومن دون أن يدري، أعلن قيافا أنّ يسوع سيموت «من أجل الكثيرين»، «من أجلنا»، «من أجل حياة العالم» (٦: ٥١). ولم يحكم على يسوع إذاً بسبب خطيئة، بل لأجل حياة العالم، وذلك بحسب ما أعلن رئيس الكهنة: إنّ براءة يسوع مؤكّدة في إعلان الحكم عليه، وهو ما سينتكرّ في يو ١٨: ١٤.

وأمام الخطر، التزم يسوع الخفاء ولم يعد يظهر علانيّة بين اليهود (٧: ١)، فمكث في أفرام مع تلاميذه. (تقع قرية أفرام على بعد ٢٠ كلم من أورشليم، وهي اليوم الطيبة. وقد ورد ذكرها في العهد القديم تحت اسم عفرون في ٢٢ أخ ١٣: ١٩). وتمت القطيعة النهائيّة مع اليهوديّة، ولكن معنى الحدث قد توضّح: لم يفشل يسوع في رسالته؛ بل تمّمها إلى الغاية لتكون الحياة لمن يؤمن به.

اقترب فصح اليهود، ومعه اقتربت نهاية رسالة يسوع العلنيّة. وتأتي الأعداد ٥٥-٥٧ لتقابل يو ١٢: ٩-١١ فتحيط بحدث سكب الطيب على قدمي يسوع في بيت مرثا ومريم ولعازر، والاحتفاء بمائدة الرب الذي أقام لعازر من الموت.

وفي هذه الأعداد تأكيد على القرار بإمسك يسوع لقتله؛ وتصوير لحالة الحجاج الذين يتساءلون عن حضور يسوع إلى العيد الكبير (را. ٧: ١١) ورغبتهم في لقائه، فكانوا «يطلبونه» على الرغم من شكهم في مجيئه نظرًا إلى قرار المسؤولين (ع. ٥٧). ولكنّ من واجه الموت ليقم لعازر سيتمم عمله إلى الغاية فيحوّل الموت إلى حياة والظلمة إلى نور.

١٢: ١-١١ مائدة بيت عنيا يتألّف هذا الفصل من حدثين وخطاب. الحدث الأول هو مسح يسوع بالطيب في بيت عنيا (١٢: ١-٨)، والثاني هو دخول يسوع الملوكي إلى أورشليم (ع. ١٢-١٥)، أمّا الخطاب فيبدأ مع اليونانيّين الذين يطلبون رؤية يسوع في أثناء عيد الفصح (ع. ٢٠-٢٢). ويتمحور هذا الخطاب القصير (٢٣-٣٦) حول موضوع الآلام التي تقترب، ومعناها. وفي هذا الإطار يمكن أن نعتبر يو ١١: ٥٥-٥٧ كمقدمة لهذا القسم.

وبالحقيقة، يشكل ع. ١١: ٥٤ «مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْكُورَةِ الْقَرْيَةِ مِنَ الْبَرِّيَّةِ، إِلَى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمَ، وَمَكثَ هُنَاكَ مَعَ تَلَامِيذِهِ» خاتمة لنصّ آية لعازر، فيما يلعب ع. ١١: ٥٥ «وَكَاَنَ فَضَحَ الْيَهُودُ قَرِيبًا» دور المقدمة لبداية جديدة ستنتهي في يو ١٢: ٣٦ «فَاخْتَفَى وَخَرَجَ فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هَكَذَا» (را. ٨: ٥٩). أمّا نهاية الفصل ١٢ فهو بمثابة ملحق لكتاب الآيات (ع. ٣٧-٥٠).

وكما في كلّ أقسام الإنجيل الرابع، يمكن للقراء أن يكتشفوا محور النصّ من خلال الخطاب الذي يتضمنه. فمع كونه

أمام مَنْ بذل نفسه لأجلهم. ووحدهم مَنْ يفهمون عمق معنى مقدمة الرب، قادرون على خدمة الفقراء (ع. ٨). وأما «المزمع أن يسلمه» فسيفي على علاقة مع رئيس هذا العالم (٦: ٧٠؛ ١٣: ٢، ٢٧) ولو كان من التلاميذ: إنه تلميذ خائن (٦: ٧٠-٧١). وسيكون هناك دائماً تلاميذ خونة ينتقدون تصرفات التلاميذ الأحماء، الذين سيكون مصيرهم مرتبطاً بمصير معلمهم.

وخدمت مرثا مائدة الرب، واشتركت مريم بألامه، ونال لعازر نصيبه فقرر الرؤساء «أن يقتلوه أيضاً» (ع. ١٠) وكل هذا شهادة حيّة لغلبة يسوع على رئيس هذا العالم (ع. ١١).

١٢-١٩ الدخول إلى أورشليم يتشابه نصّ دخول يسوع الملوكي إلى أورشليم مع ما نقرأه عند الإزائيين، مع أنه نصّ أقصر. فبنصّ إنجيل يوحنا كما عند متى ولوقا تهتف الجموع ليسوع «الملك»، كما يذكر ميخا ٩: ٩، ولكن الأمور تختلف عند يوحنا. فبحسب الأنجيل الإزائية، يهيي يسوع بنفسه تفاصيل دخوله إلى أورشليم، فيرسل تلميذين ليأتيّا بجحش، ويتقدّم وسط تهليل الجموع، (را. مت ٢١: ١-١١؛ مر ١١: ١-١١؛ لو ١٩: ٢٨-٣٨)، أما عند يوحنا، فقد حدث ذلك في اليوم التالي لمسح يسوع بالطيب في بيت عنيا (ع. ١٢)، فخرجت الجموع بعد سماعها بأنه أت (ع. ١٣) ممّا دفع يسوع لامتطاء الجحش الذي وجده (ع. ١٤)، من دون تحضير لأيّة مسيرة ظفر ملوكية. ثم يضيف الإنجيلي شرحاً خاصاً به، انطلاقاً من نصّ كتابيّ بغية تفسير حماسة الجمع المتأثر بإقامة لعازر من الموت (ع. ١٧-١٨).

ولم يفهم التلاميذ إذاً معنى دخول يسوع إلى أورشليم إلا بعد تمجيده (ع. ١٦)، تماماً كما حدث عند تطهير الهيكل، الذي كان يجب أن يفهموه كرمز لموته وقيامته (٢: ٢٢). فالتلهيل واجب إذاً للمسيح الملك الذي مات وقام، وما دخوله على جحش إلا رمز لملكه الحق الذي سيتحقق بالقيامة. فإنّ الملك الداخل إلى أورشليم، هو ملك الحياة الذي غلب الموت وأقام لعازر من القبر (ع. ١٧-١٨)، ولذلك من غير الممكن للفرّيسيين أن يصنعوا شيئاً لأنّ العالم ذهب وراءه (ع. ١٩). فإنّ «العالم» الذي أحبه الله (٣: ١٦) وجاء المسيح ليخلصه (٣: ١٧؛ ٤: ٤٢). وهذا «العالم» الذي ذهب وراءه، هو صورة البشرية التي ستتحّد تحت سلطة المسيح الذي دخل أورشليم ليحقق مهمته (١١: ٧). وفي حملهم سعف النخيل، أظهر الجمع أنه يرى في يسوع رسول الله لخلاص إسرائيل من ذلّه. وإنّ المسيح المنتظر الذي كشف، من خلال الآيات التي حققها (٧: ٣١؛ ١١: ٤٧؛ ١٢: ١٧)، وإنّهُ المخلص الموعود «الآتي باسم الرب». وفي لقائه، أنشدت الجموع مز ١١٨ الذي يعبر عن فرح الشعب بأمانة الله لوعوده بالخلاص. فيسوع هو «الآتي» (را. ١: ١٥؛ ٣: ٢٧؛ ٣١: ٦؛ ١٤: ١١؛ ٢٧: ٢٧) «باسم الرب» (را. ٥: ٤٣؛ ١٠: ٢٥؛ ١٧: ١١،

الأحد (قبل الفصح بستة أيام)؛ ولا تضم سوى المؤمنين بيسوع المسيح معطي الحياة، في بيت أحماء (١١: ٥) وتلاميذ (١١: ٢٨).

في الوقت الذي «كانت مرثا تخدم» (ع. ٢)، «أخذت مريم من طيب ناردين خالص كثير الثمن ودَهنت قدّمي يسوع ومسحتهما بشعرها فأمثلاً للبيت من رائحة الطيب» (ع. ٣). وهذه هي صورة العائلة المسيحية المؤمنة؛ بل صورة الجماعة المسيحية الحقّة التي تلتقي كعائلة أخوة أحماء، مساء الأحد حول مائدة الرب. وتلتقي حول إله الحياة، وقد اختبرت القيامة بذاتها، وأعلنت إيمانها بالمسيح ابن الله الآتي إلى العالم، وتخدمه وتخدم أعضاء جماعته، وتسكب ذاتها وكل ما لها على قدميه. فإنّ فيما قامت به مرثا ومريم رمزاً يتعدّى حرفيّة الأحداث، لتطال المعنى العميق للطقوس. فيوحنا الذي لم يذكر العشاء الإفخارستي، ذكر مائدة الرب مع جماعته «عائلة الأصدقاء الأحماء»، بعد اختبارها لقوّة القيامة بعد ألم الموت. فإنّ لقاء التلميذ الحيّ مع الرب (رؤ ٣: ٢٠). وسكبت مريم على قدميّ يسوع «الناردين الخالص» الغالي الثمن، وقد قدره يهوذا «بثلاثمائة دينار» أي بما يعادل تقريباً أجره عامل لسنة كاملة، لأنّ أجره العامل اليوميّة كانت ديناراً واحداً. وهذا الناردين كان يدخل في مواد الزيت المستعمل في مسح مذهب الرب، كما في مسحة الكاهن الأعظم (لا ١٠: ١٢-١٢). فيسوع هو مقدس الله الأعظم، وهو المقرّب ذاته وهو المقرّب فدء عن الناس. ففي ما قامت به مريم رمزاً أكيداً لطقس فصحّي جديد لم يعد يقوم على مسح الكهنة وذبح الخراف؛ بل على سكب الطيب على قدمي الرب القادر أن يحوّل «نتن» الموت (١١: ٣٩) إلى رائحة طيب وحياة (١٢: ٣). وحفظت مريم ذكرى من قدّم حياته لتكون الحياة للأخوة، فكان ما فعلته، علامة على سكب الذات أمام من أعطى ذاته. إنّ في مسح مريم لقدمي يسوع بشعرها علامة على السجود الكامل بحيث يصبح الرأس أرضاً، أمام الموضع المقدس، فيسوع هو الهيكل الحق وهو حضور الله على الأرض. وهذا ما لم يفهمه الإسخريوطي. فمنّ الحدث ومعناه ورموزه اللاهوتية، لم ير يهوذا سوى الهدر الحاصل. واعتبر أمين الصندوق أنّ من واجباته التنبيه إلى الحفاظ على كميّة صرف الأموال. ولكن يبدو أنّ الجميع كان يعلم بعدم أمانته، فيعلن الإنجيليّ أنّه «كان سارقاً» يتحجج بمحبّة الفقراء والاهتمام بشؤونهم ليختلس ما في الصندوق (ع. ٦). وفي ملاحظته، وضع يهوذا السجود ليسوع الرب مقابل الاهتمام بالفقراء، في حين أنّ يسوع أعطى حياته بالكامل محبةً بفقراء هذا العالم. فإنّ «حفظ» ذكرى يسوع وتكفينه، من خلال سكب الطيب، لا يعني عدم الاهتمام بالفقراء؛ بل يذكر المؤمنين أن يفعلوا كما فعل يسوع فيحبّوا بعضهم بعضاً كما أحبّ. وإنّ الفقراء الموجودين معنا في كل حين (را. تث ٦٥: ١١)، بحاجة إلى مؤمنين يعرفون كيف يسكبون ذواتهم

بحقّ اليونانيين بالخلاص المنتظر من المسيح الموعود. فإنّ رغبة اليونانيين في أن «يروا يسوع»، هي الرغبة الإنسانية في رؤية الله والحياة الأبدية (٦: ٤٠). وكان مجيئهم مناسبة لخطاب يتمحور حول الخلاص الشامل الذي يحققه يسوع للبشرية قاطبة (ع. ٢٣-٣٣). وبدأ بمثلّ حبة الحنطة الواحدة التي إن ماتت أعطت حصاداً وافراً (ع. ٢٤)، وانتهى بالإعلان أنّ المسيح «سيجذب إليه الجميع» (ع. ٣٢)، وكان يسوع يتكلم في ختام رسالته الأرضية عشية الآمه. و«أتت الساعة» (ع. ٢٣). فقد أشار القديس يوحنا بطريقة غير مباشرة إلى ضرورة موت المسيح لأجل كلّ البشر (را. ١٠: ١٥-١٨؛ ١١: ٥١-٥٢)، وها هو يوضح من خلال مثل حبة القمح، أنّ كلّ حبة بمفردها يجب أن تموت لتسمح بالحياة لكثيرين. ومن دون موت الحبة، لا حصاد؛ ومن دون موت المسيح، لا وحدة للبشرية كلها.

ففي مقابل الحبة التي تقع في الأرض (ع. ٢٤)، يرتفع يسوع عن الأرض (ع. ٣٢)؛ وفي مقابل من يبغض نفسه في هذا العالم (ع. ٢٥)، تأتي دينونة هذا العالم (ع. ٣١)؛ وفي مقابل التأكيد على إكرام الآب لمن يخدم يسوع (ع. ٢٦)، يأتي الطلب «مجد اسمك» (ع. ٢٨)؛ وفي المحور تظهر «الساعة» (ع. ٢٧، ٣٢). وهكذا يبدو واضحاً أن خطاب يسوع كان رداً على طلب اليونانيين أن يروه، ويشير إلى أنّهم سيرونه عندما «يرتفع» ممجداً. وعندها فقط يجذب إليه الجميع.

فإنّ الساعة التي لم تكن قد أتت عندما أراد اليهود الإمساك به (٧: ٣٠؛ ٨: ٢٠)، أتت الآن من خلال مسيرة اليونانيين نحوه. ففي خطابه عن الساعة التي يعلم الجميع أنّها ساعة الموت، يشمل يسوع القيامة أيضاً، فسرّ الساعة هو سرّ واحد يشمل الموت والقيامة والتمجيد. فإنّ طريق المجد هو طريق حبة الحنطة، التي تموت لتحيا وتحيا الكثيرين. وقد استعمل القديس بولس هذه الصورة في كلامه عن القيامة (١ كو ١٥: ٣٥-٣٨)، كما استعملها يسوع في كلامه عن ملكوت السماوات (مت ١٣: ٣؛ مر ٤: ٢٦-٢٩). ففي الأمثال الإزائية، كلمة الرب هي الحبة التي تقع في الأرض، أما هنا فيسوع هو الحبة التي «يجب أن تموت» لتعطي ثمرًا كثيرًا. فإنّ الآلام إذا ليست هدفاً لذاتها، بل مسيرة واجبة لا تفهم إلا من خلال مفاعيلها: الحياة بوفرة. وهذا هو معنى «الارتفاع عن الأرض» بهدف «جذب الجميع» (ع. ٣٢).

فإنّ حبة الحنطة هي «خبز الحياة» (٦: ٣٥، ٤٨)، وهي بالتالي «جسد يسوع المذلول من أجل حياة العالم» (٦: ٥١). ولكنّ يسوع ليس وحده في هذه المسيرة، لأنّها أيضاً مسيرة أتباعه الذين يتحدون به في موته، فيتحدون به في قيامته أيضاً، ويشمرون بالتالي ثماراً كثيرة (را. ١٥: ١-٨). وما يقوله يسوع عن نفسه (ع. ٢٤) ينطبق على تلاميذه أيضاً (ع. ٢٥). فكما أنّ من يموت يحيا ويحيي، فإنّ

(١٢). وإنّه «ملك إسرائيل» وهو ما أعلنه نشأئيل في بداية الإنجيل (١: ٤٩)، وقبله يسوع بمعنى المسيح المنتظر.

فبالحقيقة قد هتفت الجموع، بعد آية تكثير الخبز، ليسوع «النبى» الذي سيأتي (٦: ١٤)، وأرادت أن تقيمته ملكاً (٦: ١٥)، وهنا يبدو الأمر في الإطار عينه يهتفون «للآتي» و«الملك»، وكأنّ المقصود هو الإطار السياسي الذي يخيم على الانتظار الشعبي. وكما لم يفهم الشعب في آية الخبز، كذلك في آية إقامة لعازر؛ فقد اكتفوا بالوجه الظاهر منها؛ ولم يتخطوا الأعجوبة. فلم يفهموا عمق معنى الآية، فكان لا بدّ للقديس يوحنا من توضيح الأمر استناداً إلى الكتب، كما فعل في ٦: ٣١ «كما هو مكتوب»، فأدرج آية زك ٩: ٩ ليبيد الإطار السياسي عن الحدث، ويؤكد أن مسيحانية يسوع هي مسيحانية التواضع واللفظ والسلام، وهو ما سيظهر جلياً في نصوص الآلام. فإنّ يسوع هو الراعي الصالح، فيجيب على ابنة صهيون ألا تخاف (صف ٣: ١٦-١٧). وهكذا نزع يوحنا عن لقب «الملك» صفة الالتباس. فبجلوسه على الجحش أوضح يسوع، لمن يريد أن يفهم، أنّه «ملك» نبوي. فما عمله هو رمز، لم يفهمه التلاميذ إلا بعد قيامته (ع. ١٦: ٢؛ ٢٢).

ولن يتمكن المؤمنون من فهم آيات الكتاب المقدس، إلّا في ضوء قيامة المسيح بعد آلامه وموته. فإنّ تمجيد يسوع بواسطة صليبه هو مفتاح فهم البشرية للكتب. ولكنّ مهمة يسوع تطال البشرية كلها وليس فقط أهل فلسطين: «العالم كله قد ذهب وراءه». هذا ما ينقلنا إلى حدث اليونانيين الذين يطلبون أن يروا يسوع.

وكلّ الآيات التي ذكرها الإنجيلي في القسم الأول من الكتاب (١-١٢)، لم تكن سوى «آيات»، أي رموز للحياة والنور المزمع أن يعطيها يسوع بموته وقيامته: فالنظر للعميان، والشفاء للمرضى، والخبز للجائعين، والقيامة للموتى؛ ليست سوى استباق وصورة لما ستحقّقه الآيات الأعظم، آية الصليب وارتفاع ابن الإنسان. فإنّ الحياة الحقّة متعلقة بموت المسيح وقيامته، وبالتالي بجذب الجميع إليه. وها إنّ «الساعة أتت» ليوثمن من رأوا الآيات ومن لم يروا (را. ٢٠: ٢٩).

١٢: ٢٠-٣٦ مجيء اليونانيين بعد دخول يسوع إلى أورشليم
ينتقل الإنجيلي الرابع بطريقة مدهشة من السرد إلى خطاب يشرح فيه يسوع معنى الأحداث. فمن دون إرادتهم، كان الفريسيون شهوداً لتدفّق «العالم» نحو يسوع المسيح. وها إنّ اليونانيين يطلبون لقاء يسوع والعلاقة معه بواسطة تلميذه فيلبس، الذي من بيت صيدا (١: ٤٤)، وأندراوس اللذين يحملان اسمين يونانيين، واللذين غالباً ما يذكرهما يوحنا معاً (١٢: ٤٤؛ را. ٦: ٧). فإنّهما يمثلان العالم بأجمعه، وعلى مستوى أوّل العالم اليوناني، الذي شكّل باكورة البشرية غير اليهودية التي آمنت بالمسيح يسوع.

فلم يكن اليونانيون ينتظرون مسيحاً، ولم يكن اليهود يعترفون

«قد مجدّت وأمجد أيضًا» (ع. ٢٨)؛ ومن خلال هذا الصوت، عرّف الله بنفسه للبشر عبر الأزمنة (را. دا ٤: ٢٨؛ رؤ ١٠: ٤، ٨؛ ١١: ١٢). ولكن صوت الله هنا للدلالة على أنّه لا وسيط بين الآب ويسوع، فهو ابنه وقد أعلنه للجميع في أثناء المعمودية (مت ٣: ١٧)، والتجلي (مت ١٧: ٥؛ ٢ بط ١: ١٧)، وهما حدثان لا يذكرهما يوحنا. فيأتي صوت الله هنا لشرح معنى الساعة التي أتت بحسب إرادة الآب: فإنّها ساعة المجد. وطلب يسوع تجيّد اسم الآب، فكان الجواب تجيّد الابن. فإنّ مجد الآب هو الاستعلان الكامل والفاعل لمحبتة للعالم، من خلال عمل الابن الذي أحب العالم «إلى المنتهى» (١٣: ١)، فبذل نفسه لأجلهم. ومجد الآب كان من خلال الآيات التي حققها الابن في الماضي (٩: ٣؛ ١١: ٤، ٤٠) لأنها عمل الآب بالذات (٥: ٣٦؛ ١٠: ٣٢، ٣٧). فيسوع لم يعمل أبدًا وحده، بل كانت كل أعماله أعمال الآب (٨: ١٦، ٢٩)، وكل رسالته إعلان للآب بالذات (١: ١٨). أمّا المجد الذي سيتمّده فسيكون في تنميط الرسالة التي أوكّلها الآب للابن، فيرى العالم كله مجد الآب.

ولم تغب طيلة الإنجيل الرابع الفكرة التي تقابل بين «مجد الناس»، و«المجد من الله وحده» (٥: ٤٤). فبعض الناس يطلبون المجد من الناس، بمعنى البحث عن الكرامة والجاه (٧: ١٨)؛ وفي يو ٨: ٥٠-٥٥ يعلن يسوع أنّه لا يبحث عن مجده الخاص، بل الله هو من يمجّده. فهو إذاً ينال المجد الذي يأتي «من الله الواحد»؛ وفي يوا ١١: ٤ نفهم أنّ مجد المسيح هو مجد الله بالذات، ومن رأوا ما قام به يسوع «رأوا مجد الله» (١١: ٤). وهذه هي المفارقة التي يتمحور حولها كامل الإنجيل اليوحناوي: إنّ في مجيء ساعة الألم والموت تنميطاً لمجد اسم الله، فيتمّده يسوع المسيح.

لم يكن يسوع بحاجة إلى من يثبت في إيمانه بأمانة الله (را. ١٠: ٣٠، ٣٨)، فصوت الله هو لتثبيت السامعين، تمامًا كما جرى أمام قبر لعازر في يو ١١: ٤٢. وأمام تقدمة الذات التي قام بها يسوع يأتي المفعول المباشر: دينونة هذا العالم (ع. ٣١). فالساعة التي أتت هي في الوقت عينه ساعة الألم والموت والقيامة، وساعة الدينونة أيضًا. فبدء مسيرة المجد، هو أيضًا بدء دينونة العالم وانكسار العدو «الآن يطرّح رئيس هذا العالم خارجًا» (ع. ٣١). فالدينونة ترافق استعلان النور، ولكن طالما أنّ يسوع لم يمجّد بعد، فلم يفهم التلاميذ ذلك. أما الآن فقد بدأت الحقيقة بالظهور الكامل، وبالتالي بدأت دينونة عالم الظلمات الذي يرفض النور. وسيطرّح رئيس هذا العالم خارجًا (٦: ٣٧؛ ١٥: ٦)، فيتمّ انتصار يسوع عليه وعلى كل أعداء البشرية بشكل نهائي ودائم (را. ١ كو ٢: ٨، ٢ كو ٤: ٤؛ أف ٢: ٢؛ ٦: ١٢). وطرح رئيس هذا العالم، وارتفع يسوع عن الأرض. وصحيح أنه ارتفع على الصليب، لكنه ارتفع ارتفاع المجد (را. إش ٥٢: ١٣-١٥)، ممّا يعني أنّ الصليب هو عرش

«مَنْ يَبْغِزُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظْهَا»، و«مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يَهْلِكُهَا» (را. مت ٢٤: ٦؛ لو ١٤: ٢٦). فالحياة الأبدية في كل الأحوال، هي الشراكة مع الله بالذات، وهي عند القديس يوحنا، العلاقة بالمسيح ابن الله. ويكتب يوحنا في زمن كان فيه المسيحيون مضطهدين، يعانون من الشدة، ليؤكد أنّ المؤمنين بيسوع هم في خدمته وخدمة مشروعه الإلهي لخلاص العالم، ممّا يعني اتّباعه حتى الموت. فلليونانيين الذين يطلبون رؤيته، يجيب يسوع بأنّ لا مجال لرؤيته إلّا حيث هو: فلرؤيته يجب اتّباعه. وهذا الاتّباع يفترض القبول بالتعرّض للخطر، والالتزام بالمسيح على الرغم من شك الصليب. ولكن هذه الدعوة تتوافق مع وعد أكيد: «وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضًا يَكُونُ خَادِمِي» (ع. ٢٦)، من دون تحديد المكان. فبحسب إطار النص، يبدو أنّ هذا المكان هو الصليب، لكنّه صليب المجد، وبالتالي فإنّ التلميذ الذي يتبع يسوع ويخدمه هو المعدّ للمجد الذي يتمّده الابن، باتحاده الدائم مع الآب. وهذا ما سيطلبه يسوع في صلاته الأخيرة: «يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ» (١٧: ٢٤).

يورد القديس يوحنا في ع. ٢٧-٢٨ نصًا يبدو وكأنّه نصّ النزاع قبل الآلام على ما ينقله الإزائيون. ففي الإنجيل الرابع لا وجود لخبر النزاع في بستان الزيتون، (را. مت ٢٦: ٣٩؛ مر ١٤: ٣٦؛ لو ٢٢: ٤٢) وكأنّ يوحنا أراد أن يصوّر مسيرة الصليب على أنّها مسيرة نحو العرش الملوكي، والمجد المسيحاني من حيث يهب العالم الحياة. ولكنّ الإنجيلي حافظ على ما تناقله التقليد من صلاة تعبّر عن الصراع الذي اختبره يسوع أمام خبرة الآلام والموت (عب ٥: ٧-٩)، فضمّنه خطابه عن حبة الحنطة.

وقول يسوع: «نَفْسِي قَدْ اضْطَرَبَتْ»، يشبه تمامًا كما اضطربت أمام موت لعازر (١١: ٣٣)، ولكن بدلًا من أن يطلب النجاة من «هذه الساعة»، كما عند الإزائيين، يتساءل يسوع: «مَاذَا أَقُولُ؟... لأجل هذا أتيت»، وكأنّه يعلن أنّ مواجهة هذه الساعة هي قراره الحرّ. فإنّه بالأحرى يؤكد: لا لن أطلب النجاة من هذه الساعة، فهي سبب مجيئي إلى هذه الأرض (ع. ٢٧). وصلاة يسوع ليست إذاً للنجاة من الألم بل لتجيّد الآب، بمعنى الخروج من التجربة ظافرًا على الموت وعلى الألم «مجد اسمك». فصلاة يسوع هي صلاة طلب القوة في الصراع مع الموت، فيتمّده الآب فيه، وتكون الحياة للجميع، ويتحقّق فيه بالتالي مثل حبة القمح التي تموت لتعطي ثمرًا كثيرًا (ع. ٢٣-٢٦). فالمسيح لا يكتفي بالاستسلام لإرادة الآب «لا إرادتي بل إرادتك» وحسب، كما ينقل الإزائيون؛ بل يفتح على كلّ المجد الذي يؤول إليه ألمه والموت. ويتطلع يسوع من عمق أعماق الموت إلى مجد الآب هاتقًا: «ليتمّده اسمك». وكأنّ يوحنا من خلال صلاة الصراع هذه، لا يرى حدث النزاع قبل الموت، بل حدث التجلي وظهور يسوع على حقيقته. ومن هنا يورد خبر الصوت الذي «جاء من السماء» يقول:

الأعمال التي حققها يسوع وتمّم بها النبوءات، ألا يؤمنوا بأنّه هو المسيح المنتظر؟ أما يوحنا فقد وجد الجواب الأكيد في عدم إرادتهم أن يؤمنوا خوفاً من مفاعيل الإيمان، فكان أن حكموا على ذواتهم. وقاوم هؤلاء كلمة الله، وظنّوا أنهم غير مسؤولين عن عدم إيمانهم، فاتهموا الله وأعلنوا أنّه هو من قسّى قلوبهم لئلا يبصروا ويشعروا ويتوبوا (إش ٥٣: ١: ٦: ٩-١٠). فقد فهموا النبي إشعياء بشكل خاطئ، في حين أنّ ما كان إشعياء والأنبياء يطالبون به هو التوبة والعودة إلى الرب (إش ٦: ١٠)، فيصّحّ القديس يوحنا الأمر ويشرح حقيقته (ع. ٤٢). وعلى الرغم من كل الآيات، لم يؤمنوا، مع أنّ الآيات التي كُتبت في هذا الكتاب، هي «لتؤمنوا» (٢٠: ٣١). وتختفي عبارة «الآيات» طيلة الفصول اللاحقة فلا تعود إلى الظهور إلا في يوحنا ٣١: ٢٠. وتدلّ هذه العبارة على «أعمال» الآب، التي تؤكّد أنّ يسوع هو رسوله (٥: ٣٦: ١٠: ٢٥). وتصرف اليهود تجاه يسوع كما تصرف آبائهم تجاه الله في موب، فلم يعرفوه بقلوبهم، ولا أبصروه بعيونهم، ولا سمعوه بأذانهم (تت ٢٩: ٣)؛ فإنهم يسمعون ولا يفهمون، وينظرون فلا يبصرون (مت ١٣: ١٤-١٥)، وقد رأى القديس يوحنا في ذلك قصاصاً لهم على عصيانهم. وأعطاهم الله مناسبات عديدة وفرصاً كثيرة ليعرفوه ويعرفوا الحقيقة، فعاندوا، وقاوموا، ورفضوا شهادة الابن الوحيد الذي أرسله. ففي خطابه الأخير تكلم يسوع عن ارتفاعه، كما عن ارتفاع «عبد يهوه» (إش ٥٢: ١٣)، وها يوحنا يستشهد بكلام إشعياء ليشرح الأمر (إش ٥٣: ١). فكلام النبي يؤكّد عدم إيمان من كانوا شهوداً على كلام يسوع وأعماله، وعدم تمييزهم عمل الله بالذات. فقد «قال إشعياء هذا، حين رأى مجده وتكلم معه»، أي عندما اختبر دعوة الله له (إش ٦: ٦). فماذا رأى إشعياء؟ ويتكلم يسوع في يو ٨: ٥٦ عن «إبراهيم الذي رأى» يوم المسيح، فيما يؤكّد في يو ٨: ١٨ أنّ «الله لم يره أحد أبداً». فقد رأى إشعياء عرش الرب، مسكنه، وهو بالتالي قد رأى مجد الله بالرب يسوع.

وأكد يوحنا في مقدمة الإنجيل أنّ «خاصته لم تقبله». ولكنه أضاف «إنّ الذين قبلوه» (١: ١١). فهناك إذاً بين «خاصته» من قبله. وهذا ما يسرّ القديس يوحنا إلى تأكيد بقوله إنّ كثيرين من الرؤساء آمنوا به (ع. ٤٢)، ومنهم نيقوديموس مثلاً (٣: ١: ٧: ٥٠)، ويوسف الرامي (٣٨: ١٩) اللذان كانا تلميذين، ولكن بصورة سرية (را. مر ١٥: ٤٣؛ لو ٢٣: ٥٠) خوفاً من الطرد من المجمع. وفي كلّ الأحوال يذكر كتاب أعمال الرسل أنّ «كهنة عديدين» صاروا من التلاميذ (أع ٦: ٧). وأراد يوحنا من خلال هذه الآيات (ع. ٤٢-٤٣) تصحيح مقولة عدم الإيمان كمصير «مكتوب» ومقدّر لبعضهم. فالإيمان هو قرار حرّ وجريء يطلب من الناس الالتزام به على الرغم من التهديدات والخوف من العواقب، التي لم يتمكن

مجده وارتفاعه نحو الآب. بالصلب رفع يسوع معه الجميع إليه، فتّمّت نبوءة قيافا: «يموت واحد عن الأمة» (١١: ٥١).

ويأتي ع. ٣٣ ليخصّ خطاب يسوع ويختتمه. فالصلب هو ارتفاع يدخل في تصميم الآب الخلاصي، القاضي بتمجيد ابنه وخلاص العالم (را. ٨: ٢٨). وقد أراد اليونانيون «رؤية يسوع»، فسيرونه مرتفعاً مجدداً رافعاً معه العالم أجمع. وكل معرفة خارج موته وقيامته تبقى معرفة ناقصة. فإنّ أتباع يسوع المسيح يتمّ في خدمته، وهو ما سيوضحه يسوع في خطابات الوداع. ولكنّ الأهم يبقى في الاستسلام له ليجذبنا معه إليه.

وفي نهاية خطابه، يطلق يسوع نداءً أخيراً يطلب فيه من الناس الإيمان بالنور (ع. ٣٤-٣٦). فبعد كلّ التوضيحات اللاهوتية، تعلن الجموع اليهودية صعوبة فهمها لمعنى «ارتفاع ابن الإنسان»، وفي وقت كانت تنتظر فيه مسيحاً أبدياً سلطاناً لا يزول، (را. د ١٧: ١٣-١٤؛ مز ١١٠: ٤؛ ٨٩: ٣-٤؛ إش ٩: ٧؛ حز ٣٧: ٣٥) كيف يمكن فهم الصليب في غمرة الحماسة لمسيح موعود كهذا؟

وأمام أسئلتهم، لا يعطي يسوع جواباً مباشراً، بل يطلق دعوة إلى الذهاب إلى النور، أي الإيمان به هو «نور العالم». وسمع الجمع الصوت الإلهي، ولكنه لم يفهم، كما أنّ التلاميذ أيضاً لم يفهموا. فسرّ يسوع لن يتوضّح إلا بعد القيامة (١٢: ١٦). فإنّ ما قاله الجمع صحيح: «المسيح يبقى إلى الأبد»؛ ولكن بين الوعد الإلهي والمجد الأبدي ينتصب شك الصليب، و«السير في النور» أي التقدّم نحو الإيمان، على الرغم من عثرة الألم والموت، فيكونون «أبناء النور» (ع. ٣٦)، «نور العالم» كما يسوع، والخيار مفتوح أمام كل إنسان. وبعد هذا النداء «اخترى» يسوع، وانتهت رسالته العلنية، ولن يظهر بعد الآن إلا بين تلاميذه بانتظار إعلانه قائماً من الموت.

١٢: ٣٧-٥٠ ختام كتاب الآيات وتأتي الأعداد ٣٧-٥٠ لا لتختتم مقطع ١٢: ٣٢-٣٦ وحسب، بل لتختتم كامل الجزء الأول من الإنجيل الرابع الذي اتفق شراح الكتاب المقدس على تسميته «كتاب الآيات» (ف. ١-١٢). وتنقسم هذه الآيات إلى قسمين: في الأعداد ٣٧-٤٣ يتكلّم الإنجيلي ليشرح ما كتب من آيات، فيركّز على نصّ إشعياء الذي يتحوّل في ع. ٤١ إلى إعلان إيماني؛ ويعطي في الأعداد ٤٤-٥٠ ملخصاً للنقاط الأساسية في كرازة يسوع كما أوردها في الفصول السابقة.

وغالباً ما يعود يوحنا إلى موضوع عدم إيمان اليهود بكلام يسوع، بسبب انجرافهم مع «أبيهم» ومع «الكذاب» (٦: ٤٤؛ ٨: ٤٤)، ولكنه هنا يضع كامل المسؤولية على من لم يؤمنوا. فقد شكّل عدم إيمان بعض اليهود بالمسيح، الذي طالما انتظروه بناء على وعود الله في الكتب المقدسة، سرّاً مؤلماً، وسؤالاً صعباً أمام اليهود الذين آمنوا به وصاروا مسيحيين؛ فكيف يمكن لهؤلاء الذين رأوا

غسل الأرجل جوهر حدث العشاء الأخير، فتغيب الإفخارستية من النصّ اليوحناوي غياباً كاملاً، بعد أن كان قد أورد مبدأها وأساسها في خطاب خبز الحياة (ف. ٦)، ومن جهة ثانية، يُنهي القديس يوحنا خبر العشاء الأخير بخطابين طويلين (١٣: ١٤-٣١: ٣١)، وصلاة (ف. ١٧)، مع الملاحظة بأنّ القديس لوقا يورد أيضاً خطاباً قصيراً بعد العشاء وبعد إعلان خيانة يهوذا (لو ٢٢: ٢٤-٣٨). ويأتي نصّ غسل الأرجل وخطابات الوداع، ليشرح المعنى اللاهوتي لحدث الصليب، ولشروط استمرارية الوحي والبشارة بعد الفصح. فهل كان عشاء يسوع الأخير عشاءً فصيحاً؟

ويتفق الإزائيون مع يوحنا على نقطة مهمة: لقد صُلب يسوع يوم جمعة، ليلة عيد الفصح الذي كان تلك السنة يوم سبت. وهذا ما سمح بتحديد تاريخ ذلك اليوم بطريقة شبه أكيدة. فإنه يوم الجمعة السابع من نيسان سنة ٣٠ ميلادية. ويؤكد يوحنا أن «إِذْ كَانَ اسْتَعْدَادُ فَلَکَيَّ لَا تَبْقَى الْأَجْسَادُ عَلَى الصَّلِيبِ فِي السَّبْتِ لِأَنَّ يَوْمَ ذَلِكَ السَّبْتِ كَانَ عَظِيمًا سَأَلَ الْيَهُودُ بِيَلَاطُسَ أَنْ تُكَسَّرَ سِقَانُهُمْ وَيَرْفَعُوا» (١٩: ٣١). ولقد مات يسوع إذاً قبل بداية الفصح مباشرة. وهذا ما يمنع أن يكون عشاء يسوع الأخير عشاءً فصيحاً، على ما يُعلنه يوحنا عندما قادوا يسوع للاستجواب عند بيلاطس، وهو مكان وثني «ثُمَّ جَاءُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدَ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ وَكَانَ صُبْحٌ. وَلَمْ يَدْخُلُوا هُمْ إِلَى دَارِ الْوَلَايَةِ لَكِي لَا يَتَنَجَّسُوا فَيَأْكُلُونَ الْفَصْحَ» (١٨: ٢٨). فإن كان هذا هو الحال، فلماذا قدّم الإزائيون هذا العشاء على أنه العشاء الفصحي؟ فمن الصعب التصديق بأن تكون كل أحداث يوم الجمعة، من حكم وتنفيذ للقتل، قد تمت يوم الفصح! وبهدف حل هذه المسألة حاول بعضهم البحث عن تاريخ آخر للعشاء الأخير بحيث يكون يسوع قد تبع تقويم الأسينيين الليتورجي (المعروف من مخطوطات قمران) الذي كان يحدد الفصح يوم الأربعاء؛ فيكون يسوع قد احتفل بالتالي بعشاءه الفصحي مساء الثلاثاء. هذا التاريخ يترك مدة يومين لإصدار الحكمين وتنفيذ القتل، ويحترم بالتالي المهل القانونية. لكن هناك أيضاً حل أبسط يقضي بأن يكون التقليد السابق للإزائيين هو من حوّل العشاء الأخير إلى عشاء فصحي، لسببين أساسيين: أولاً بسبب قرب العيد (في الغد)؛ وثانياً والأهم هو بسبب المعنى اللاهوتي لموت يسوع، الحمل الفصحي الحقيقي، على ما قال القديس بولس «فِيصَحًا أَيْضًا الْمَسِيحُ قَدْ ذَبَحَ لِأَجْلِنَا» (١ كو ٥: ٧).

١٣: ١-١٧: ٢٦ العشاء الأخير

١٣: ١-٣٠ غسل يسوع لأرجل تلاميذه وتحديد الخائن في المشهد الافتتاحي للجزء الثاني من الإنجيل الرابع (١٣: ١-٣٠) حدثاً: غسل الأرجل، وتحديد هوية الخائن الذي سيسلم يسوع. ويبدو الحدث الأول وكأنه آية رمزية، يفترض بالتلاميذ أن يفهموا عمق معناها «أتقهمون» (ع. ١٢)؛ ولكن مع صعوبة الفهم، فإن

أهل الأعمى منذ الولادة من أن يتخطوها (٩: ٢٢)، لأنهم «أحبوا مجد الناس، أكثر من مجد الله» (ع. ٤٣).

ولكي لا ينهي هذا القسم الأول من الإنجيل بفكرة «عدم الإيمان»، يعود القديس يوحنا ليسجل بعض أقوال يسوع وكأنه يُلخّص كل المبادئ التي وردت في هذا القسم: النور، والدينونة، والحياة، والعلاقة بالآب. و«نادى يسوع وقال»، كما فعل في الهيكل (٧: ٢٨، ٣٧) ليلخّص ويذكر بكلامه. فيسوع هو محور كل هذه الكلمات، بحيث يرد ضمير المفرد المتكلم ١٦ مرة في هذه الأعداد السبعة (ع. ٤٤-٥٠)، ولكن دائماً في علاقته بالآب.

ويمكن تلخيص هذه الآيات بثلاث أفكار: الإيمان بيسوع هو الإيمان بمن أرسله؛ (١٨: ١، ١٨: ٥، ٢٤: ١٦، ٩: ١٣: ٢٠) ويسوع هو النور (١٩: ١، ٩: ٣: ١٩) وهو كلمة الله أيضاً (ع. ٤٦-٤٨)، (١٩: ٦، ٦٠: ٩، ٤٠: ١٢، ٢٩: ١٩: ٨)؛ ووصية يسوع هي الحياة الأبدية (ع. ٤٩-٥٠). ولم يتكلم يسوع من نفسه (٥: ٣٠، ٨: ٢٦)، فإنه يقول ما يريد الآب، وكلام الله حياة (٨: ٣). فيسوع هو الكلمة التي بها ابتدأ الإنجيل وبها انتهى.

١٣: ٢٠-٣١ كتاب المجد

يشكل الفصل الثالث عشر بداية للجزء الثاني من الإنجيل الرابع. ففي الجزء الأول (ف. ١-١٢)، أورد الإنجيلي سرداً لاستعلان المسيح أمام العالم؛ أما في الجزء الثاني، فسيفتصر الأمر على استعلان مجده أمام تلاميذه. ويتضمن هذا الجزء الثاني ثلاثة أقسام: الأول هو خبر عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه، وخطابات الوداع (ف. ١٣-١٧)؛ والثاني هو خبر الآلام والصليب (ف. ١٨-١٩)؛ والثالث هو بشرى قيامة المسيح ابن الله (ف. ٢٠). ولكن بعد ختام الإنجيل في يو ٢٠: ٣٠-٣١، يأتي ملحق في الفصل ٢١، ومن الواضح أنه نصّ متأخر حتى ولو تضمن أخباراً عن ظهورات يسوع القائم من الموت في الجليل (١ كو ١١: ٢٣-٢٧).

ويتضمن القسم الأول (ف. ١٣-١٧) ثلاث مجموعات أساسية. في المجموعة الأولى خبر غسل يسوع لأرجل تلاميذه، وتحديد هوية الخائن في أثناء العشاء الأخير (١٣: ١-٣٠)، ويشكل عشاء يسوع الأخير حدثاً مهماً حفظه العهد الجديد بأشكال متعددة. وفي المجموعة الثانية خطابات وداع (١٣: ٣١، ١٤: ٣١، ١٥: ١-١٦: ٣٣). وفي الثالثة صلاة الوداع (ف. ١٧). ففي الوقت الذي تعتبر فيه الإفخارستية هي الحدث اللاهوتي الجوهري للعشاء الأخير عند الإزائيين وبولس (مر ١٤: ٢٢-٢٥؛ مت ٢٦: ٢٦؛ لو ٢٢: ١٩؛ ١ كو ١١: ٢٣)، لأنها تكشف معنى موت يسوع الخلاصي من جهة، وتضمن مستقبل ما كشفه يسوع وأعلنه بعد غيابه من ناحية ثانية؛ يتحول هذا عند القديس يوحنا. فمن جهة، يجعل يوحنا من

القديس يوحنا لا يبخل بإعطاء مفاتيح المعاني. فالحدث هو في «أثناء العشاء» (ع. ٢)، أي في أثناء «عشاء الرب» (١ كو ١١: ٢٠) الذي دأبت الجماعات المسيحية على الاحتفال به «لذكر المسيح الذي صُلب ومات وقام»، مما يساعد المسيحي على فهم الإطار الذي يجب عليه أن يفهم النص من خلاله، ثم إن لزمن الحدث معنى أكيداً. فيسوع يعلم جيداً «من أين أتى» و«إلى أين يمضي»، كما يعلم جوهر رسالته «أحب خاصته إلى الغاية»، ويعلم أن ساعته قد حانت «ليعود إلى الآب» (١٣: ١-٣). وكان القديس يوحنا يجعل من افتتاحية الحدث ملخصاً لكل لاهوت الإخلاء الذي عاشه يسوع بتجسده. فإن يسوع هو «كلمة الله» و«الابن الوحيد» الذي ترك مجده و«نزل من السماء»، ليعود إلى السماء، وهو من له ملء السلطة التي نالها من الآب (ع. ٣: ١٣). وقد نزل إلى أقصى درجات الخدمة أخذاً صورة «عبد» (في ٢: ٥-٨).

وانتهت رسالة يسوع وكشفه ذاته للعالم بفشل واضح (١٢: ٣٧-٤٣)، مع أن القديس يوحنا أراد من خلال خاتمة القسم الأول (١٢: ٤٤-٥٠) أن يضيف إليها نظرة إيجابية. وها إن القارئ يجد نفسه أمام بداية مرحلة سردية جديدة (١٣: ١).

ويمكن أن نقسم نص غسل الأرجل (ع. ١-٢٠) إلى خمسة أقسام: مقدمة (ع. ١-٣) ويمكن أن نعتبرها مقدمة لكامل كتاب المجد (ف. ١٣-٢٠)، كما لنص غسل الأرجل بالتحديد. ومن خلال هذه المقدمة يضع الكاتب الإطار السردية واللاهوتية الذي يعطي للحدث معناه. ثم يأتي ثانياً مشهد غسل الأرجل (ع. ٤-٥) بشكل مختصر جداً، وكأنه حدث يهيئ لما سيلقي، من حيث إنه يعطي معنى لموت يسوع الوشيك. وفي المرحلة الثالثة يورد الكاتب شرحاً لما قام به يسوع (ع. ٦-١١) من خلال حوار بين يسوع وبطرس، ينتهي بالتوجه إلى كل التلاميذ بعد الإشارة إلى خيانة يهوذا. يلي هذا الشرح الأول شرح ثان بعد أن أنهى غسل أرجل كل التلاميذ، (ع. ١٢-١٧) يبداه يسوع بسؤال: «أتفهمون ما قد صنعت بكم» (ع. ١٢)؟ ويتحول إلى خطاب يتمحور حول «المثال» الذي أعطاه يسوع لخاصته، وينتهي بتطويب من يعمل هكذا (ع. ١٧). أما القسم الخامس (ع. ١٨-٢٠) فهو إعلان عن خيانة يهوذا (را. ١٣: ٢؛ ١٠-١١)، ودعوة إلى الثبات بالإيمان، فيشكل إعلان الخيانة ختاماً لنص الغسل، ومقدمة لخيانة يهوذا (ع. ٢١-٣٠).

١٣: ٣-١ مقدمة الحدث يرسم الإنجيلي في الأعداد ١-٣ إطار الحدث في الزمان: «قبل الفصح»؛ ويذكر المناسبة: في «أثناء العشاء»؛ ويقدم الشخصيات: «يسوع» و«خاصته» من جهة، و«يهوذا» من جهة ثانية، بالإضافة إلى «الآب» و«الشيطان»؛ ويعلن أن «مسرح الأحداث هو «العالم». وهكذا يرسم يوحنا المحور اللاهوتي الذي يحكم قراءة أحداث الآلام كلها. ففي ع. ١ يؤكد القديس يوحنا أن

آلام يسوع وموته ما هما سوى انتقال «من هذا العالم إلى الآب». فنحن «قبل عيد الفصح»، وقد عاش يسوع رسالته الأرضية بين ثلاثة أعياد فصحية (٢: ١٣، ٢٣: ٦؛ ٤: ١١؛ ٥٥: ١٢؛ ١)، وها هو الآن أمام تتيمم الغاية التي لأجلها «أتى إلى العالم»، إنه هو الفصح الحقيقي (١٩: ١٤، ٢٩، ٣٦)، محقق الخلاص الحق. وتندرج آلام يسوع وصلبيه في صلب مشروع الله الفصحي لخلاص البشرية.

ويدخل المسيح آلامه سيداً للأحداث، فهو ليس ضحية القدر، بل هو «يعلم» (ع. ١، ٣، ١١، ١٨) يقيناً كل الأحداث. يعلم ساعة الصليب، ويعلم من هو الخائن، فلا يمكن أن تفاجئه الأحداث، لأنه رسول الآب ويعلم كل قصد الله. وهكذا فإن الساعة، ساعة الفصح والخلاص هي غير خافية عليه، بل هو من يملك السلطة عليها. ففي كل القسم الأول من الإنجيل كانت الساعة سرية، فهي ستأتي؛ أما منذ بداية الفصل ١٣ فهي قد أتت، وهي موجهة ليس إلى «الموت»؛ بل إلى «الانتقال إلى الآب»، بعد أن حقق رسالته التي لأجلها أرسله الآب إلى العالم.

وتتوالى الجدالات بعد الآية الأولى في قانا وكلام يسوع عن ساعته. فإن كان العنف لم يبدأ بعد، فإن الصراع ينمو من دون هوادة. فقد بدأت المحاكمة بين «العالم» ويسوع، وتقرر الحكم. وكان يسوع يعلم ذلك «لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه» (٧: ١). وكان أيضاً يعلم ويعلن أنه، على الرغم من كل شيء، لم يأت وقته بعد (٧: ٨)، وهذا لا يعود إلى البشر أن يقرروا فيه، بل إلى الآب وحده، وإلى يسوع ذاته: «فطلبوا أن يمسخوه ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد» (٧: ٣٠؛ را. ٨: ٢٠).

وهكذا كان الحال في الفصول الأحد عشر الأولى من الإنجيل. فعندما طلب اليونانيون أن يروا يسوع بدأ معنى «الساعة» بالتلور. وأمام هؤلاء الغرباء، أعلن يسوع: «قد أتت الساعة ليمجد ابن الإنسان» (١٢: ٢٣). ويكمل بمثل الحبة التي تقع في الأرض والتي يجب أن تموت لتحمل ثمراً. فإذا لا شك في ذلك: إن كانت ساعته هي ساعة المجد فهي أيضاً ساعة الموت الآتي لا محالة. وهنا ترك يسوع المجال لألمه الداخلي بالتعبير، كما في نصوص النزاع الإزائية: «الآن نفسي قد اضطربت. وماذا أقول؟ أيها الآب نجني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة. أيها الآب مجد اسمك» (١٢: ٢٧-٢٨). ويضاف إلى عبارتي الموت والتمجيد، الارتقاء: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع» (١٢: ٣٢)، ويلفت الراوي إلى أن يسوع كان يشير «إلى المية التي سيموتها». ولقد بدأ الصليب يلوح في الأفق مترافقاً مع المجد ومع تجمع الأمم. ويتقدم يسوع نحو هذه الساعة بكل وعي وحرية، بعمل وقول كل ما يرضي الآب، ولو كان في ذلك خطر إثارة معاديه وتسريع نهايته. فقد خلص

لمشروع الله والمتسلط على هذا العالم، ليبعد الإنسان عن الله. فإنه صورة الشر الذي يقوى على الإنسان ليستعمله ضد «الرب السيد». ولكن استعباد الشر ليهوذا لا يعني حرمان يسوع من حريته، فهو يذهب إلى تنعيم رسالته، محبةً بخاصته، حتى الصليب.

١٣: ٤-٥ غسل الأرجل بعد هذه المقدمة اللاهوتية بامتياز،

يأتي سرٌّ مختصر، ولكنه لا يغفل عن أي تفصيل من تحركات الرب. فبعد أن «قام عن العشاء»، وبعد أن «خلع ثيابه»، «انترز بمنشفة»، و«صب ماء في مغسل»، «وابتدا يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة» (ع. ٤-٥). وكان لغسل الأرجل قبل الأكل دور كبير ومهم في عادات وتقاليد الحياة اليومية أيام يسوع، فإنه كان في ذلك الوقت: لضرورة النظافة، أو تنميماً للطهارة الطقسية، أو إظهاراً للحفاوة. وكان يقوم بهذا العمل الشخص الأدنى مرتبة (العبيد الوثنيون لأسيادهم اليهود؛ والنساء لأزواجهن؛ والأولاد لآبائهم)، ودائماً قبل العشاء. أما ما قام به يسوع، فليس تحضيراً للمائدة، ولا طقس حفاوة واستقبال، فهو «قام عن العشاء»؛ ولم يكن يسوع الأدنى مرتبة بين الحاضرين بل «معلم وسيد». فلقد قصد يسوع إذاً قلب الأدوار! فقد «خلع ثيابه» (ع. ٤)، ثم «أخذ ثيابه» (ع. ١٢)، في رمز إلى ما أعلنه في يو ١٠: ١٧-١٨ عن قدرته على «وضع حياته» و«أخذها» من جديد.

١٣: ٦-١١ شرح أول لمعنى ما حدث يأتي هذا الشرح الأول،

من خلال حوار يدور بين يسوع وبطرس الذي لم يتقبل عمل الرب. ويبدأ بطرس بسؤال دهشة يطرحه على يسوع: «يا سيد، أنت تغسل رجلي» (ع. ٦)؟ وفي موقف بطرس صورة لموقف التلاميذ كلهم، فهو يتوجه إلى يسوع بصفته «السيد» الذي يضع نفسه في خدمة «التلميذ» (أنت/رجلي أنا). وفي سؤاله استنكار لما سيؤول إليه الأمر من حيث الاستخفاف بهيكلية الأدوار. ففي فكر بطرس والتلاميذ، على السيد أن يبقى سيِّداً، وعلى التلميذ أن يعرف مكانته. فإنه العمل المنطقي الذي يحكم كل سلطة.

وعلى هذا يجيب يسوع بشكل مفاجئ (ع. ٧)، فلا يسعى لإقناع بطرس بما يفعل، ولا أن يصحح له قناعاته والأسس اللاهوتية، بل يؤكد له أن كل ما يقوم به لن يفهم إلا «فيما بعد». فكل ما يقوم به الرب يبقى غير منطقي «الآن»، ولكن المنطق الإلهي سيتوضح للفكر البشري «فيما بعد»، أي بعد القيامة، وما على بطرس والتلاميذ إلا أن يضعوا حدث غسل الأرجل في الإطار الفصحي، إطار الآلام والصليب والقيامة، ليدركوا عمق معناه، تحت تأثير الروح القدس (٧: ٣٩؛ ١٤: ٢٦). وهذا ما سيتكرر في خطابات الوداع (١٣: ٣٦؛ ١٤: ٢٩؛ ١٦: ١٢-١٣؛ ٢٢). ولكن بطرس لم يفهم، فكرر رفضه واحتجابه، مما أدّى بيسوع إلى تعميق المغزى الرمزي لما عمله والتأكيد على خطورة رفضه. فمن لا يقبل عمل الرب، لا يمكنه

زانية من الموت، وأعاد النظر إلى أعمى منذ الولادة، وأخرج لعازر صديقه من القبر؛ وفي المقابل أوردوا رجمه (١٠: ٣١؛ ١١: ٨)، لأنه ينبغي أن «يرفع من الأرض». وستكون نتيجة هذا أن كل «من يؤمن به تكون له الحياة الأبدية» (٣: ١٤)، «فتفهمون أنني أنا هو» (٨: ٢٨). وسيمجد ابن الإنسان وفي الوقت عينه يتمجد الآب الحي.

ويتسارع الوقت، وتحدد معنى الأحداث أكثر فأكثر، وها هي الساعة قد أتت (١٣: ١). فإنها الساعة «لينتقل من هذا العالم إلى الآب». وإنها ساعة آلام الولادة قبل فرح الوضع في العالم (١٦: ٢١). فالساعة هي أيضاً الوحدة في الآلام: «هوذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي» (١٦: ٣٢). وتندرج صلاة يسوع الكبرى قبل توقيفه تحت رمز هذه الساعة: «أيها الآب قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك... ليُعطي حياة أبدية لكل من أعطيت» (١٧: ١-٢). فإنها ساعة الخلاص، حيث سيعطي حياته بحريته لتكون لهم الحياة. وقد اقترب الوقت الذي فيه «سيتم» كل شيء (١٩: ٢٨، ٣٠).

واقتربت أيضاً ساعة التلاميذ: «سيفصلونكم من المجمع بل تأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم أنه يؤدي لله عبادة» (١٦: ٢). ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك: «حيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي» (١٢: ٢٦). فساعة التلاميذ بالنسبة إلى يوحنا تتلاقى وساعة المسيح الفريدة. ونحن نعرف، أنهم مثله، لن يكونوا وحدهم، فالآب هنا دوماً، ويسوع يسبقهم إلى الصليب في المجد، بالقرب من أبيه وأبيهم، بالقرب من إلهه وإلههم (٢٠: ١٧).

وبالإضافة إلى «علم» الرب «ساعة الانتقال»، يعطي القديس يوحنا بعداً ثالثاً للآلام هو «الحب إلى المنتهى». فإنه حب الرب لخاصته التي في العالم. فإن المسيح الذي «يعود إلى الآب»، يبني مع «خاصته التي في العالم» علاقة صداقة ومحبة حميمة (٦: ٦٠-٧١؛ ١٠: ١٢، ٤-٣). فإنهم في العالم طبعاً، ولكنهم خاصة المسيح، ابن الآب العائد إليه؛ فهم بالتالي ليسوا خاصة «هذا العالم»، بل «أحباء» الابن، أحبهم ويحبهم (مرتين في ع ١). وقد وصل به الحب «إلى المنتهى» (eis telos)، وهو ما سيظهر على الصليب حيث تعود العبارة عنها في اليونانية «قد أكمل» (teleō) (١٩: ٣٠). فإن موت يسوع ليس كارثة درامية؛ بل حدث خلاصي حباً بالبشر.

وفي الأعداد ٢-٣ ذكر لمناسبة الحدث من خلال إشارتين في «أثناء العشاء»: خيانة يهوذا التي تستبق ع. ٢٧، وعلم يسوع الكامل. فيهوذا ابن سمعان الإسخريوطي (٦: ٧١؛ ٣: ٢٦)، مستعبد للشيطان، الذي أعطاه الفكرة في قلبه فصار خائناً. ويأتي ذكر الخيانة، ليضع غسل الأرجل في إطار أحداث الآلام. فيهوذا لا يعمل منفرداً، وليس موت يسوع نتيجة جريمة شخصية، بل هي حرب الشيطان رئيس «هذا العالم» (را. ٦: ٧٠؛ ٨: ٤٤؛ ١٣: ٢؛ ١٢: ٣١؛ ١٤: ٣٠؛ ١٦: ١١) المناهض

هما إطار حدث الغسل .

فقد أتى ذكر اسم يهوذا في المقدمة، ولكن يسوع في حديثه لم يدل عليه بالاسم، فإن هوية التلميذ الخائن لن تتوضح إلا في الأعداد ٢١-٣٠. فإن الرب قادر على تحويل ما قام به يهوذا التلميذ ولو كان عمل خيانة غير مقبول ولا مفهوم إلى ما يؤول لخير البشرية، فيتم بواسطته مشروع الله الخلاصي وتتم الكتب (را. مز ٤١: ١٠؛ را. ١٢: ٣٨؛ ١٣: ١٨؛ ١٩: ٢٤، ٣٦). وفهم يسوع معنى الأحداث لأنه يعلم كل شيء، فهو بالتالي من يستطيع أن يشرح هذا المعنى (١٣: ١٨؛ ١٥: ٢٥؛ ١٧: ١٢). ولكن الخيانة تبقى خطيئة كبرى مؤلمة؛ فهي تأتي من صديق شارك صديقه المائدة (ع. ١٨؛ را. ف. ٦)، وكان مسؤولاً في الجماعة. فالقرب من الله لا يُبعد التجربة! وليس على التلاميذ الآخرين أن يتخاذلوا ويأسوا أمام خيانة أحدهم؛ بل على العكس، عليهم أن يثبتوا في إيمانهم، ويقولوا في التزامهم بمن يعرف ما في القلوب (ع. ١٩). وكما وجد من خان الرب، سيوجد من يخون رسله؛ ولكن سيوجد أيضاً من يقبلهم كما قبلوه هم. فمصير التلاميذ هو مصير معلمهم. وكما أن يسوع هو ممثل الأب في هذا العالم، فإن تلاميذه هم ممثلوه أيضاً. وبهذا يفتح يسوع مرحلة ما بعد الفصح، المرحلة التي سيكون فيها التلاميذ على مثال معلمهم، وقد أرسلهم ليمثلوه في العالم.

١٣: ٢١-٣٠ تحديد هوية الخائن فبعد أن أعلن يسوع عن وجود خائن (ع. ١٠-١١، ١٨)، سيحدد هويته، فيخرج هذا الأخير من الجماعة ليلاً (ع. ٣٠)، ولا يحصل بالتالي على التعاليم الخاصة بالتلاميذ (ف. ١٤-١٧) حول حياة الجماعة المؤمنة.

ويتناول المشهد أربعة أقسام: في الأول وصف لإعلان الخبر ولحيرة التلاميذ (ع. ٢١-٢٢)، وفي الثاني اتفاق بين بطرس والتلميذ الذي كان يسوع يحبه لاستجلاء الأمر (ع. ٢٣-٢٥)، ويؤول القسم الثالث إلى تحديد هوية الخائن (ع. ٢٦-٢٧)، ولكن من دون أن يفهم التلاميذ بصورة صحيحة معنى كلام الرب (ع. ٢٨-٢٩)، والقسم الأخير ينتهي بخروج يهوذا ليمثل عمله (ع. ٣٠).

ونجد رواية تحديد هوية خائن يسوع في الأناجيل الإزائية الثلاثة، (را. مت ٢٦: ٢١-٢٥؛ مر ١٤: ١٨-٢١؛ لو ٢٢: ٢١-٢٣) تأتي كلها في إطار عشاء يسوع الأخير مع تلاميذه. ولكن الرواية اليوحناوية تتميز: بدخول شخصية التلميذ الذي كان يسوع يحبه إلى مسرح الأحداث (ع. ٢٣-٢٥)، وبعدم فهم التلاميذ (ع. ٢٨-٢٩)، وبالعودة إلى ما أورده الإنجيلي في يو ١٢: ٥-٦ عن مسؤولية يهوذا عن الصندوق. وفي كل الأحوال، يبقى يسوع هو سيد الأحداث؛ فهو من يحدد هوية الخائن، وهو من يسمح له بل يأمره بتتيمم الأمر، لا يجعل منه خائناً بل ليؤكد أنه قادر على تغيير مجرى الأحداث، وإنه رب الأحداث والتاريخ.

أن يدخل في شراكة معه، ولا يمكنه بالتالي أن يدخل في مشروع الرب الخلاصي القائم على الموت والقيامة. ومن يقبل بمنطق التخلي الكامل والاتضاع الكامل، هو القادر على الوصول إلى مجد الله، ومن يرفض هذا المنطق يرفض كل المشروع الخلاصي الإلهي.

وفي المرحلة الثالثة من الحوار، أراد بطرس إعطاء رفضه لاتضاع الرب صورة إيجابية، بمحاولته تحويل الأمر من غسل أرجل يليق بعبد، إلى غسل كامل، ويمكن للمعلم أن يقوم به من دون أن يتنازل عن مركزه السيدي. ولكن هنا أيضاً لم يقبل يسوع، فمنطق الصليب هو الأول والأساسي الذي لا يمكن المساومة فيه (ع. ١٠-١١). فإن المؤمنين بكلمة الرب هم أطهار، ولكنهم بحاجة إلى الثبات في «عار الصليب»، العلامة الفضلى لمحبة الله للبشر الذين يقبلونه. وما الإشارة إلى خيانة يهوذا في نهاية هذا الحوار، إلا للتأكيد أن لا شيء يمكن أن يثني الرب عن محبته.

١٣: ١٢-١٧ شرح ثانٍ بعد الغسل، أخذ يسوع ثيابه من جديد، وأخذ مكانه على المائدة من جديد (ع. ١٢)، وتوجه بسؤال إلى تلاميذه، من دون أية إشارة إلى الحديث الذي جرى بينه وبين بطرس، ليعرف إن كانوا قد فهموا معنى ما صنع. ومن دون أن ينتظر جوابهم، يعطي هو المعنى ويستخلص الدروس. ففي حوار مع بطرس، أفهمهم ما عليهم أن يتلقوا من الرب؛ وفي خطابه التفسيري هذا يفهمهم ما عليهم أن يفعلوا بدورهم. ونقطة البداية هي «السيد» و«المعلم»، أي يسوع المسيح بصفته رباً، له السلطة التعليمية والخلاصية. وهو السيد والمعلم، فالعمل الذي قام به لا يمكن أن يحط من كرامته، أو أن ينفي عنه هذه السلطة، بل هو بالأحرى تعبير عنها. فإن كان الأعلى مرتبة يمارس سلطته بهذه الطريقة الوضيعة، فكما بالأحرى يجب على الأدنى مرتبة أن يتمثل به (ع. ١٤)؛ فلقد قام المسيح بما يجب على تلاميذه أن يفعلوه. إنه مثال تصرفهم، وما غسل الأرجل سوى تعبير رمزي عن الجوهر الذي يجب أن يحكم تصرفات التلميذ في حياته.

لقد أرسى الرب في عمله سلم قيم مناقضاً لقيم العالم، حيث المتسلط ينتظر أن يخدمه من هم أدنى منه. أما في المفهوم المسيحي فصاحب السلطة هو من يبذل نفسه «حَباً» بالآخرين (ع. ١). فإن تصرفات التلاميذ لا يمكن أن يحكمها إلا عطاء المسيح الكامل على الصليب، وهو ما يرمز إليه اتضاعه حتى غسل أقدامهم. وهنا يأتي قول يسوع في ع. ١٦ ليؤكد هذا المنطق، انطلاقاً من العلاقة التي تربط بينه هو المعلم والسيد وبين تلاميذه ورسله (را. مت ١٠: ٢٤). أما التطويبة التي تختتم الشرح بالتأكيد على أهمية الاتضاع (ع. ١٧) فتأتي لتذكر بأن المعرفة وحدها لن تضمن السعادة الأبدية، لأن على المعرفة أن تقترن بالعمل.

١٣: ١٨-٢٠ إعلان خيانة يهوذا مرة ثالثة يذكر القديس يوحنا خيانة التلميذ لمعلمه الرب (را. ع ٢، ١٠-١١). والآلام والصليب

لمشروعه القاتل، ممّا يعني بداية مرحلة الآلام؛ وثانيهما خروجه من دائرة التلاميذ خاصّة يسوع المسيح الأحباء. صار يهوذا في الظلمة: «وكان ليلاً».

١٣: ٣١-١٦: ٣٣ خطابا الوداع

١٣: ٣١-١٤: ٣١ خطاب الوداع الأول أعلن القديس يوحنا في ١٣: ٣١-٣٨ مسألة ذهاب الرب يسوع، وقدمها على أنها تمجيد، مع أنها في الوقت عينه انفصال عن التلاميذ؛ وفي ١٤: ٣-١٥ يوضح أنّ هذا الغياب ليس فراغاً، لأنّ حضوراً آخر سيعيد ربط الشراكة، وهذا ما سيعود إليه في ع. ٢٨.

فبعد المشهد الدرامي الذي افتتح فيه الجزء الثاني من الإنجيل، والذي درج المفسرون على تسميته «كتاب المجد» أو «كتاب الساعة»، نصل إلى سلسلة من الخطابات الوداعية التي يقدمها الإنجيلي بأسلوب حوار، ويمكن تقسيمها إلى خطابين يو ١٣: ٣١-١٤: ٣١: ١٥: ١-١٦: ٣٣؛ وصلاة (ف. ١٧) أراد الإنجيلي من خلالها أن يقدم شرحاً لمعنى الصليب وشروط استمرارية الوحي بعد الفصح.

وهذا الخطاب الأول واضح المعالم في بدايته وفي ختامه: «لا تضطرب قلوبكم» (ع. ١٠، ٢٧). ويرتبط بما سبقه بواسطة موضوع «ذهاب المسيح» (١٣: ٣٣؛ ١٤: ٢، ٤)، وعودته الذي يتردد أكثر من ١٤ مرة. ففي هذا الخطاب نرى من حكم عليه بالموت صلباً بناءً على إرادة المجمع (١١: ٤٧-٥٣)، وقبل الحكم لمجد الله (١٢: ٢٨)، يتكلم الآن ليعطي توصياته الأخيرة ومعنى ما يحدث.

وإنّ كنا قد اعتبرنا أن يو ١٣: ٣١-٣٨ يشكّل مقدّمة خطاب الوداع الأول، فالفصل ١٤ فينقسم إلى قسمين، يُشكّل أولهما قلب الموضوع (١٤: ١-٢٦)، وثانيهما ختامه (١٤: ٢٧-٣١). وفي حين تعود الأعداد ١-٢٦ إلى مسألة ذهاب المسيح؛ فإنّ الأعداد ١٢-١٧ تُعلن كيف أنّ هذا الذهاب هو زمن الملء الفصحي، ويبدأ في ع. ١٨ القسم الثاني المتمحور حول مجيء يسوع، وشرح هذا المجيء (ع. ١٨-٢٦). وفي الختام (ع. ٢٧-٣١) نقرأ خلاصة لاهوتية للخطاب، وكيفية عيشه حياتياً، قبل أن الختام بنقطة تهية نصوص الآلام (ع. ٣٠-٣١).

١٣: ٣١-٣٨ مقدمة الخطاب بعد خروج يهوذا، يبدأ يسوع بخطاب مخصّص لتلاميذه (١٣: ٣١-١٤: ٣١؛ ١٥: ١-١٦: ٣٣)، قبل صلاة الوداع الأخيرة (ف. ١٧). ويأتي الخطاب الأول في صيغة حوار يمتد من يو ١٣: ٣١ حتى يو ١٤: ٣١. ويتوحد تحت فكرة: ذهاب المسيح وعودته (١٣: ٣٣؛ ١٤: ٢، ٤)، ويتمحور حول: شرح معنى موت المسيح وقيامته.

وتشكل الأعداد ٣١-٣٨ جسراً يختتم نصّ غسل الأرجل من ناحية، ويُقدّم لخطابات الوداع من ناحية ثانية. وصحيح أنّ الإطار

وأمام خيانة التلميذ المسؤول، اضطرب يسوع بالروح، كما اضطرب أمام موت لعازر الحبيب (١١: ٣٣)، وأمام اقتراب موته هو بالذات (١٢: ٢٧). فإنّ خيانة يهوذا هي بمثابة موت من أراد يسوع أن تكون له حياة وافرة وبخاصة وأنّ الخائن هو من الأقربين. وصحيح أنّ تصرف يهوذا يعني أنّ الساعة قد أتت، وأنّ يسوع هو سيّد الأحداث، لكنّ خيانة أحد أعضاء الجماعة التي بناها الرب ورافقها، تعني بأنّها لا زالت ضعيفة معرضة لخطر الخيانة الدائم. وهذا ما جعل التلاميذ في حيرة (ع. ٢٢؛ ر. ١٤: ١٩)؛ فإنّ كان يسوع «يعلم كل شيء»، فإنّ التلاميذ «لا يعلمون»، و«لا يفهمون» (ع. ٢٢، ٢٨-٢٩)، ويبقون غارقين في الحيرة.

وفي مقابل هؤلاء التلاميذ الجهلة يظهر التلميذ الذي كان يسوع يحبه (ع. ٢٣) وللمرة الأولى بشكل مباشر (ر. ١: ٣٧، ٤٠). وبكونه متكناً إلى يسار الرب، كان لا بدّ من أن يكون الأقرب إلى صدر الرب المتكئ إلى يمينه. ولكن الأبعد من التفاصيل الواقعية يأتي المعنى الرمزي لعبارة «اتكأ على صدر يسوع» ليدلّ على العلاقة الحميمة بين التلميذ ومعلمه، على مثال العلاقة بين يسوع الابن الوحيد وأبيه (١: ١٨). ولا يوجد اسم لهذا التلميذ خارج علاقة المحبة التي تربطه بالرب، وكأنّ هذه العلاقة هي هويته الوحيدة. ويبدو بطرس في هذه المرحلة وكأنّه المتكلم باسم التلاميذ الحائرين الباحثين عن معنى لما يحصل (ع. ٢٤-٢٥)، فإذا به يحتاج إلى هذا التلميذ لتوضيح الأمر، ويطلب منه ذلك بطريقة خفية سرّية. وإنّه الوسيط بين المسيح وأتباعه. ومنذ هذا الوقت يلاحظ القارئ أنّ بطرس وهذا التلميذ سيكونان دائماً في مقابل بعضهما بعضاً؛ فبطرس الأول بين التلاميذ، ولكنه ليس الأقرب إلى المعلم الرب، بل هو بحاجة إلى التلميذ الحبيب ليُدرك فكر المسيح. وللجواب على طلب التلميذ، يرد يسوع بالكلمة والحركة (ع. ٢٦) متمماً المزمور ١٠: ٤١، ومقدّماً لمن يخونه لقمة الاحترام والتقدير. وكلمة يسوع وعمله سيفتتحان مرحلة الآلام، وليس قرار يهوذا ومن وراءه.

وتناول يهوذا اللقمة من يد الرب، ومع أنّ القديس يوحنا تجنّب استعمال كلمة «الخبز» وعلى الرغم من إغفاله الإفخارستية في سرده للعشاء الأخير، فإنّ عشاء الرب هو صدّي لخطاب خبز الحياة في يوحنا ٦: ٥١-٥٨، ولروايات الإزائين حول العشاء الإفخارستي (ر. ١٤: ٢٢؛ مت ٢٦: ٢٦؛ لو ٢٢: ١٩؛ ١ كو ١١: ٢٣). فإنّ الحقيقة واضحة وهي أن: يهوذا تناول دينونة عندما تناول محبة الله الفائقة له وبادلها بالخيانة العظمى. ويبقى موقف الخيانة هذا غير مفهوم في جماعة التلاميذ (ع. ٢٨-٢٩)، فمن غير المعقول في نظرهم أن يكون المسؤول المالي خائناً، فأرادوا أن يصدّقوا، على الرغم من كلّ الإشارات، بأنّه لا يتصرّف إلا بداعي محبة الفقراء. فخرج يهوذا (ع. ٣٠)، وفي خروجه بُعدان أولهما تنميمة

دوره الأُرَضي بموته على الصليب، وبقِيامته. فـ«ابن الإنسان» هو لقب التنازل (٣: ١٣؛ ٦: ٦٢)، والارتقاع (٣: ١٤؛ ٨: ٢٨؛ ١٢: ٣٢)، والتمجيد (١٢: ٢٣؛ ١٣: ٣١)؛ وهو شَرْحٌ لمعنى الصليب. فقبوله الصليب، مَجْدُ الابن أباه، وتمَجْدُ هو؛ فالصليب لم يسلبه إذاً مجده الإلهي، ويسوع باقٍ صورة الله الممجَّد حتى بعد حدث الصليب. ولذلك تبقى وصيَّته وصيَّة إلهيَّة يعطيها ليس فقط لتلاميذه قبل الفصح، بل لجماعة المؤمنين به بعد موته وعودته إلى الآب. فإنَّ الوقت القليل الباقي هو وقت رسالته الأُرَضيَّة، ولكنَّه أيضًا الوقت القصير الذي على التلميذ أن يمضيه في غياب الرب، قبل لقائه الأبدي معه، في حين يتحوَّل هذا الوقت إلى وقت الانفصال الأبدي عن الذين لا يؤمنون (را. ٧: ٣٣-٣٤). ووصيَّته الوحيدة لملء هذا الوقت هي «المحبَّة المتبادلة» على مثال ما فعل هو بالذات، وهنا يكمن الجديد الذي يأتي به. فإنَّ العطاء الكامل الذي أرساه المسيح هو شرط المحبَّة في هذه الوصيَّة، وبذلك يتحوَّل التلاميذ إلى شهادة حيَّة له.

وقال يسوع بعد ذلك «أنا ذاهب» (ع. ٣٣)، فسأله بطرس «إلى أين تذهب؟» (ع. ٣٦) فظهر بهذا السؤال كاليهود، إذ لم يفهم معنى «ذهاب» الرب، والذي يعنى موته وعودته إلى الآب (٧: ٣٥-٣٦: ٨: ٢٢).

ويأتي جواب يسوع بشكل غير مباشر، فيكرِّر إعلانه في ع. ٣٣، ليشير إلى أن طريقه هو طريق الصليب الذي اقترب، لذلك فإنَّ بطرس غير قادر على إكمال هذا الطريق الآن؛ ولكنَّه هو وكل تلميذ سيتبعون الطريق عينه، فطريق الصليب هو طريق التلاميذ بعد الفصح (را. ١٣: ٧). ولكنَّ بطرس لم يفهم! لقد بقي على المستوى الزمني، فبقي بالتالي غارقاً في حزنه على فراق المعلم، حتى إنه يعلن استعداداه للموت من أجله. ولكنَّ الحقيقة صعبة، لأنَّ الحماسة لا تعني الثبات، وما يطلبه الرب هو الثبات في ساعات التجربة أمام الصليب (ع. ٣٨).

ونقلت الأناجيل كلّها ذكرى نكران بطرس ليسوع (را. مت ٢٦: ٣١-٣٥؛ مر ١٤: ٢٧-٣١؛ لو ٢٢: ٣١-٣٤). فبعد إعلانه استعداداه الكامل للموت من أجله، وإعلان يسوع عن هذا النكران قبل صياح الديك. فهذا النكران برهان على خطورة عدم الفهم الصحيح لمعنى اتِّباع الرب المصلوب الممجَّد. أمَّا التلميذ الذي يتعلّق بالمسيح الأُرَضي، كما فعل بطرس فهو ينكر معنى موته والثمار الخلاصية التي نتجت عنه.

١٤-٢٦ موضوع الخطاب طَرَحَ موضوع موت يسوع القريب مسألة علاقته مع تلاميذه. وتساءل هؤلاء إن كان الصليب يعني نهاية هذه العلاقة ونهاية مسيرة التلمذة، بما أنَّ المعلم القائد قد اختفى، فتأتي هذه الآيات لتؤكد المعنى الإيجابي لذهاب المسيح (موته)،

تغيّر، قد تغيّر الزمان، والأشخاص، والموضوع الذي تحوَّل من خيانة يهوذا إلى «ذهاب» يسوع، ليطال موضوع «تمجيد ابن الإنسان» (ع. ٣١-٣٣)، ولكنَّ العددين ٣٤-٣٥ تعود إلى خبر غسل الأرجل؛ وتستند الأعداد ٣٦-٣٨ إلى حالة عدم فهم التلاميذ؛ كما يعود النصُّ بأكمله إلى موضوع المحبة الكاملة التي عاشها يسوع والتي يطلبها من تلاميذه.

وفي كل الأحوال، ومع أنَّ الأعداد ٣١-٣٨ تشكل جزءاً من الفصل ١٣ وموضوعه، فإنَّ من الممكن اعتبارها مقدمة لخطاب الوداع الأول (١٣: ٣١-١٤: ٣١).

ويسوع هو الآن في حالة جديدة تتميز بوجوده منفرداً مع تلاميذه. ويتضمَّن المقطع قسمين: الأول وصيَّة جديدة يعطيها يسوع للتلاميذ (ع. ٣١-٣٥)، والثاني حوار مع سمعان بطرس يتمحور حول موضوع إتِّباع المسيح بعد ذهابه (ع. ٣٦-٣٨).

فموت المسيح هو تمجيده (ع. ٣١-٣٢)، ولكنَّه تمجيدٌ لا يمكن أن ينفصل عن انفصال يسوع عن التلاميذ. فذهاب المسيح والمسافة التي ستبعده عنهم سيتركهم في حزنٍ ووحدة (ع. ٣٣)؛ ولكنَّ وصية المحبة المتبادلة هي طريق لتخطي غياب الرب. فقد انتهى إتِّباع يسوع الأُرَضي، والمطلوب بعد الآن اتِّباع من نوع آخر (ع. ٣٣-٣٨). ومن هذا المنطلق تشكل الأعداد ٣١-٣٨ مقدِّمة تتضمَّن كلَّ الأفكار والمواضيع التي ستطرحها خطابات الوداع: «التمجيد»، (را. ١٤: ١٣؛ ١٥: ٨؛ ١٦: ١٤؛ ١٧: ١، ٤، ٥، ١٠) و«الذهاب» (را. ١٤: ١٤، ٥، ٢٨؛ ١٥: ١٦؛ ١٦: ١٧، ١٠، ١٧) و«المحبة» (را. ١٤: ١٥، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٨، ٣١؛ ١٥: ٩، ١٢، ١٧؛ ١٧: ٢٣، ٢٤)، فتعلن من جهة الثمار المتأتية من موت المسيح، ومن ناحية ثانية الأزمة التي سيفتتحها غيابه عن تلاميذه في مرحلة ما بعد الفصح، وبالتالي ضرورة التفكير في معنى الاتِّباع.

ففي خروج يهوذا إعلاناً عن بناء جماعة جديدة، مؤلَّفة من التلاميذ الذين اختارهم الرب ودعاهم لاتباعه، على الرغم من عثرة الصليب والموت. ويدعوهم «أولادي» و«تلاميذي»، ممَّا يعني أنَّهم الذين ثبتوا في الأمانة له بعد موته وقيامته. ويتوجَّه النصُّ، ليس إلى التلاميذ قبل الآلام وحسب، بل إلى المسيحيين الذين يقرأون الإنجيل بعد القيامة، وكأنَّهم يسمعون يسوع الأُرَضي يحدثهم، وهو في الوقت عينه المسيح الممجَّد بعد قيامته وارتفاعه.

والحقيقة أنَّ يسوع يتكلَّم ليؤكد أنَّ «ابن الإنسان تمجَّد وتمجَّد الله فيه» (ع. ٣١) ويمجَّد الآن. ويتكرَّر فعل «مجَّد» خمس مرات في العددين ٣١-٣٢ ليشكِّل جوهر كلام الرب. فالمجد الذي يتكلَّم عنه يسوع، هو المجد الذي يكشفه الله عن ذاته للعالم (١: ١٤؛ ٢: ١١؛ ٨: ٥٤؛ ١١: ٤) معلناً له الخلاص الإلهي. وعلى هذا المستوى، لن يذكر القديس يوحنا لقب «ابن الإنسان» أبداً بعد الآن. فلقد انتهى

فبعد التذكير في ع. ٤، بموضوع ذهاب يسوع، يأتي سؤال توما في ع. ٥ ليظهر عدم فهم التلاميذ لما جاء في العديدين ٢-٣، مما يفسح المجال أمام الشرح الذي سيلي. وسأل توما عن الطريق، لكن يسوع لم يجب أين هو الطريق؛ بل جعل من نفسه الطريق؛ ولم يتكلم عن الطريق الذي سيسلكه هو، بل عن الطريق الذي يجدر بالتلاميذ أن يسلكوه. فإن الموضوع الأساسي الذي يطرحه ذهاب يسوع هو بالحقيقة علاقة التلاميذ بالله، وكيف سيصلون إليه في غياب يسوع.

وفي جواب يسوع «أنا الطريق والحق والحياة»، إعلان أن المهم هو معنى الحياة كمسيرة دائمة. فيسوع هو الطريق التي تؤدي إلى الحق أي إلى الله. فالمسيح يسوع السائر نحو الصليب هو إعلان حقيقة الله، مصدر الحياة. ووحده المؤمن بيسوع الذي هو الطريق والحق والحياة، توصله إلى معرفة الله منذ الآن، فبالمسيح المتجسد كشف الله عن نفسه (ع. ٧).

في ع. ٨، يأتي سؤال فيلبس مناسباً ليعطي يسوع شرحاً جديداً موسعاً حول الموضوع عينه. فلم يفهم فيلبس كيف يمكن للتلاميذ أن يروا يسوع الإنسان صورة الله الذي لا يرى فيوسع ع. ٩ ما جاء في ع. ٦-٧: «يسوع هو صورة الآب»، وهو معهم بشرياً منذ فترة طويلة، فما عليهم سوى أن يؤمنوا بأن لا فرق بينه وبين الآب، لأن الآب كشف عن نفسه في شخص المسيح المتجسد، ولم يعد من الضروري أن ينكشف بطريقة أخرى.

ويسوع هو صورة الآب «أنا في الآب والآب في» (ع. ١٠ أ)، وبالتالي فإن كلامه هو كلام الله، والله هو من يعمل فيه (ع. ١٠)، ولكن ذلك لا معنى له إلا بالإيمان. فمن يؤمن بالله، يؤمن بيسوع المسيح الذي يقول كلامه ويعمل أعماله (ع. ١١). فمعرفة الله إذا مرتبطة بالتجسد، ولن يتعرف البشر إلى الله إلا من خلال يسوع الناصري؛ الذي هو وحده الطريق المؤدي إلى الحياة لأنه الطريق إلى الحق. فموت يسوع ليس نهاية الطريق، لأن يسوع هو الطريق؛ وموته كشف حقيقة هويته، وهو ما يسمح لمن يؤمن به بأن يتبعه فيصل إلى الآب.

بعد البحث في موضوع طريق يسوع نحو الآب (ع. ٤-١١)، يأتي الكلام على وجود الجماعة المسيحية بعد ذهاب المسيح؛ فيعد يسوع بأنها ستقوم بأعمال عظيمة (ع. ١٢-١٤)، وبأن صلاتها ستكون مستجابة (ع. ١٣-١٤)، وبأن روح الحق يكون معها لتحقيق هذه الأعمال (ع. ١٦-١٧). ولكن لهذه الوعود شرطين هما الصلاة والمحبة (ع. ١٣-١٥). فربما ظن المؤمنون أن أعمال المسيح ستنتهي وتختفي بذهاب يسوع، فيؤكد يسوع أن جماعته ستكمل هذه الأعمال في الزمن الفصحى الآتي، وبأنها ستقوم بأعظم منها. فذهاب يسوع هو إذاً شرط ضروري لتحقيق ذلك (١٣: ٣٦-٣٧).

لأن في ذهابه افتتاحاً لطريق جديد لا يخضع لمنطق العالم وسلطته. فموته، يخلق يسوع علاقات دائمة مع تلاميذه لأنه في ذهابه يحضر نهائياً. وبعد أن كان في حوار مع بطرس، يتحول يسوع إلى الكلام مع التلاميذ أجمعين، ويدعوهم إلى عدم الاضطراب، بناءً على وعد بأنه عائد ليصطحبهم معه إلى العالم الإلهي (ع. ٢-٣). فإن الكلام عن ذهاب يسوع، وضع التلاميذ في حالة من الخوف (ع. ١) أمام قوة الشر التي تتعاضد حتى على معلمهم؛ واضطربوا بسبب شعورهم بالوحدة في عالم شرير ظالم وبسبب عدم صمودهم أمام الشر.

ويأتي جواب يسوع عن سؤالهم ليدلهم على كيفية الصمود. فبالإيمان يستطيع الإنسان أن يتخطى هذا الشعور. ورغم أن إيمانهم قد اهتز أمام حدث الصليب، فما المصلوب يدعوهم إلى إيمان ثابت بالله، لا يفصل عن إيمانهم بالمسيح الذي كشفه الله لهم.

وفي إعلانه عن الطرق التي سيأخذها إلى الله، والوعد المرتبط بذهابه، تأكيداً لشرعية الدعوة إلى ثبات الإيمان، فإن موت المسيح سيفتح طريقاً جديداً يتبع فيه التلاميذ معلمهم.

وكان الفكر البشري والمسيحي في القرن الأول يقسم العالم إلى قسمين: العالم الأرضي والعالم الإلهي، ويلعب فيه المسيح الممجد دور الوسيط بينهما. فعلى الصليب ترك المسيح هذا العالم الأرضي ليحضر مساكن لتلاميذه في العالم الإلهي (ع. ٢)، ثم في ع. ٣ يصف عودته إلى خاصته ليأخذهم معه إلى عالمه الإلهي. ولكن بخلاف ما نظن، فإن هذه العودة ليست عودته في نهاية الأزمنة فقط، بل هي عودته إلى تلاميذه بعد الفصح. فليس الموت إذاً نهاية الطريق في اتباع المسيح، بل هو مرحلة تفتح للتلميذ طريقاً آخر في اتباع المعلم القائم من الموت، بحيث تتحول عودة المسيح في نهاية الأزمنة إلى عودته إلى أحبائه، ليس كإنسان، بل كمسيح ممجد قائم من الموت. فإن عودته الممجة هي المعنى الحقيقي للصليب، لأنها علاقة اكتمال بين القائم من الموت وكل من يؤمن به. ويبقى ذهاب المسيح، أي موته، هو الشرط الضروري لعودته وتحقيق هذه الشراكة (ع. ٣). وفي الأعداد ٤-١٧ سيشرح القديس يوحنا كيف أن موت المسيح هو حدث مثمر، في حين يتوقف في الأعداد ١٨-٢٦ عند كيفية عودة المسيح الخلاصية.

ويتمحور هذا المقطع حول معنى ذهاب المسيح إلى الآب بحيث يوضح هذا الذهاب هوية يسوع الحق (ع. ٤-١١)، ويفتح المجال أمام ملء الزمن أي الزمن الفصحى (ع. ١٢-١٧). ويمكن أن نقسم الأعداد ٤-١١ إلى أربعة أقسام:

- ع. ٤-٥ مقدمة تتضمن موضوع الحوار مع توما.
- ع. ٦ جواب يسوع «أنا الطريق».
- ع. ٧-٩ تساؤل فيلبس وجواب يسوع.
- ع. ١٠-١١ وحدة يسوع مع الآب

الإعلان عن مجيء المسيح أدخل الاطمئنان إلى الجماعة: إنَّ الغائب سيحضر «إني آتي إليكم»، والفعل في صيغة الحاضر. فمجيء المسيح سيحصل الآن في القيامة، وكأنَّ القديس يوحنا يؤكد أن القيامة ومجيء المسيح هما حدث واحد.

فقد ظنَّ العالم أن الصليب هو نهاية حدث يسوع فخاف التلاميذ، ولكنَّ الخبرة الفصحية جعلتهم يرونه بطريقة جديدة، وأن يلتقوا المصلوب القائم من الموت (ع. ١٩) فيعرفوه حقاً. وهذه المعرفة لن تكون «في اليوم الأخير»، بل «بعد قليل»، «في ذلك اليوم»، أي بالقيامة، فيشاركونه علاقته الحميمة بالآب (ع. ٢٠). وشرط هذه الخبرة هي علاقة المحبة التي يحملها التلميذ للمسيح، من خلال قبوله وصاياه وكلامه. ويأتي سؤال يهوذا في ع. ٢٢ ليفسح في المجال أمام شرح جديد، وتعميق أكبر لمسألة الخبرة الفصحية (ع. ٢٢-٢٤) التي لا يمكن الوصول إليها إلا بالمحبة.

ويشكل جواب يسوع عن سؤال يهوذا، استعادة لما قاله في ع. ٢١ ولكن بطريقة أخرى، فيؤكد من جديد أن هذه الخبرة غير ممكنة إلا من خلال علاقة إيمان عميقة بالمسيح، وهو ما لا يمكن للإنسان الذي ينغلق على نعمته الرب أن يصله. فليس الانقسام إذاً بين الكنيسة والعالم، بل بين «من يحب ومن لا يحب». وهذه خبرة شخصية حرة، وقرار شخصي يأخذه كل إنسان.

ويهدف مجيء الرب الدائم إلى جعل الله الآب حاضراً دوماً في حياة المؤمنين، من خلال الكلمة (ع. ٢٤) وبقدرة الروح القدس (ع. ٢٥-٢٦). وصحيح أن كلام يسوع يبقى أساسياً وفاعلاً في زمن ما بعد القيامة، ولكن دور الروح القدس هو الرابط بين زمن يسوع الذي مرَّ، والزمن الفصحي الحاضر. وكما أن حضور يسوع كان حضوراً للآب بين البشر، فإن حضور الروح القدس هو حضور المسيح بين تلاميذه، فيعود إلى كلماته ليذكر بها ويشرحها. فإنَّه المعلم من خلال الجماعة، وكأنَّ هذه الجماعة المؤمنة التي تسمح للروح بأن يعلمها وأن يتكلم من خلالها، تكمل بذلك تعليم المسيح يسوع وتبشيره: إن تعليم الجماعة هو ثمرة الروح القدس.

١٤: ٢٧-٣١ خاتمة الخطاب يختتم الإنجيلي خطاب الوداع الأول في الأعداد ٢٧-٣١، وفيه يلخص مضمون الخطاب اللاهوتي، ويبرز الدور العملي الذي يتوجب على المؤمنين عيشه (ع. ٢٨-٢٩)، وينقل القارئ إلى حدث الآلام (ع. ٣٠-٣١).

وبعيداً عن أي أزمة إيمانية، يحمل ذهاب يسوع السلام إلى تلاميذه (ع. ٢٧)، والسلام في الكتاب المقدس هو ملء الحياة التي يعطيها الله للمؤمنين في ملء الأزمنة. فهذا السلام الإلهي هو «سلام يسوع» (ع. ٢٧) وقد تحقق بذهابه، لأنه نتيجة موت يسوع وتمجيده. وسلام يسوع ليس سلاماً مشابهاً للسلام الذي يرسيه العالم على السلطة والقوة والمنطق، مما يهدده بشكل دائم، بل هو سلام لا يمكن لأحد ولا

٣٨) لأنه شرط للإيمان بالمسيح القائم من الموت الذي سيعمل من خلال المؤمنين به. وهكذا يتمجد الآب بالابن؛ لأنَّ هذه الأعمال هي استكمال لكشف يسوع عن الآب لأنه هو العامل في المؤمنين. وهكذا نفهم استجابة الرب للصلاة المؤمنين. فهو المجد مع الآب، ويستجيب الصلاة التي يوجهها المؤمنون باسمه. فإنَّ الغائب عن الجماعة هو بالحقبة الإله الفاعل في زمن ما بعد القيامة (ع. ١٤). أما الشرط الثاني للأعمال العظيمة فهو محبة المسيح، أي حفظ وصاياه التي من خلالها يبقى حاضراً في العالم.

ولكن لا يكفي أن يتم المؤمنين الشروط للإتيان بالأعمال العظام، فالأمر يتطلب تدخل الله. وهنا يطمئن يسوع تلاميذه إلى أنه سيتم الشرط الإلهي فيرسل الروح القدس (ع. ١٦-١٧). وهذا هو القول الأول عن الروح القدس، وسنقرأ أربعة أقوال أخرى في يو ١٤: ٢٦؛ ١٥: ٢٦-٢٧؛ ١٦: ٧-١١، ١٣-١٥. وهذه الأقوال ترسم صورة الروح المعزي، الذي لا يظهر عند القديس يوحنا إلا في خطابات الوداع.

وفي ع. ١٦ نفهم أن إرسال الآب للروح يركز على مبادرة يسوع. فالروح إذاً هو عطية إلهية؛ إذ هو المعزي الآخر الذي سيأخذ مكان يسوع، ويكمل ما قام به. ولكن لا يمكن أن نفهم عمله إلا من خلال يسوع المسيح. فإنَّ الحضور الإلهي المتجسد هو حضور آني، ولكنَّ حضور الله الروحي، غير المرتبط بزمان ومكان، هو حضور دائم أبدي في كل زمان ومكان. فإنَّه «روح الحق» أي الله الذي يلاقي البشر الذين يقبلونه؛ ويمكث معهم بشكل دائم ويمكث فيهم (ع. ١٦، ١٧). ولكنَّ في ع. ١٧ ذكرنا الواقع العالم المنغلق على معرفة حقيقة الروح.

فإنَّ الله روح، ومن يغرق في الأمور المادية لا يمكنه أن يرتفع إلى مستوى حضوره المحب. أما بالنسبة إلى المؤمنين، فعلاقتهم بالرب تتجسد بالصلاة وبالمحبة، مدعومين بقوة حضور روح الله فيهم، وهذا الحضور الذي يجعل من الرب الغائب جسدياً، حاضراً وفاعلاً من خلاله.

وبعد أن ذكر الإنجيلي في مقدّمة النص (ع. ١-٣) موضوع الخطاب المتمثل بذهاب المسيح وعودته، ثم أكد في القسم الأول (ع. ٤-١٧) كيف أن الانفصال عن يسوع يفسح في المجال لمعرفة أعمق لهويته الحقيقية (ع. ٤-١١)، وأوضح الناحية الإيجابية لذهابه (ع. ١٢-١٧). ويبدأ في ع. ١٨ قسم آخر من الخطاب، يتمحور حول مجيء المسيح إلى خاصته، استناداً إلى إيمان المسيحيين الأوائل بالقيامة، وحلول الروح القدس، وعودة المسيح.

ففي ع. ١٨ انعكاس للألم الذي يشعر به التلاميذ أمام فراقهم مع يسوع. فبذهابه شعر التلاميذ بأنهم متروكون ووحيدون، ولكنَّ

يسوع لتلاميذه «قوموا ننطلق من ههنا» (١٤: ٣١) منهياً ما كان يقوله؛ يتوسع يوحنا في ١٥: ١ في موضوع جديد ينهيه في يوحنا ١٦: ٣٣، ليبدأ بعد ذلك في يو ١٧: ١ صلاته الوداعية.

ويبدأ يسوع في يو ١٥: ١ أطول حديث منفرد، يمتد حتى ١٦: ١٥؛ وكما تحول الحوار في يو ١٤ إلى مونولوج، تحول الموضوع في يو ١٥: ١-١٦: ١٥؛ وتغير الحوار من مسألة ذهاب يسوع إلى الأب ومجيئه الجديد إلى خاصته، إلى مسألة كنيسة يسوع وخلصها وكيفية عيشها الزمن الفصحي. والموضوع الأساسي في هذا الخطاب الوداعي الثاني، هو معنى الإيمان المسيحي وعيشه في هذا العالم الصعب.

ويتألف الخطاب من ثلاثة أقسام: يبحث القسم الأول في أسس الجماعة المسيحية وشريعتها (١٥: ١-١٧)، ويتوسع الثاني في موضوع كراهية العالم للتلاميذ (١٥: ١٨-١٦: ٤)، فيما يعود القسم الثالث إلى موضوع ذهاب يسوع، ليرسم الصورة الإسخاتولوجية لحياة التلاميذ (١٦: ٤-٣٣).

والخطاب الوداعي الثاني، هو في الحقيقة إعادة قراءة وتعميق للخطاب الوداعي الأول (١٣: ٣١-١٤: ٣١). فصورة الكرمة (١٥: ١-٨) تعميق لمعنى الثبات في يسوع (١٤: ٢٠)، ووعد باستجابة الصلاة لمجد الأب (١٥: ٧-٨، ١٦) واستعادة لما ذكر في يوحنا ١٤: ١٣-١٤؛ والمحبة التي تغطي في يوحنا ١٥: ٩-١٧ هي تكرار للوصية الجديدة (١٤: ٣٤-١٥)، والعمل بوصايا يسوع (١٤: ١٥-٢٤: ١٥)؛ وكذلك الأمر في موضوعات: الفرح (١٤: ٢٨؛ ١٥: ١١)، والعالم (١٤: ١٧-١٩، ٢٢-٢٧؛ ١٥: ١٨-١٦)، والروح القدس المعزي (١٤: ١٦-١٧، ٢٥-٢٦؛ ١٥: ١٨-١٦) وعلاقته بالفصح (١٥: ١٤-٢٦؛ ١٦: ٨-٢٤).

١٥: ١-١٧ الجماعة المسيحية: أساسها وشريعتها بعد حوارها مع تلاميذه (١٣: ٣١-١٤: ٣١)، وطلبه منهم الانطلاق، يبدأ يسوع خطابه المنفرد بطريقة مفاجئة ومن دون أي تحضير مسبق بقوله «أنا الكرمة الحقيقية». ففي العبارات المشابهة التي نجدها في إنجيل يوحنا، تأتي الإعلانات دائماً جواباً عن طلب أو تساؤل، ويسبقها «فقال لهم يسوع» (٦: ٣٥؛ ٨: ١٢)، أما هنا فيسوع هو من يبدأ الكلام.

ويمكن أن نقسم يو ١٥: ١-١٧ إلى ثلاثة أقسام: تتكلم الأعداد ١-٨ عن «الثبات في المسيح»، وتشرح الأعداد ٩-١١ أن الثبات في المسيح هو الثبات في محبته، فيما تذكر الأعداد ١٢-١٧ بمعنى ذلك. ويعرض القديس يوحنا في الأعداد ١-٨ موضوع الثبات في المسيح، فيشبهه بصورة الكرمة التي يعرفها قراؤه جيداً، في كتابهم المقدس، را. إش ٥: ١-٧؛ مز ٨٠: ٩-٢٠؛ هو ١٠: ١؛ إر ٢: ٢١؛ ٥: ١٠؛ ٦: ٩؛ ١٢: ١٠؛ حز ١٥: ٨؛ ١٧: ٣؛ ١٩: ١٠؛ ١٤-١٥. أو من خلال حياتهم الزراعية اليومية.

لشيء أن يهدده، وبالتالي لا سبب يدفع بالتلاميذ إلى القلق.

فغياب يسوع ليس سوى ذهاب يعقبه مجيء جديد (ع. ٢٨؛ را. ٥-١٧) يُرسي علاقات جديدة بين يسوع والمؤمنين به في زمن ما بعد القيامة. فيسوع يعلم جيداً أن تلاميذه لم يتوصلوا بعد إلى تمام الفهم، وإلى كمال الإيمان، في زمن الخوف والصعوبات الذي يعيشونه، ولذلك فهو يحثهم على الاتحاد به فلا يضعف إيمانهم. فإن موته ليس سوى عودة إلى الأب مصدر التجسد وغايته، وبالتالي هنيئاً لمن يعرف ذلك فإن له الفرح الكامل.

وليس الموت نهاية، ولا غياباً وزوالاً، بل عودة إلى مصدر الحياة وغايتها، وفي ذلك اكتمال لفرح المؤمنين به (ع. ٢٨). والإيمان لا يمكن أن يكون إلا فصيحاً. وعلم يسوع تلاميذه قبل الموت والقيامة، ولا بد من أن تبقى كلمته حاضرة في أذهانهم، ليولد الإيمان في حياتهم عند الصليب وحين القيامة (ع. ٢٩). وبعد هذا الشرح لأحداث الفصح، بدأ يسوع يتكلم عن آلامه بطريقة مباشرة (ع. ٣٠-٣١). فإن كان يسوع لم «يتكلم معهم» (ع. ٣٠)، فليس ذلك لأنه سيموت وينتهي، بل لأن على التلاميذ أن يفهموا جيداً المعنى المزدوج لموته:

أولاً، ليس موت يسوع مجرد نتيجة لصراعه مع السلطات في أورشليم، بل هو صراع كوني مع «رئيس هذا العالم»، أي مع قوى الشر التي تناهضه، فإنه صراع بين الله والعالم يصل إلى قمته عند الصليب. ولكن على الرغم من كل ذلك فإن يسوع ليس ضحية أسلمت إلى الشر، لأن لا قوة للشر عليه. ولم يكن الصليب نقطة الانكسار بل مركز النصر والغلبة ودينونة العالم (ع. ٣٠ ب).

ثانياً، يشكل الصليب قمة الإعلان عن محبة الابن للأب، ففيه تمت الرسالة الخلاصية التي لأجلها تجسد. فإن في خبرة الصليب دعوة إلى الأمانة للأب، والثبات في الإيمان، لأن موت الصليب طريق القيامة، وسبيل العودة إلى الأب. ومن هنا دعوة يسوع لتلاميذه: هيّا نواجه الصليب «هيّا ننطلق من ههنا» (ع. ٣١). وشكل هذا العدد صعوبة لشراح الإنجيل، فبعد أن قاله يسوع منهياً خطابه، يعود إلى متابعة تعاليمه ووصاياه طيلة ثلاثة فصول (ف. ١٥-١٧) «لينطلقوا» في يو ١٨: ١. تشكل دعوة يسوع إلى الانطلاق ختاماً لخطاب الوداع الأول (١٣: ٣١-١٤: ٣١)، وإعلاناً للخطاب الثاني (ف. ١٥-١٦) من جهة، ودعوة للتلاميذ إلى عدم الخوف من الآلام الآتية ومن قوة الأزمات المنتظرة من جهة أخرى. فإنها دعوة لكل المؤمنين إلى مواجهة التجارب بثقة، وإيمان بأن الرب هو السيد وهو المعين المخلص. **١٥: ١-١٦: ٣٣ الخطاب الوداعي الثاني** يشكل الفصلان الخامس عشر والسادس عشر، وحدة أدبية اتفق الجميع على عنوانها «الخطاب الوداعي الثاني». فبعد أن انتهى الخطاب الأول بدعوة

الملتزمة يعكس حضور الله المحبّ.

وتبدو الأعداد ٩-١١ وكأنّها نصّ انتقاليّ بين الأعداد ١-٨ والأعداد ١٢-١٧. ففيها يفسّر القديس يوحنا معنى الثبات في يسوع على أنه ثبات في محبّته من خلال حفظ وصاياه، للوصول إلى الفرح الكامل. فإنّ علاقة الآب الكرام بالابن الكرمة، هي علاقة محبة (ع. ٩). فالآب محبة وقد أظهر يسوع هويّته وجوهره في حياته: «كذلك أحببتكم أنا»، فالابن هو صورة الآب، وفي حياته الأرضية صارت محبة الله ملموسة ظاهرة.

وعلى أساس محبة الله، ومحبّة المسيح، يطلب يسوع من تلاميذه «الثبات في محبّته» أي الثبات في المحبة الإلهية، والأمانة للوصايا الإلهية، بل للوصية الإلهية الوحيدة: المحبة المتبادلة كما أحبهم هو (ع. ٩). فالتلاميذ مدعوون إلى اكتشاف أساس التزامهم الإيماني، وهو أساس وحيد يقوم على الطاعة للابن وللآب بحفظهم الوصايا (ع. ١٠)، كما حفظ يسوع وصية الآب أي كما التزم بمحبة الآب. وكما كلم الله الأنبياء من قبل فأعلن كلامه للناس (را. ع ١١: ١٦: ٤، ٦، ٢٥، ٣٣، ١٤: ٢٥؛ حز ٥: ١٣، ١٥، ١٧، ٦: ١٠؛ ١٧: ٢١، ٢٤... إلخ)، يعلن يسوع كلام الله للبشر: «كلمتكم بهذا» (ع. ١١). وكلماته الأخيرة هي: «أثبتوا في»؛ «وثبت كلامي فيكم»؛ «وأثبتوا في محبتي»؛ «وليثبت فرحي فيكم»، فهدف الرب هو فرح الإنسان، والفرح هو برهان على الخلاص ونتيجة الإيمان الحقيقي وانعكاس الرجاء لأنّه فيض الروح القدس، ونتيجة عيش شراكة المحبة.

فإنّ الثبات في المحبة هو عيش المحبة الملتزمة اليوم، من دون التطلع إلى الثواب الآتي، بل إلى كمال فرح المسيح الذي يثبت في المؤمن فيجعله يحيا الفرح الكامل.

المحبة نعم، ولكن كيف؟ فهذا ما تقدّمه لنا الأعداد ١٢-١٧. فإنّ المطلوب ليس محبة نظرية عقائدية، بل محبة عملية يومية متبادلة، على مثال ما عاش المسيح يسوع. وهي محبة دائمة طيلة الحياة، اليوم وغداً ودائماً «كما» فعل المسيح يسوع (ع. ١٣؛ را. رو ٨: ٥؛ أف ٥: ٢) الذي «وضع نفسه» على الصليب «لأجل أحبائه». فإنّ موت يسوع ليس سوى برهان على محبته اللامحدودة، ولكنّه في الوقت عينه مثال يحتذى. فالمؤمنون مدعوون لعيش قوة المحبة التي عاشها يسوع، على الرغم من صعوبة الحالات التي يمرّون بها، والتي يمكن أن تشكل خطراً على الحياة. فهل نتراجع؟ هل تحفّ محبتنا ويخفّ التزامنا الإيماني؟ فكما أن يسوع لم يتراجع، فعلى مثاله نحن مدعوون إلى الثبات في المحبة حتى الصليب!

والتلاميذ ليسوا «عبيداً» لشريعة ما، أو لإله خالق بعيد لا يعرفونه، إذ إنهم «أحباء» (ع. ١٣؛ را. ١١: ٣، ٥، ١١). فدعوتهم أن يعيشوا على مثال من أحبهم (ع. ١٤)، فيظهرون

ويتكلّم يسوع عن الكرمة والكرام والغصن، كصورة للعلاقة التي تربط بينه وبين الله والتلاميذ، كما يتكلّم عن الشبه الحيوي بين العلاقة التي تربط الأغصان بالكرمة وعلاقته بتلاميذه؛ وعن الشبه بين دور الكرام تجاه الأغصان المثمرة أو غير المثمرة، ودور الله الآب تجاه من يقبله أو يرفضه. ويبقى أنّ الأساس في كل ذلك هو دعوة يسوع: «أثبتوا في» (ع. ٤).

وفي استعماله لصورة الكرمة، لا يهتم يوحنا بتمثيلها للشعب العاق، ولا يركّز على التعب الذي وضعه الله لينميها، كما هو الحال في نصوص العهد القديم (إش ٥: ١-٧)؛ فالكرمة هنا هي يسوع وتلاميذه المدعوون ليحملوا ثماراً «أكثر» (ع. ٢، ٥، ٨)؛ وهو «الكرمة الحقيقية» لأنّه الآتي من الله «الحق»، وهو حضور الله الوحيد لأنّه صورته.

والله هو مالك الكرمة، إذ إنّه الكرام. وفي كلامه هذا تأكيد على العلاقة الحميمة التي تربط يسوع بأبيه؛ أما من جهة التلاميذ، فمع إنهم جزء من الكرمة، إلا أنهم مختلفون عنها. فإنّ في الصورة بعداً كسبياً واضحاً. فيظهر ع. ٢ أساس المسألة المتمثلة بأمانة المؤمن لربه، وبالتحديد أمانة التلاميذ وثباتهم بيسوع وبكلامه، وهذه هي الثمار المطلوبة (ع. ٣). فالؤمن نقيّ «بسبب الكلام»، وهذا شرط للشاركة مع يسوع وللوصول إلى الله. ووحده كلام يسوع قادر على تنقية الإنسان، لأنّه يكشف حقيقة الله ويضع من يؤمن به في تواصل معه. فهل يعود هذا الإنسان إلى الكرمة القديمة التي لم توصله إلا إلى الموت؟ فلقد جرب الإنسان شجرة معرفة الخير والشر فنال الشقاء؛ وجرب الاتكال على نفسه فصار كالغنب المرّ؛ واتكل على عباداته وطقوسه، وحاول الاكتفاء بظواهر الطقوس والصلوات متناسياً أنّ الله يريد النوايا وبواطن الإنسان فمات.

وها يسوع يعلن من جديد: «أنا هو الكرمة الحقيقية»، «أثبتوا في» فتحبوا وتعطوا ثماراً؛ «أبي الكرام»، ينقي الأغصان؛ وأنتم أنقياء بكلامي. فالآب ينقي، والابن ينقي وما على الإنسان المؤمن إلا أن يقبل التنقية فيعطى «ثماراً أكثر». والثمار في العهد الجديد هي ثمار الإنجيل، أعمال المحبة (ع. ٩-١٧)، وهي نتيجة الثبات في المسيح. فوعد الرب صادق، يؤكّد أنّ المؤمنين قادرين بقدرة الله على إعطاء الثمر الكثير، وما المطلوب سوى الثقة وتصديق الوعد، لأن هذه الثمار غير مستطاعة بقدرة الإنسان وحده (ع. ٥). وفي كلّ الأحوال يشكّل الصليب دينونة للإنسان، لأنّه مكان الخيار بين الإيمان ورفض الإيمان، فمن رفض الرب المصلوب الممجّد فقد اختار عدم الإيمان وبالتالي عدم الثبات في يسوع، وهذه هي الدينونة (را. ع. ٦-٧: ٣؛ ١٨-١٩: ٥؛ ٢٤-٢٧: ٨؛ ٥١: ١١؛ ٢٥-٢٦: ١٤؛ ١٨-٢٤). وفي المقابل، من يثبت بالكرمة الحقيقية التي هي المسيح، بالأمانة لكلامه وبالصلاة (ع. ٧؛ را. ١٤: ١٣-١٤)، يمجّد الله الآب لأنّه بحياته

(٢٦-٢٧) يسمح للمؤمنين بعيش الشهادة، على الرغم من الصعوبات الكبيرة (١٦: ١-١٤).

ويرسم يسوع في كلامه صورةً لوضع التلاميذ في العالم بعد الفصح. فإنها صورة الخبرة التي عاشها المسيحيون بعد موت يسوع وقيامته، وقد نقلتها كل النصوص المسيحية الأولى (را. ١ تس ٢: ١٤-١٦؛ ٢ كو ١١: ٢٣-٣٣؛ مت ٢٤: ٩-١٤؛ مر ٩: ١٣-١٣؛ لو ٢١: ١٢-١٢؛ ١٢: ١-١٢... إلخ). فكراهية العالم لتلاميذ يسوع شيء مؤكد، وقد عانت منه كل الجماعات المسيحية الأولى، وتعاني منه اليوم. ولكن ما معنى هذه الحالة؟ وكيف يجدر بالمؤمنين النظر إليها؟ فهذا ما يحاول هذا النص الانكباب عليه، لإعلان أنه أمر طبيعي لأنه تجسيدٌ لمناهضة العالم لكشف الله عن ذاته، وإنه الصراع الدائم بين النور والظلمة.

ويؤكد يسوع في ع. ١٨ أن التلاميذ في زمن ما بعد الفصح، هم ضحية كراهية العالم. فإنها حالة أكيدة مُعاشة ولا إمكانية لتغييرها. فكراهية العالم للتلاميذ ليست كراهية لشخصهم، بل لاتباعهم يسوع. وهذا ما على المسيحيين معرفته («اعلموا»)، وليفهموا بأن هذه الكراهية هي لاهوتية وليست اجتماعية أو بشرية.

فبغض العالم للكنيسة، هو علامة على وحدة هذه الكنيسة بمعلمها. فمصير يسوع هو مصير خاصته أيضاً. ومن هنا لا يمكن للمسيحيين أن يفهموا ما يحدث لهم إلا في ضوء مصير يسوع. ويتكلم الرب عن زمن التلاميذ الآتي، المختلف عن زمنه الماضي، ولكنه يجعل من حياته الزمنية التاريخية أساساً لما ستحياه الكنيسة. فالكراهية التي واجهها في الماضي هي التي تحكم ما يحياه المؤمنون في الحاضر (ع. ١٨).

فقد تم الانفصال تماماً بين التلاميذ والعالم. فلو كان التلاميذ من أتباع قيم العالم، البعيدة عن الله، لكانوا على توافق وسلام معه، ولكن الحال أن بين الكنيسة والعالم تناقضاً تاماً (ع. ١٩). وما يُطلب من المؤمنين إذاً، هو أن يفهموا حالتهم الحاضرة بالعودة إلى الكلمة التي قالها الرب في الماضي (١٣: ١٦)، وبتطبيقها في ظروف حياتهم الحاضرة. وسيواجه المسيحيون في بشارتهم إمكانيتين، فإما الاضطهاد، أو قبول الكرازة (ع. ٢٠)؛ ولكن إن واجهوا الاضطهاد والرفض، فليس ذلك بسبب أعمالهم، بل بسبب «اسم يسوع» رسول الآب، أي بسبب رسالته (ع. ٢١).

وصحيح أن العالم يُظهر كراهية للتلاميذ، ولكن جوهر هذا البغض يكمن في رفضهم ليسوع ولإعلانه عن حقيقة الله ومشروعه الخلاصي. ففي الأعداد ٢٢-٢٥ يتعمق القديس يوحنا في لاهوت رسالة المسيح يسوع فيغيب التلاميذ عنها. ووضَعَ مجيء يسوع إلى الأرض البشر أمام حضور الله، وبالتالي أمام إمكانية رفضه، وبالتالي أمام الخطيئة (ع. ٢٢). فمجيء يسوع وكلامه، هما

محبّتهم له من خلال التزامهم بالمحبة التي يطلبها منهم. وهذا الالتزام ليس طاعة عمياء على مثال طاعة العبيد (ع. ١٥)، فقد كشف يسوع كل شيء لتلاميذه، فصاروا عارفين بكل المشروع الإلهي الخلاصي، وصاروا شركاء يسوع في هذا المشروع. ولكن الله هو صاحب المبادرة في إعطاء الإنسان كل الخيرات السماوية «اخترتكم لتذهبوا»؛ وهو المبادر إلى إشراك الإنسان في مشروعه «ليدوم» الثمر. فإن الاختيار لا يهدف إلى جعل المختارين جماعة منغلقة، ملتصقة بعضها ببعض ومنفصلة عن الآخرين، بل يهدف إلى إرسالهم ليتّموا مهمة خلاصية، ويستطيعون إتمامها بالصلاة، والثبات بالمسيح (ع. ١٦)، والمحبة المتبادلة (ع. ١٧).

ويدل التشديد على وصية المحبة الأخوية في خطاب الوداع، على أن وحدة الجماعة، التي يكتب إليها يوحنا، كانت تعاني من التمزقات. وتعطينا الرسائل اليوحناوية القريبة من الإنجيل الرابع بعض المعلومات بهذا الشأن حيث يبدو أنه قد ظهر بين المؤمنين من ينفي حقيقة التجسد. فقد نفى هؤلاء الكاذبون أن يسوع هو المسيح (١ يو ٢: ٢٢) أو أن يسوع أتى بالجسد (١ يو ٤: ٢). ومن الصعب أن نعرف بالتحديد من هم هؤلاء الذين وضعوا الجماعة في وضع صعب كهذا، ولكن الأكيد أن الإنجيلي رأى ضرورة المحافظة على الوحدة التي ستتحقق في الأجيال المتعاقبة كما تؤكد صلاة يسوع في بستان الزيتون (ف. ١٧)، وستتم في كل الجماعات المشتتة في العالم كله على ما جاء في مثل الراعي الصالح (١٠: ١٦).

والمحبة المتبادلة تحفظ وحدة الجماعة؛ والمحبة، التي دعي التلاميذ إلى عيشها بعضهم مع بعض، تجد مصدرها في المسيح مثال المؤمنين به. فإن لم يثبت المؤمن في المسيح، لا يمكن أن يحب على مثاله (١٥: ٤-٥، ٩). وعلى محبة المسيحيين أن تعكس محبة الابن للآب، وستكون وصية المحبة هي الوصية الجديدة التي سيعطيها يسوع، والتي تلخص كل الوصايا الأخرى، والتي بها يُعرف تلاميذ يسوع (١٣: ٣٤-٣٥).

١٥: ١٨-١٦: ٤ أ ثبات في عالم البغض والكراهية في ع. ١٨ انتقال مفاجئ من القسم الأول من الخطاب (ع. ١-١٧)، الذي تمحور حول حياة الجماعة المسيحية الداخلية التي يجب أن تسودها المحبة المتبادلة المرتكزة على محبة المسيح، إلى القسم الثاني منه (١٥: ١٨-١٦: ٤) حيث الموضوع الأساسي هو علاقة هذه الجماعة بالعالم الذي يبغض المسيح ويبغض تلاميذه. فيتوسّع القديس يوحنا في هذا القسم بلاهوت الكنيسة الملتزمة حول ربها يسوع، وكيفية تعاطي العالم معها: رفض وبغض وعنف.

فبعد عرض الحالة الصعبة التي يحياها المؤمنون في العالم (ع. ١٨-٢١)، تحاول الأعداد ٢٢-٢٥ الإجابة عن التساؤل حول سبب هذه الكراهية، والتأكد من أن حضور الروح القدس المعزي (ع. ٢٦).

حول موضوع ذهاب يسوع (ع. ٤-٣٣). فيتناول القسم الثالث وجهة نظر التلاميذ وموقفهم من غياب يسوع (حزنهم ع. ٦، ٢٠-٢٤، وضيقهم ع. ٣٣) قبل أن يعطي علاجاً مزدوجاً لهذه الحالة. وفي هذا يشير يوحنا لمجيء الروح القدس كعلاج (ع. ٤-١٥) يطال العالم (ع. ٨-١١) والجماعة المؤمنة (ع. ١٢-١٤)؛ ويتأثير غياب يسوع وحضور الروح القدس على الكنيسة (ع. ١٦-٣٣) الذي سينقلها من الحزن إلى الفرح (ع. ١٦-٢٤) ومن عدم الفهم إلى الفهم (ع. ٢٥-٣٣). ويتألف هذا القسم من مقطعين، يتمحور الأول حول عمل الروح القدس في جماعة المؤمنين (ع. ٤-١٥)؛ والثاني حول وضع التلاميذ بعد الفصح (ع. ١٦-٣٣) وذلك على مستويين: انتقالهم من الحزن إلى الفرح (ع. ١٦-٢٤) وفهمهم وإيمانهم (ع. ٢٥-٣٣).

والأعداد ١-٤ هي تمة القسم الثاني من الخطاب (١٥: ١٨-١٦: ٤). ففي قول يسوع «كَلِّمْتُكُمْ بِهَذَا لِكَيْ لَا تَعْزُبُوا»، إشارة لما ورد في يوحنا ١٥: ٢٥-١٨. إذ يوجه يسوع الأنظار والأفكار نحو زمن ما بعد الفصح، وإلى كل الصعوبات التي عاشتها الجماعة من كراهية (١٥: ١٨-١٩)، واضطهاد (١٥: ٢٠)، وفشل الرسالة أحياناً (١٥: ٢١) والتي يمكن أن تشككهم في إيمانهم، وربما أدت إلى ضلال وانفصال بعضهم عن الجماعة الكنسية. ويحذر يسوع أولاً من الأخطار الآتية، حتى لا يتفاجأ المؤمنون بل يتحضرون للآتي؛ ثم يعلن مجيء معز آخر يكمل تعليمهم بعد ذهابه.

وتجسدت هذه الكراهية فعلاً، بعد ذهاب يسوع، في طرد المسيحيين من أصل يهودي من المجمع، ومجابهتهم خطر القتل (ع. ٢). فالساعة آتية لا محالة، وهي ساعة التلاميذ، المشابهة لساعة المعلم الرب، ساعة الآلام والموت والمجد (١٥: ٢٠). ولكن هذا الاضطهاد في اعتقاد الفاعلين ليس سوى تنميط لإرادة الله، وتطهير لعبادته. فإنّه اضطهاد لا هوّتي يشحن الإيمان المسيحي ونظرتّه إلى الله المتجسد بيسوع المسيح. فالاضطهاد ليس إذاً لسبب شخصي، ولا لسبب اجتماعي ما؛ بل لأن الكارهين القاتلين لا يعرفون الله الحق، ويرفضون طريقته بالكشف عن ذاته. واكتفوا بمعرفتهم وانغلقوا على كل وحي جديد. ويدور الصراع بين التلاميذ والعالم حول حقيقة معرفة شخص الله (ع. ٣: ١٥: ٢١)، والمؤمنون مدعوون إلى فهم هذه الأسباب، وإلى انتظار ما يمكن أن ينتج عنها، وبالتالي إلى الثبات في إيمانهم وفي وصية الرب، من خلال التذكّر الدائم لكلامه (ع. ٤: ١٤).

١٦: ٤-٣٣ عمل الروح القدس في جماعة المؤمنين في هذا المقطع موضوع واحد هو عمل الروح القدس في التلاميذ. فقد شكّل غياب يسوع عن تلاميذه مشكلة كبرى سببت الحزن والتساؤلات عن المستقبل (ع. ٤-٧)، ولكن يسوع يعطي الجواب الشافي،

إذاً شرط لظهور الخطيئة، وهو أيضاً تأكيد على أنّه لا «عذر» لمن يرفضه (ع. ٢٢). فالخطيئة ليست مجرد خرق لشريعة ما، بل هي رفض لحقيقة الله، التي أعلنها يسوع. وهذه المقاومة بإصرار وعناد وكراهية لكل ما أعلنه يسوع، هي الخطيئة بالذات، وهي صفة «العالم» الذي يرفضه يسوع، يرفض الله بالذات (ع. ٢٣).

فقد أظهر يسوع الله، ليس بكلامه فقط، بل بأعماله أيضاً (ع. ٢٤)، (١٢: ٤؛ ٢٩: ٦؛ ٣٤: ٤). وكشف عن أبيه بالتعليم، كما بالشفاءات والآيات العظام، فكان يفترض أن يفهم العالم حقيقة الله من خلاله، ولكن العالم أبغضه من «دون سبب» (ع. ٢٥) فتمتت الكتب (مز ٣٥: ١٩؛ ٦٩: ٥) وبأن البشر يناقضون ذواتهم، ويرتكبون الخطيئة من دون سبب. فقد اتهم اليهود يسوع بعدم طاعة الشريعة، وأبغضوه، واضطهدوه وقتلوه بعكس ما تطلبه الشريعة! وجعلوا من أنفسهم «العالم» محب الخطيئة!

وأمام مقاومة رسالة المسيح، ورفض العالم لكلامه وأعماله ولكل من يتبعه، يرسل يسوع الروح القدس.

وهذا هو القول الثالث عن الروح (ع. ٢٦-٢٧؛ ١٤: ١٦-١٧، ١٧-٢٥). ويأتي دور الروح المعزّي في الزمن الحاضر المفتوح، فهو الفاعل في الجماعة بعد الفصح؛ إذ يخلق حضوره زمناً مختلفاً عن زمن يسوع التاريخي. ففي يو ١٤: ١٦، ٢٦ الآب هو الذي يرسل الروح القدس، أما هنا فالابن هو من يرسله، ممّا يشدّد تماماً على الوحدة بين الآب والابن. فكما خرج الابن من الآب (١٣: ٣؛ ١٦: ٢٧، ٢٨، ٣٠؛ ١٧: ٨)، فكان المخوّل أن يكشف الآب للعالم؛ كذلك الروح المرسل من الابن والخارج من الآب، هو المخوّل أن يكشف الآب والابن في قلب الجماعة الفصحية. ويقوم دور الروح القدس بعد ذهاب يسوع، على التذكير في زمن الكنيسة بالشهادة التي أعطيت ليسوع في أثناء حياته، وتعليم المؤمنين معنى هذه الشهادة. ولكن إضافة إلى شهادة الروح، هناك أيضاً شهادة التلاميذ. فهم ليسوا مجرد أداة للروح، بل هم فاعلون حقيقيون، يشهدون للمسيح نظراً إلى علاقتهم الثابتة المستمرة معه «منذ الابتداء». فعلاقة التلاميذ مع يسوع ليست علاقة ماضية بل هي علاقة تحكم الحياة الحاضرة. والروح يذكرهم بأن شهادتهم بعد الفصح هي عطية مستطاعة بقدرة الروح القدس، وأن رسالتهم القائمة على التذكير برسالة يسوع وتفسيرها ممكنة بقوة الروح.

ويستكمل القديس يوحنا خطاب يسوع الوداعي الثالث في يوحنا ١٦: ١-٤ أليعرض كيفية عيش ما طلبه يسوع عملياً، في خضم كراهية العالم والخطر الذي يسببه للمؤمنين. ويشكل الفصلان الخامس عشر والسادس عشر، كما قلنا سابقاً، وحدة أدبية تؤلف الخطاب الوداعي الثاني. فنجد في الفصل السادس عشر استكمالاً للقسم الثاني من الخطاب (ع. ١-٤)، وكامل القسم الثالث المتمحور

بل العالم . فدينونة العالم الخاطئ هي الآن ، في زمن الروح القدس ، ولا ضرورة لانتظار نهاية العالم . فموت يسوع صار بإمكان الروح أن يعلن ما هي الخطيئة ، وما هو البرّ ، وما هي الدينونة . وقد أرسل يسوع الروح القدس ، ليكشف عدم إيمان العالم ، ويعلن بالتالي أن خطيئته هي الابتعاد عن الله ومقاومته (ع . ٩) .

والبرّ هو إظهار البراءة في دعوى ملتبسة . فقد ظنّ العالم أن يسوع غير بار فحكم عليه ، أمّا الروح فيظهر كيف أن موت يسوع ليس حكماً على غير بار ، بل عودة البار إلى الآب : فإنّ موته هو اعتراف بالوهيئة (ع . ١٠) . وبهذا أعلن الله برّه ، وفي ذلك حكم على العالم وعلى خطيئته (ع . ١١) . فإنّ ظلم «رئيس هذا العالم» هو ما دانه عند ارتفاع يسوع ، وهو ما يدينه في الحاضر الذي تعيشه الكنيسة . وستبقى الجماعة في مواجهة دائمة مع قوى الشر في هذا العالم ؛ ولكنّ الروح حاضر ، يقوّي المؤمنين بالحق لئلاّ ييأسوا أو ينجرّوا مع تيارات العالم التي تجهل حقيقة يسوع ، ويدين شرّ الذين يرفضونه . فإنّ الحاضر هو زمن انتصار الله على الشر .

ولنا في هذه الأعداد القول الخامس والأخير حول الروح القدس (١٤ : ١٤ ، ١٦-١٧ ؛ ١٤ : ٢٦ ؛ ١٦ : ٧-١١ ، ١٣-١٥) . وفي ع . ١٢ مقدّمة حول وضع التلاميذ غير القادرين «الآن» ، أي قبل الآلام والقيامة ، وأن «يحتملوا» بمعنى أن «يفهموا» ما سيقوله يسوع عن مستقبلهم . ففي زمن ما قبل القيامة والمجد ، لم يكن كشف الله عن ذاته قد اكتمل ، وبالتالي لا يمكن للتلاميذ أن يستوعبوا «أموراً كثيرة» . وهنا يأتي القول الأخير حول الروح القدس الذي سيأتي بعد القيامة . فإنّه «روح الحق» (را . ١٤ : ١٧ ؛ ١٥ : ٢٦) ، تماماً كما أن المسيح «هو الحق» (١٤ : ٦) وبالتالي إنّهُ القادر على إعلان الحقيقة الإلهية ، تكلمة لرسالة يسوع . ويكمن دوره في زمن ما بعد الفصح ، في إرشاد المؤمنين «إلى الحق» (را . ١٤ : ٦) ، فهو بالتالي من سيعمّق ما أعلنه يسوع الحق . فدوره هو استمرارية وتأويل ما كشفه يسوع . فالروح مرسل من قبل الابن ، يتكلّم بما يسمع ، تماماً كما أنّ الابن رسول الآب تكلم بما سمع من الآب (را . ١٩ : ٥ ، ٣٠ : ٧ ؛ ١٧ ، ٢٨ : ٨ ؛ ٢٨ : ٤٢ ؛ ١٢ : ٤٩ ؛ ١٤ : ١٠) . ولكنّه أيضاً «يُخبركم بأُمور آتية» ، فعمل الروح ليس في أن يشرح للتلاميذ ما يعرفون وحسب ، بل أن يكشف لهم أيضاً كيفية حضور المسيح في الجماعة ، مع أنه «عند الآب» . ووحده الروح القدس يستطيع أن يكشف لهم استمرارية رسالة يسوع المسيح الذي عاد إلى الآب . فبعيداً عن دور الإنبياء بما سيحصل من أمور ، يقوم عمل الروح على إخبار المؤمنين بأن المسيح يسكن حاضريهم ومستقبلهم ، ولو لم يروه بأعين الجسد ، ولم يلمسوه بأيديهم ، ولم يسمعوهم بأذانهم .

ويأتي عدد ١٤ ليوّضح العلاقة بين الروح القدس والمسيح بشكل أكبر . فكما أن المسيح ، بكشفه هوية الآب للتلاميذ قد مجّده ؛ كذلك

واعداً بالمعزي على هذه الأرض فيبيّك العالم (ع . ٨-١١) ويرشد الجماعة ويعلمها (ع . ١٢-١٥) .

في ع . ٤ ب يعود يسوع إلى إثارة موضوع ذهابه من خلال قوله «كُنْتُ مَعَكُمْ» ، ممّا يتسبّب بردة فعل من الصمت والحزن عند التلاميذ (ع . ٥ ب-٦) ، يجيب عنها يسوع بإظهار النتائج الإيجابية لموته . وينهي حديثه المنفرد ، ويقطع تسلسل أفكاره وكلامه ممّا ينتظر التلاميذ في الزمن الفصحي (١٥ : ١-١٦ : ٤ أ) ، ليعود إلى موضوع ذهابه لا ليعطي معنى لهذا الذهاب ، كما كان الحال في الخطاب الوداعي الأول ، بل ليتوقّف عند ما يترتّب على ذلك في حياة التلاميذ . وفي ع . ٤ تغيير في الزمن وانتقال من الوقت الذي كان فيه يسوع مع تلاميذه «مَعَكُمْ» ، يسهر عليهم (را . ١٧ : ١١-١٢ : ١٨ : ٩) ، إلى زمن ذهابه «الآن» (ع . ٥) الذي يخلق وضعاً جديداً . فإنّه ذاهب «إلى الذي أرسلني» ، فحضوره إذاً كان كرّسول ، وما غيابه المنتظر سوى عودة إلى المرسل . وقد حان وقت ختام العلاقة المباشرة الحسية بين يسوع وتلاميذه ، ممّا يستدعي تعليمًا خاصاً يشرح المستجدّات الآتية (١٢ : ٢٣ ؛ ١٣ : ١ ؛ ١٧ : ١) . وأمام هذا الوضع المستجد ، يجد التلاميذ أنفسهم في حالة عدم فهم ، غير قادرين على سؤاله (ع . ٦) بسبب استغراقهم في الحزن لهذا الغياب القريب ، ولما سيواجهونه في العالم بعد ذهابه (را . ١٥ : ١٨-١٦ : ٤) .

فإنّ فهم التلاميذ الحقيقة ، يصبح بإمكانهم السيطرة على خوفهم والانتقال إلى الفرح . والحقيقة هي أنّ موت المسيح ليس فشلاً ، ولا مصيبة بل خيرٌ ، لأنّه عودة يسوع إلى أبيه . وهو الرسول يعود إلى من أرسله ليُرسل المعزي إلى تلاميذه (ع . ٧) . فوحده ذهاب يسوع يسمح إذاً بمجيء الروح القدس ، القادر على تتميم كشف الله عن ذاته ، ويسمح بأن يبقى المسيح حاضراً بين خاصّته ، لأنّ الروح هو رسول الابن وحضوره ، كما كان الابن رسول الآب وحضوره . وإن كنا نريد التمسك بيسوع ، فلنسمح للروح القدس بأن يرشدنا إليه . ولكن كيف يعمل الروح ؟ هذا ما ستعلنه الأقوال في الأعداد ٨-١١ ؛ ١٢-١٥ .

ومنذ بداية الإنجيل الرابع ، والدعوى قائمة بين الله والعالم . ففي البداية كان يسوع هو مَنْ يدين العالم (را . ٣ : ١٩ ؛ ٨ : ٢٦ ؛ ٩ : ٣٩ ؛ را . ١٢ : ٤٨ ؛ ١٨ : ٢٨-١٩ : ١٦ أ) ؛ أمّا الآن فالروح هو من يلعب هذا الدور . ويأتي الروح ليدعم موقف الكنيسة ويثبتها في مواقفها الإيمانية ، ليكشف حقيقة العالم ويدينه على الخطية (ع . ٩) ، والبر (ع . ١٠) ، والدينونة (ع . ١١) .

فقد اتّهم العالم يسوع وحكم عليه ، ظاناً أنّه انتصر في معركته ضدّه ؛ أمّا الآن فقد انقلبت الأدوار ، وصار الروح القدس ممثلاً لیسوع هو من يتّهم العالم . فالخاطئ ليس يسوع (١٦ : ٩ ؛ را . ٨ : ٤٦ ؛ ١٠ : ٣٣) بل العالم ؛ ويسوع هو البار (١٦ : ١٠ ؛ را . ١٢ : ٣٤) وليس العالم ؛ وليس يسوع هو المحكوم عليه (١٦ : ١١ ؛ را . ع . ١٨-١٩)

٢٣ أن زمن القيامة هو زمن الفهم الكامل: «لَا تَسْأَلُونَنِي شَيْئًا»، لأن الروح يفهمهم كل شيء. ويعلن في ع. ٢٤ أن هذا الزمن هو وقت استجابة الصلاة. فالقيامة أرسدت علاقة جديدة بين الله والتلاميذ، هي الشراكة التي تجمع بين المسيح والآب (١٤: ٢٠: ٢٠: ١٧). فيوم كان المسيح بينهم، كان التلاميذ غير قادرين على طلب شيء من الآب، أما الآن فيجب أن يكون فرحهم كاملاً، لأنهم واثقون من استجابة الله لطلباتهم (ع. ٢٤).

وفي بعض الأحيان نشعر بأن الله بعيد وكأنه تركنا في حزننا وتساؤلنا، ولكن الحقيقة هي أنه حي، وأن حياتنا هي انتقال دائم من الحزن إلى فرح القيامة. وودهم التلاميذ، ومن يؤمنون بكلمة الرب، يدركون هذا ويقبلون الفرحة الذي يقدمه لهم، فيثقون بأن كرم الرب فائض على من يحيا في حضرته، ويعرف كيف ينتظر منه كل حاجته: إنه الفرحة الكامل والثابت.

وفي هذا المقطع يكمل يسوع حواراه مع تلاميذه، في ثلاثة أقسام: تعليم (ع. ٢٥-٢٨)، ردة فعل التلاميذ (ع. ٢٩-٣٠)، ورد يسوع (ع. ٣١-٣٣)، ليشكل في الحقيقة تربية دينية تدعو المؤمنين إلى التساؤل: عن مضمون إيمانهم وممارسته (ع. ٢٥-٣٠)، وحول الشك الإيماني (ع. ٢٩-٣٢)، وأساس الإيمان الحق (ع. ٣٣).

في ع. ٢٥ يميز يسوع بين زمن حضوره الأرضي الذي سينتهي على الصليب، وهو زمن غير مفهوم تماماً، وبين الزمن الآتي، زمن الوضوح التام. ففي قوله: «كلمتكم بالأمثال» يستعمل يوحنا كلمة يونانية تعني «الغار». فطيلة رسالته على الأرض، بقي تعليم يسوع مبهماً غير واضح للأذهان، مع أنه تكلم علانية (٧: ٢٦: ١٨: ٢٠)، وشرح ما يمكن أن يكون مبهماً (١٦: ٢٠-٢٢)، ومع إنه لم يغير تعليمه بعد القيامة، فتلاميذه تغيروا وصاروا قادرين على الاستيعاب. فبقية يسوع بعد صلبه، تم كشف الله عن ذاته، فصار باستطاعة التلاميذ إدراك كامل السر الإلهي، وبالتالي فهم كلام الرب. فكلام يسوع عن الآب (ع. ٢٥) هو عينه ما قاله طيلة حياته قبل الصلب؛ ولكن «الساعة»، ساعة الموت والارتفاع، تسمح للتلاميذ بفهم استعلان الله بقدرة الروح القدس (١٤: ٢٥: ١٦: ١٢-١٥). ولأنهم أدركوا الحقيقة، فقد صارت صلاتهم إعلاناً عن الإيمان «باسم يسوع المسيح»، فهم يطلبون «باسم يسوع» واثقين من محبة الله لمن يحبون ابنه (ع. ٢٦). وقد أرسى موت يسوع وقيامته علاقة مباشرة بين المؤمنين والله، فصرنا «أحباء» نطلب باسمه كل شيء من الآب، تماماً كما كان يسوع يطلب منه. فمن يؤمن بأن يسوع خرج من الآب، يؤمن بما يقوله عن الآب، فيعرف بالتالي أن الله يحبنا، ويقبل العلاقة المباشرة معه (ع. ٢٧).

ويشكل ع. ٢٨ ملخصاً للإيمان المسيحي: يسوع هو رسول الآب وممثله أمام البشرية. فإنه من خرج من الآب وأتى إلى العالم، فهو

الروح يمجّد الابن لأنه يكشف حضوره في الكنيسة. فإن قال الروح القدس للتلاميذ كلمة الابن، فهو بذلك يقول كلمة الله، لأن «كل ما للآب هو لي» (ع. ١٥)، فيكمل بذلك عمل يسوع إلى الأبد.

فإن شعرنا يوماً بابتعاد المسيح عنا، وبالمسافة التي تفصلنا عن كلمته، فلنثق بأن ما يقوله الروح فينا هو كلمة المسيح، ينقلها إلينا ويؤولها لنا بحسب ظروف حياتنا الحاضرة. فإن عمل الروح لا يقتصر على تذكيرنا بما قاله الرب، بل على حثنا على العيش اليوم برفقة المسيح الحاضر بكلمته ووعوده التي يقولها لنا الروح.

وبعد أن أعطى يسوع تلاميذه في الأعداد ٤-١٥ أسباب عدم وجوب الحزن والخوف من المستقبل، وبعد أن وعدهم بمجيء المعزي الذي يؤمن استمرارية وجود الرب بينهم، ليكشف خطيئة العالم، تأتي الأعداد ١٦-٣٣ لتختتم القسم الثالث والأخير من الخطاب الوداعي الثاني (١٥-١٦). ومحور هذه الأعداد هو وضع التلميذ بعد الفصح، والتأكيد على ميزتين: الوجود المسيحي الذي هو انتقال دائم من الحزن إلى الفرحة (ع. ١٦-٢٤)، ومن عدم الفهم إلى الفهم (ع. ٢٥-٣٣).

بعد حديث يسوع المنفرد الذي نقله إلينا القديس يوحنا (١٥: ١٦-١٥)، يبدأ هنا حوار يسوع مع تلاميذه، ويتألف من ثلاثة أقسام: تساؤل التلاميذ عن كلمة يسوع المبهمة (ع. ١٦-١٨)؛ قسم أول من جواب يسوع (ع. ١٩-٢٢)؛ ثم قسم ثانٍ من الجواب (ع. ٢٣-٢٤).

وعلى ثلاث مراحل يطرح التلاميذ تساؤلاً عن كلمة يسوع «بعد قليل»، وعن ذهابه إلى الآب (ع. ١٧، ١٨، ١٩)، وفي ذلك عودة إلى موضوع الخطاب الوداعي الأول (ف. ١٤).

ويشير يسوع بكلامه إلى موته القريب وقيامته القريبة (را. ٧: ٣٣-٣٤: ١٢: ٣٥: ١٣: ٣٣: ١٤: ١٩). فإن زمن الصليب والموت هو زمن مؤلم وصعب، ولكنه زمن قصير «بعد قليل». ومع ذلك تبقى مسألة الوقت غير مفهومة، تماماً كما مسألة ذهاب المسيح إلى الآب. فكيف يمكن لمن ذهب أن يرى من جديد؟ والرب يعرف تساؤلات البشر وصعوباتهم (ع. ١٩). وفي جوابه (ع. ٢٠) يربط يسوع مصير تلاميذه بمصيره الخاص، ليوضح لهم بذلك وضعهم الآيل من الحزن إلى الفرحة. فإن فرح العالم أمام حزن التلاميذ لموت المسيح سينقلب، لأن المسيح حي، ومن الحزن ينبع الفرحة (ع. ٢٠)، تماماً كما هي حال المرأة التي تلد الحياة بالألم. فالمؤمنون مدعوون بالتالي إلى المرور بالحزن والألم، ليختبروا فرح مجيء الرب المتجدد دوماً (ع. ٢١). فإن كان التلاميذ لن يروا المسيح لبعض الوقت، فإنه سيراهم «بعد قليل»؛ وهو من سيأتي إليهم ليراهم بعد قيامته. فإن الفرحة ليس عملاً بشرياً بل عطية إلهية (ع. ٢٢). ولمن يتساءل عن مفاعيل القيامة في حياة التلاميذ، يؤكد يسوع في عدد

١٧: ٢٦-١ الصلاة الوداعية أنهى يسوع كلامه في خطابه الوداعي الثاني (ف. ١٥-١٦)، ببدء تشجيع وثبات بالإيمان «ثَقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ» (١٦: ٣٣). وبهذا النداء انتقل إلى صلاته الوداعية، التي يلخص فيها جوهر كتاب الآيات بالعودة إلى مواضيع: أزلية المسيح (ع. ٥، ٢٤: ٢٤ ر. ١: ١-٢)، وقدرته على الدينونة (ع. ٢: ٢٠-٢٧)، والوحدة (ع. ١١، ٢٠، ٢٣: ١٠: ١٦، ٣٠: ١١: ٥٢)، والمحبة (ع. ٢٣، ٢٤، ٢٦: ٣: ١٦-١٧)، وخطابي الوداع بالعودة إلى موضوع «الساعة» (ع. ١: ١٣: ١: ١٦: ٣٢)، وتمجيد الآب والابن (ع. ١، ٤، ٥، ١٠، ٢٢، ١٤: ١٣: ٣١، ٣٢: ١٤: ١٣)، ويسوع معطي الحياة (ع. ٢، ٣: ١٤: ٦، ١٩)، وثبات التلاميذ بكلمة الرب (ع. ٦، ٨: ١٤: ٢٣، ٢٤)، لأنهم في العالم وليسوا من العالم (ع. ١١، ١٤: ١٣: ١٥: ١٩). ويمكن محور صلاة يسوع الوداعية في نظرته إلى كامل الأمور في ضوء هدفه الأول: إشراك المؤمنين في شراكة الابن والآب.

وقد كان اليهود المعاصرون للقدّيس يوحنا معتادين على صلوات الوداع. فموسى صلى قبل موته (تث ٣١: ٣٠-٣٢: ٤٧)، وداود أيضاً (١ أخ ٢٩: ١٠-١٩)؛ وقد نقلت المنحولات اليهودية صلوات عديدة ضمن «وصايا الآباء» وفي كتابي اليوبيلات والعاديات الكتابية. ولكن صلاة يسوع ليست مجرد صلاة وداعية، لأنّه ليس مجرد إنسان بل هو ابن الله الوحيد القادر على أن يقول «أريد أن» (ع. ٢٤)، وموته ليس موتاً بل تمجيداً وارتقاءً إلى الآب. فإنّ من يتكلّم في هذه الصلاة هو المسيح الممجّد!

وفي صلاته، يعطي يسوع عن نفسه وعن عمله صورة شاملة صار بإمكان القارئ استيعابها، بعد وصوله إلى هذه المرحلة من الإنجيل الرابع. ففي هذه الصلاة، يبدو يسوع بصورة الإنسان الذي يودّع أصحابه عشية آلامه وعودته إلى الآب من جهة، وبصورة المسيح الذي يعلن تكميم عمله وقد أخذ صورة الممجّد من جهة أخرى. فتبدأ الصلاة بعبارات تضعها في إطار تكميم يسوع لرسالته «أتت الساعة، مجد ابنك» (١٧: ١)، (ر. ١٢: ٢٣: ١٣: ١، ٣١). وتعرض المقدمة (ع. ١-٥) كل رسالة يسوع الابن «أعطيته سلطاناً... ليعطي حياة أبدية»، وتعلن تكميمها «قد أكملته». ثمّ تستعرض الأعداد ٦-٨ رسالة يسوع وتناجها: أعلن اسم الله لتلاميذه؛ وأعطاهم «كلام الله» فتلّقوه، وعلموا، وآمنوا. وأما الأعداد ٩-١٩ فتتعلّق صلاة لحفظ التلاميذ الذين «في العالم» بعد ذهاب يسوع إلى الآب. وهم ليسوا من العالم، بل يحملون رسالة يسوع، ويتعرّضون للكراهية التي أوصلته إلى الصليب (ع. ٩-١٦). ثمّ صلاة ليحفظوا من الشرير، ويتقدّسوا في الحق، ويكونوا واحداً، ويكون لهم ملء الفرح (ع. ١٧-١٩). وتتوسّع الصلاة في النهاية لتشمل كل المؤمنين المستقبليين

إذاً ليس يسوع الناصري، بل هو «كلمة الله الأزلي» (١: ١-١٨) القادر وحده على أن يعلن الآب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هو من يترك العالم ليذهب إلى الآب، وهذا ما تحقّق بموته وارتفاعه فتّم الرسالة الإلهية محبة بالبشر (٣: ١٦: ١٣: ١: ١٥: ٩). فالموت إذاً ليس نهاية بل تكميم لمشروع الله.

وبعد أن كانت تساوّلاتهم فردية (١٣: ٣٦: ١٤: ٥، ٨، ٢٢) أو لبعضهم بعضاً (١٦: ١٧) دلالة على عدم فهمهم، يتوجّه التلاميذ مجتمعين إلى الربّ في نهاية الحوار، ليؤكدوا فهمهم وليحكموا على محتوى التعليم الذي أعطاه المسيح (ع. ٢٩-٣٠). «والآن»، انتهى زمن الألغاز؛ وقد آمن التلاميذ بأن يسوع «عالم بكل شيء» (ر. ع. ٢٩: ١٦: ١٩: ١: ٤٧-٤٩: ٢: ٢٣-٢٥: ٤: ١٦-١٩) ولكنهم ما زالوا في زمن ما قبل الفصح، ولم يصلوا بالتالي إلى كامل أسس الإيمان المسيحي. وهذا ما ستوضحه الأعداد ٣١-٣٣.

يقول لهم يسوع: «الآن تؤمنون؟» والحال أنّ هذا الإيمان لن يثبت أمام الآلام (ع. ٣٢)؛ «فالساعة أتت الآن»، وسيظهر تماماً أنّ التلاميذ سيذهبون «كل واحد إلى خاصّته» عائداً إلى ما كان يحياه قبل لقائه بالرب. فإنّ تفرّقهم يعني بما لا لبس فيه العودة إلى «العالم» الذي يحيا منفصلاً عن الله. فإن يعرف الإنسان أنّ يسوع عالم بكل شيء وأنّ قدرته خارقة، لا يكفي للإيمان، لأنّ من لا يقبل زمن الصعوبة والصليب يبقى إيمانه ناقصاً غير قادر على الثبات وقت الشدة. وغالباً ما يكون مسيحيو اليوم على صورة التلاميذ قبل زمن الصليب والقيامة مؤمنين بالمسيح القادر، ولكنهم يرفضون المسيح المصلوب القائم. وعلى مثال التلاميذ، سرعان ما يتفرّقون ويعودون إلى «العالم» عند أية صعوبة وألم؛ ولكن أمانة الله لا تنزعز أمام عدم أمانة التلاميذ، فإن تركوا جميعهم يسوع فإن الآب معه (ر. ع. ٣٢: ٨: ٢: ١٠: ٣٠: ١٤: ١٠-١١، ٢٠، ٢٣).

وتأتي خاتمة الخطاب في ع. ٣٣. فبعد اللوم الذي وجهه إليهم بسبب عدم أمانتهم في الأعداد ٣١-٣٣، لم يتبرأ يسوع من تلاميذه، بل صحّح مضمون إيمانهم ليكون بمقدورهم مجابهة كل صعوبات الأزمنة الآتية والانتصار عليها. فإنّ حياة الإيمان تعني صراعاً دائماً مع «العالم»، فإنّها حياة «ضيق» بسببه «عالم» يناهض إيمانهم؛ ولكنّ حياة الإيمان هي «ثقة» تامّة بالغبلة والانتصار بمن «غلب العالم». وصحيح أنّ «العالم» باق في صراعه ضدّ التلاميذ، ولكنّه فقد قدرته على إهلاكهم. وانتهى الصراع بين الله والعالم الذي يرفضه، لأنّ الله كشف خطيئته، وعدم برّه، وعدم قدرته على الدينونة، ممّا يسمح لخاصّة المسيح أن يعيشوا في هذا العالم بسلام وبشجاعة. ولكن إن لم يتخلّ المؤمنون عن قناعاتهم الخاصة التي يركزون عليها بإيمانهم، وإن لم يقبلوا عار الصليب فلن يصلوا إلى الإيمان الحقّ والسلام الحقّ، والثقة بأن «المسيح غلب العالم» عالم الشرّ.

وبالعودة إلى صلاته، يقدم يسوع لأبيه عمله مكتملاً متممًا. فلقد كشف للبشر هوية الله الحقيقية طيلة حياته على الأرض. وكان عمله هذا تمجيداً لله لأنه تنمिम لإرادته (را. ٤: ٣٤؛ ٥: ٣٦؛ ١٠: ٣٦-٣٨؛ ١٤: ٣١)؛ وهذا العمل ليس التعليم وأعمال القدرة والآيات وحسب، بل الآلام والصلب أيضاً (ع. ٤). فيصلي الرب ليكون الصليب مساحة تمجيد وليس مناسبة هلاك. فإن الابن هو الكائن «قبل كون العالم» (ع. ٥؛ را. ١: ١-٢)، فهو واثق من أن مجده الإلهي، حاضر حتى في أصعب الساعات، ويصلي ليظهر للجميع ارتباطه الجوهرى بالله وثباته فيه. هكذا تتقلب قيمة الموت، وبفهم البشر أنه ليس هناك

الحالة، لا أن نقرر مطلقاً أن التعدد هو القاعدة (خضر، ٢٧).

في هذا الإطار يرى صبرا، ٢٠٠١ أن قضية وحدة الإيمان لم تكن مطروحة بشكل جذري في العهد القديم حيث كان شعب الله شعباً واحداً وكان التحدي الذي واجهه شعب الله هو القداسة. فلقد كانت المهمة الأولى والأساسية للشعب المختار هو أن يفرز نفسه عن الأمم الوثنية وأن يكون الأداة الطاهرة التي تخدم حضور الله، في حين أن قضية الوحدة في العهد الجديد تأخذ شكلاً آخر وهاماً. فالكنيسة الأولى لم تكن متجانسة كما كان الشعب في العهد القديم لكنها كانت تجمع يوناني ويهودي وكان بها العبد والحر، الذكر والأنثى، تضم الروماني والفلسطيني، تتكلم العبرية والآرامية واليونانية واللاتينية (صبرا، ٢٠٠١، ١٢٠).

يؤكد العهد الجديد على أهمية الوحدة في (١ كو ١: ١٠ - ٣٠) حيث يحذر الرسول بولس من الانقسامات والتحزب ويدعو الكنيسة إلى الوحدة في المسيح ويؤكد في الفصل الثاني عشر من نفس الرسالة حول أهمية الوحدة والتنوع من خلال طرحه لفكرة الجسد الواحد والأعضاء الكثيرة وكذلك أيضاً من خلال فكرة تنوع المواهب ولكن الروح واحد. كذلك نجد أيضاً في غل ٣: ٢٧ التنوع العرقي والنوعي والجنسي والمكانة الاجتماعية، ومع ذلك فالمعمودية توحد المسيحيين.

في إنجيل يوحنا نجد نصاً هاماً في يو ١٠: ١٦، حيث الحديث حول الراعي الصالح والرعية والتأكيد على الوحدة بأبعادها المختلفة. كذلك تأكيد الرسول بولس في أف ٤: ١ - ٧ على وحدة الدعوة «وحدانية الروح برباط السلام» وحدة الإيمان (صبرا، ١٠١، ١٢٢).

تحديات ومقومات

ومع أن هناك أساساً لاهوتياً واضحاً في العهد الجديد حول التنوع وأهمية الوحدة، إلا أنه على أرض الواقع هناك تحديات تواجه المسكونية يمكن رصد البعض منها على النحو التالي:

١. هناك غياب لمبدأ التسامح بين الكنائس وقبول الآخر.
٢. ترفض بعض الكنائس التعاون المشترك وذلك بسبب ما يسمى بالاختصاص، أي دعوة أعضاء من كنائس معينة إلى كنائس أخرى.
٣. هناك لامبالاة تجاه الانقسام الموجود، بل يشعر البعض بأن هويته تتأكد من خلال هذا الانقسام.
٤. اعتقاد بعض الكنائس بأنها الكنيسة الأم ويجب على الجميع الانطواء تحت رايتها.
٥. تقديم الاختلافات العقائدية وتهميش المشترك (جرجور، ٩٢-٩٣).

وبحضوره كان يسوع هو الموحد للجميع، فماذا يمكن أن يوحد التلاميذ في غيابه، إلا إيمانهم، بالله الواحد المتحد بانه. وما يحفظ المؤمنين هو أمانتهم لتعاليم يسوع، فلم يهلك منهم أحد «إلا ابن الهلاك»، أداة الشرير (١٣: ٢، ٢٧)، إبليس (٦: ٧٠) الذي اختار الانفصال عن الحياة. وأما «الآن» (ع. ١٣)، أي في زمن غياب يسوع عن عيون تلاميذه فإنه يكلمهم من خلال صلاته.

وليس يسوع بحاجة إلى صلاة، ولكنه يتكلم إلى الآب ليترك لتلاميذه كلمات يسمعونها، فيعرفوا العلاقة التي تربطه بأبيه ويشاركوا فيها. فكل هدف الصلاة هو ألا يفرق التلاميذ في الحزن في أثناء غيابه، لأن هذا الغياب هو حامل فرح كامل (ع. ١٣؛ را. ١٥: ١١؛ ١٦: ٢٠-٢٢، ٢٤). ولكن هذا الغياب الذي يتسبب بفرح كبير للتلاميذ، ويتسبب في الوقت عينه بتفجّر كراهية العالم تجاههم (ع. ١٤؛ را. ١٥: ١٨-١٩). وقد أعطى يسوع كلامه لخاصته، وبقبولهم له تركوا قيم العالم وقوانين عيشه، فلم يعودوا «من العالم»، وصار المسيح مرجعيتهم الإلهية. ولكنهم ما زالوا «في العالم»، وليس المطلوب أن يتركوه بل أن يحميمهم الله من الشرير «رئيس هذا العالم» (ع. ١٥). فعلى الرغم من أنهم «ليسوا من العالم» ويختلفون عنه جوهرياً، فإنهم مدعوون إلى العيش فيه حيث يهددهم الشرير. فإنهم يعيشون الصراع الدائم بين انتمائهم لله ووجودهم في العالم.

وهذا الصراع لن ينتهي، ولن يهرب المؤمنون من العالم لكنهم بقدرة الله قادرين على مواجهته وعدم السقوط أمامه.

المسكونية

مفاهيم

يشير مصطلح المسكونية (Ecumenism) إلى المبادرات التي تأخذها الكنائس أو الطوائف أو المذاهب المستقلة عن بعضها بعضاً وذلك بهدف الشركة والشهادة المشتركة. والكلمة مسكونية تأتي من الكلمة اليونانية *oikoumene* والتي تعني العالم المسكوني بأكمله وكانت تستخدم تاريخياً للإشارة إلى الإمبراطورية، الرومانية والكلمة من وجهة النظر المسيحية تشير إلى البحث عن الوحدة المرئية للكنيسة (أف ٣: ٤) كما أنها تسعى إلى العالم المسكوني ككل (ويكيبيديا: الموسوعة الحرة).

يمثل التوجه نحو وحدة الكنيسة أمراً ملحاً في تاريخ المسيحية ولاسيما الحديث منه. وهذه الوحدة الكنسية لا بد أن تكون في إطار وحدة الإيمان والتعدد، فيقول المطران جورج خضر «أجل يمكن أن نقول إن الإيمان واحد بين كنيستين على اختلاف لاهوتهما فإذا تبينت وحدة الإيمان يمكن أن نقول لاحقاً أن التعدد ممكن في هذه

الانتماء للشرق والغرب هو أمر هام في العلاقة المسكونية، لقد أصبح واضحاً لدى الجميع، ولا سيما بعد ما يسمى بالربيع العربي، أن وحدة الكنائس داخل المنطقة العربية يتجاوز علاقة هذه الكنائس بالغرب والشرق.

إننا لا نستطيع أن ننكر العلاقات الوثيقة بين الكنائس الإنجيلية والكاثوليكية بالثقافة والكنائس الغربية، ومع ذلك فإن عملية الاندماج الوطني من جانب هذه الكنائس كان هاماً للشرق والغرب معاً، إن التواصل الثقافي واللاهوتي بين الشرق والغرب ساهم في تأسيس أرضية جديدة كما دفع ببناء تفاهم مسيحي عالمي كان ضرورياً لدعم العيش المشترك.

أفكار عملية

ربما تمثل قضية الاقتناص تحدياً جوهرياً للحركة المسكونية في العالم العربي، ولعل الربط بين الكنيسة والقطرية هو أحد أهم الملامح المرتبطة بعملية الاقتناص في حين ترى كنيسة ما إن كل المواطنين المسيحيين في هذه الدول المنتمية لها يتبعون هذه الكنيسة سواء إن كانوا منتمين إليها فعلاً أم لا، في حين ترى كنائس أخرى أن العلاقة بين كنيسة ما والقطرية غير مناسبة وأن هناك الكثيرين من المسيحيين الاسميين الذين يجب دعوتهم للإيمان، هذا الصراع بين العلاقة بين كنيسة ما والقطرية وقضية المسيحيين الاسميين هو جوهر قضية الاقتناص ومن هنا يجب علينا تحديد مفهوم الكنيسة والانتماء إليها حتى نوازن بين عقيدة كل كنيسة وكذلك عدم الانتماء إلى أي كنيسة.

وقد يكون أحد حلول عملية الاقتناص هو امتناع أي كنيسة عن قبول أي شخص ينتمي فعلاً إلى كنيسة أخرى من القبول إلى عضويتها ما لم يكن ذلك طلباً أصيلاً من الشخص وذلك في إطار حرية العقيدة. أما الأشخاص غير المنتمين إلى أي كنيسة فمن حق أي كنيسة دعوتهم للانضمام إليها.

وتأتي قضية الكنائس الوطنية والكنائس الوافدة من أهم التحديات أيضاً التي تواجه الحركة المسكونية، ومع أن كل الكنائس في المنطقة العربية اليوم هي في إطار الحركة الوطنية العربية إلا أن عملية التمييز هذه يتم استدعاؤها في الأوقات التي تضعف فيها الحركة المسكونية، ومع أن المسيحية تاريخياً نشأت في فلسطين ومهما كان تاريخ هذه الكنائس فمؤسسيها وافدين أيضاً فالجميع في منطقتنا العربية كنائس وافدة سواء إن كان تاريخها ألفين عام أو مئتين عام ومن هنا فإن استدعاء الكنيسة الوطنية مقابل الوافدة لا يساهم في المسكونية بل يدفع نحو انقسام الكنائس.

وتمثل قضية الاعتراف المتبادل ركناً هاماً من أركان الحركة المسكونية اليوم فالاعتراف بالآخر لا يعني بالضرورة قبول كل

ومع أن هذه الصعوبات تلعب دوراً كبيراً في تهميش المسكونية والدفع بالاستقلالية الكنسية إلا أن هناك العديد من المقومات التي يمكن أن تسهم في ترسيخ وتفعيل المسكونية.

إن قبول الآخر المختلف هو أمر ضروري في الحركة المسكونية فقبول الآخر يعني فهم حقيقي للمساحة المشتركة والاعتراف بمساحات الاختلاف. كما أن قبول الآخر يتطلب معرفة الآخر كما يقدم نفسه وليس كما أتصوره، فلقد لعبت التصورات الضمنية والمغلوطات التي كونتها عن الآخر في رفضه دون أن تكون هذه الصورة هي صورة الآخر الحقيقية. ومن هنا يجب علينا أن نعرف الآخر من خلال الصورة التي يقدمها عن نفسه، وهنا ستكون لنا صورة حقيقية عن المساحات المشتركة ويكون لدينا فهم واعي عن مساحات الاختلاف.

ومن الناحية اللاهوتية هناك الكثير من المقومات الهامة في دعم الحركة المسكونية ومن أهم هذه المقومات هو الإقرار بأن التعددية عملية أساسية في المسيحية فالمفهوم المسيحي عن الثالوث هو أعمق مفهوم للتعددية في إطار الوحدة كذلك تنوع الرؤى اللاهوتية من خلال الأنجيل والرسائل المختلفة للإعلان الإلهي المتمثل في شخص ربنا يسوع المسيح كذلك التنوع العرقي والثقافي والعقائدي لدى الكنيسة الأولى وهكذا يمكننا رصد التنوع الهائل الموجود في المسيحية ومع ذلك فالوحدة هي أساس هذا التنوع وإطاره.

لقد لعبت الثقافة والظروف التاريخية دوراً في تطور لاهوتي لدى الكنائس المختلفة، هذا التطور اللاهوتي ارتبط بتطور لغة خاصة لدى هذه الكنائس، هذه العملية ساهمت في عزل الكنائس عن بعضها وكذلك عزل الكنائس عن المجتمع وبالتالي أصبح من الضروري فهم اللغة لدى كل كنيسة وهذه العملية سوف تساهم في بناء الجسور بين الكنائس المختلفة وكذلك سوف تساهم أيضاً في بناء الجسور مع المجتمع.

وتأتي قضية فهم العلاقة بين ما هو كنسي وما هو قومي من أهم مقومات الحركة المسكونية في العالم العربي، هذه العلاقة المعقدة والمختلفة من دولة إلى أخرى تمثل تحدياً هاماً في بناء المسكونية. فلقد تميز العالم العربي في المئة عام الماضية باختلافات جوهريّة في إطار الرؤية السياسية والتوجهات الأيديولوجية لدرجة أصبح من الصعب الاتفاق على قضية ما لذا وجب الفصل بين علاقة الكنيسة بالدولة القطرية والذي هو أمر هام. فعلاقة الكنائس ببعضها يجب أن تكون في إطار رؤية لاهوتية وتنوع في إطار الوحدة، هذا الفصل سوف يساعدهم في تجاوز الاختلافات السياسية والأيديولوجية السائدة في المنطقة.

كما أن الفصل بين علاقة الكنائس بالدولة القطرية وعلاقة الكنائس ببعضها البعض سوف يساهم أيضاً في عملية الفصل بين

ما أخذه من أبيه من حياة (٦: ٥٧)، ومعرفة (١٠: ١٤-١٥)، ومحبة (١٥: ٩؛ ١٧: ٢٣)، ووحدة (ع. ٢٢)، ورسالة (ع. ١٧). والصلب هو زمن ولادة الكنيسة، لأنه زمن انتقال رسالة الابن إلى التلاميذ. وصحیح أن يسوع، قبل ذهابه إلى الآب، يصلي من أجل تلاميذه، ولكنه يصلي ليكونوا رسله إلى العالم، فيضمّ العالم كله إلى التلاميذ (٣: ١١١، ٣٢: ٨؛ ٢٦: ١٨؛ ٣٧). وإن شعر التلاميذ بأن ذلك صعب جداً، فإن يسوع قد جعله ممكناً لأنه بتجسيده الحقيقة قدّس ذاته لأجلهم (ع. ١٩)؛ وبالصلب تمّ كشف هوية الرب أمام الجميع، ففتح أمامهم طريق الاتحاد بالله وبالتالي طريق التقديس.

١٧: ٢٠-٢٦ صلاة للمؤمنين المستقبليين في القسم الثالث من صلاته، يتوجّه يسوع إلى أبيه طالباً ليس من أجل «هؤلاء فقط» أي تلاميذه المباشرين الذين عايشوا رسالته، بل لأجل كل الذين سيؤمنون به بواسطتهم. فيصلي أولاً من أجل وحدتهم (ع. ٢٠-٢٢)؛ ثم ليعن إرادته بمشاركتهم مجده الأبدي ومجد أبيه (ع. ٢٤-٢٦).

وبعد صلاته في الأعداد ٢٠-٢٣ لتلاميذه الذين سمعوه، ورأوه، وشاهدوه، ولمسوه بأيديهم (١ يو ١: ١)، يصلي يسوع علناً لأجل الذين سيؤمنون به في المستقبل. وطيلة هذه الأعداد الثلاثة، يكرّر يسوع طلب الوحدة للجماعة المؤمنة الآن وإلى الأبد. فالمؤمنون المستقبليون هم ثمرة كرازة التلاميذ الأوائل «بكلامهم» (ع. ٢٠: ١. ر. ١ يو ١: ١-٤)، بعد أن أرسلهم يسوع كما أرسله الآب (ع. ١٨). وأعطى يسوع كلام الله للعالم، فأعلن به هوية الله وأمن به الناس (ع. ٦، ٨، ١٤، ١٧). أما بعد غياب يسوع، فهذه الرسالة صارت من مهمّات رسله القائمين مقامه في العالم. والمطلوب الأول لتحقيق هذه الرسالة هو الوحدة الحقّة (ع. ٢١، ١١) التي مثالها وحدة الآب والابن بالمحبة والعمل. فكما أن الآب يتكلّم ويعمل من خلال الابن، وكما أن الابن يتحد بأبيه فكراً وعملاً، يصلي يسوع لكي تكون وحدة تلاميذه متجذّرة فيه وبأبيه. فتكون هذه الوحدة حافزاً لإيمان العالم (ر. ١١: ٤٢). ومجد الله هو حضوره وهو بالتالي أساس الوحدة، فالذي يعرف الله ويحيا في حضرته، لا يمكن إلا أن يتوحد به ومع الآخرين الذين يعيشون الخبرة عينها. وأعطى يسوع هذا المجد لتلاميذه فصاروا قادرين على عيش الوحدة الإلهية (ع. ٢٢-٢٣)، معدّين لعيش الشراكة الأبديّة الكاملة مع الله (ع. ٢٣)، فيرى الناس ويعلمون ويؤمنون بيسوع الابن. فالمسيحيون هم شركاء الله في مجده، وشركاؤه في مشروعه الخلاصي لكل البشر. فإنهم بحاجة إلى صلاة الرب تدعمهم في رسالتهم فيبقون ثابتين في وحدتهم معه وبعضهم مع بعض لخير العالم.

وهذه الأعداد هي ختام الصلاة الوداعية. ويستهلّها يسوع كما بدأ صلاته، بدعوة أبيه «أيها الآب» (ع. ٢٤، ١)، وبفعل «أريد»

عقائد الآخر، الاعتراف بالآخر يعني قبوله كما هو ويتضمن ذلك الاعتراف بالمساحة المشتركة معه وأيضاً بدوائر الاختلاف. إن عملية الاعتراف المتبادل بين الكنائس سوف تسهم في تعزيز المسكونية كما أن يُعطي مساحة من التسامح والتعددية.

خاتمة

إن التحديات التي تواجه المسكونية كثيرة لكن المقومات التي تساندها هي أكثر، فلقد شهدت المنطقة العربية في إطار ما يسمى ما بعد الربيع العربي تحركاً جماهيرياً نحو المسكونية مما دفع القادة إلى إعادة النظر في المواقف التقليدية والسابقة من الحركة المسكونية، فهذه هي المرة الأولى التي يتأسس فيها مجلس كنائس مصر. كما أن هناك مبادرات شعبية عديدة دفعت نحو المسكونية، فلم تبق المسكونية محصورة في مبادرات القادة الكنسيين فقط لكننا شاهدنا الدفع الجماهيري لها، ومن هذا المنطلق ومن إطار المقومات اللاهوتية والتوجهات الجماهيرية نأمل في حركة مسكونية قوية في عالمنا العربي، تعترف بأخطاء الماضي وتسعى إلى مستقبل يحقق الوحدة في إطار التنوع.

المراجع

جرجور، رياض. **العلاقات بين الكنائس: الفكر اللاهوتي في خدمة وحدة الكنيسة**. إعداد طارق متري، وموريس تاووضروس. القاهرة: مجلس كنائس الشرق الأوسط، د. ت.

خضر، جورج. **المفاهيم الكنسية التي يقوم عليها التعاون بين الكنائس، أو المتضمنة الرؤية المسكونية: الفكر اللاهوتي في خدمة وحدة الكنيسة**. إعداد طارق متري، وموريس تاووضروس. القاهرة: مجلس كنائس الشرق الأوسط، ١٩٨٧.

صبرا، جورج. **في سبيل حوار مسكوني**. بيروت: دار منشورات النفير، ٢٠٠١.

الدكتور القس أندريه زكي إسطفانوس

١٧: ١٧-١٩ «قدّسهم في الحق» وبعد أن طلب الحماية لتلاميذه، يوجّه يسوع إلى أبيه طلباً ثانياً: «قدّسهم» (ع. ١٧). فالقداسة ليست عملاً بشرياً شخصياً، بل هي عطية من الله، الذي يجعل ممّن يختارهم على علاقة شراكة معه هو القدّوس، وهو الحق الذي أعلن بيسوع المسيح (ر. ١: ١٧؛ ١٤: ٦). فالقداسة هي في «كلمة الله» التي أعطاها يسوع و«الحق» الذي كشفه للعالم، ولم تعد في تطبيق الشرائع والطقوس. وبسبب تلقّيها كلمة الرب واستعلان الله من خلالها، تشترك الجماعة المؤمنة برسالة يسوع (ع. ١٨)، فتمثّله في العالم كما مثّل يسوع الآب. فالمؤمنون هم صورة يسوع يعطيهم

(١٩: ٢٥-٢٧)، وضربة الحربة وما تسببت به (١٩: ٣١-٣٧). فإن أحداث الآلام والصلب ليست فشلاً لرسالة يسوع، وليست ساعة ظهور عبد الله المتألم لأجل خطايا البشر؛ بل هي «ساعة» «تمام» استعلان الله من خلال يسوع، وهي ساعة «العودة إلى الآب». و«الساعة» التي أتت وتمت هي زمن انتصار الابن وتمجيده. فإنها ساعة الفصح الحقيقي والذبيحة الحقّة التي تحرّر البشر من كل ما يكبلهم (١٩: ١٤، ٢٩، ٣١-٣٧). وهذا ما استحضره الإنجيلي الرابع على مدى خطابات الوداع وصلاة يسوع الأخيرة، ليشرح أحداث الفصلين ١٨ و ١٩. ويأخذ يسوع في آلامه المبادرة دائماً، فهو ليس من يتلقّى الأحداث، بل هو من يتصرّف بسابق علمه، وبحسب الإرادة الإلهية في مواقف مختلفة: عند توقيفه (١٨: ١١-١)، وأمام عظيم الكهنة (١٨: ١٢-٢٣)، كما أمام بيلاطس (١٨: ٢٨-١٩: ١٦)، إلى أن يكشف إرادته الأخيرة على الصليب (١٩: ٢٦) فيؤسّس كنيسته (١٩: ٢٥-٢٧)، ويتمّ عمله (١٩: ٣٠). ١٨: ١-١١ **المواجهة في البستان** بعد الانتهاء من صلاته الوداعية الطويلة (ف. ١٧)، انطلق يسوع مع تلاميذه تاركاً أورشليم إلى بستان في «عبر وادي قدرون». وتتألف الأعداد ١-١١ من مقدّمة ترسم إطار النص (ع. ١-٣)؛ ووصف لعظمة المسيح تجاه القادمين لتوقيفه (ع. ٤-٩)؛ وخبر عن ضربة السيف التي وجّهها بطرس وكلمة الرب (ع. ١٠-١١). وتفتتح هذه الأعداد نصوص آلام الرب المسيح، التي تكمل إعلانه عن ذاته وعن أبيه أمام العالم. ويجد القارئ نصوصاً موازية لما يورده يوحنا في هذه الأعداد عند الإزائين (را. مر ١٤: ٢٦، ٣٢-٥٢؛ مت ٢٦: ٣٠، ٤٧-٥٦؛ لو ٢٢: ٣٩، ٤٧، ٥٣)، من دون أن يتناول مشهد بستان جشيماني ونوم التلاميذ (مر ١٤: ٣٢-٤٢)، بعد أن كان قد ذكر صلاة مشابهة لصلاة النزاع (١٢: ٢٧-٢٨). فمن الواضح أن يوحنا لا ينقل الأحداث بتفاصيلها التاريخية وحسب؛ بل يقدّم لقرائه خبراً لا هو تيّاً يثبت الكنيسة في إيمانها بيسوع المسيح ابن الله، الذي يسلم ذاته لمعتقله، بحيث لم يعد من ضرورة لقبلة يهوذا التي تدل عليه (مر ١٤: ٤٤-٤٥)، والذي ظهر بكل سلطانه أمام الجنود فسقطوا أمامه (ع. ٦)، والذي حمى تلاميذه فلم يهربوا (مر ١٤: ٥٠؛ مت ٢٦: ٥٦).

وما يلفت النظر في نصوص يوحنا عن الآلام والقيامة، هو عظمة الجلالة الملكية التي يظهر فيها يسوع: هنا يتمّ ما هو مكتوب في يو ١٠: ١٨ «لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذْهُ مِنِّي، بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي». واختار يسوع مصيره بحريّة، وسار بقوة نحو الموت لأنّ ساعته، ساعة النور ونصر الله، قد أتت في حين أنه يسيطر بجلاله على من ينفذون فيه الآلام: الحرّاس والرومانين والوالي وكبار الكهنة. وكأنّ كل تراجيديا الآلام قد اختفت أمام هالة النور، فيسوع ليس الضحية البريئة؛ بل إنّ الرب الذي يتمّ الخلاص للجميع كما أعلن

بدلاً من «أسأل». فهو المتحدّ جوهرياً بالآب، فيتحدّث معه كمساوٍ له، ويأخذ منه ما يريد لأن إرادته مطابقة تماماً لإرادة الآب (را. ٤: ٢٤؛ ٥: ٣٠؛ ٦: ٣٨). فإرادة الآب والابن هي أن تجد وحدة التلاميذ بالآب والابن اكتمالها في المجد الأزلي (ع. ٢٤). فإن إرادة الله هي أن يحيا من يؤمنون في حضرة المحبة الإلهية الكاملة من خلال حياتهم الأرضية.

١٨: ١-١٩: ٤٢ **نصوص الآلام** يشكّل الفصلان الثامن عشر والتاسع عشر وحدة أدبية متماسكة، موضوعها آلام يسوع الناصري المسيح والرب. ورتّب القديس يوحنا هذه الأخبار في مشاهد خمسة: المواجهة في البستان ومحاولة اعتقال يسوع (١٨: ١-١١) يسوع أمام حنّان (١٨: ١٢-٢٧) يسوع أمام بيلاطس (١٨: ٢٨-١٩: ١٦) صلب يسوع وموته (١٩: ١٦-٣٧) تكفين يسوع ووضعه في القبر (١٩: ٣٨-٤٢)

وتتغيّر المشاهد كما يلاحظ القارئ مع تغيّر الأمكنة بعد اعتقال يسوع. فبعد البستان (١٨: ١)، اقتيد يسوع إلى حنّان في بيت عظيم الكهنة (ع. ١٣)، ليوضع في القبر (١٩: ٤٠). ولكن النص يتوالى أيضاً بحسب الساعات الزمنية ليتمّ كل شيء في أقل من أربع وعشرين ساعة. فبعد سهرتهم الطويلة، خرج يسوع وتلاميذه ليلاً (١٨: ١، ٣) إلى البستان، وقبل الفجر وصياح الديك (١٨: ٢٧) كان يسوع قد مثل أمام حنّان وأمام قيافا رئيس الكهنة. وعند الصباح (١٨: ٢٨) كانت المحاكمة أمام بيلاطس والجلد والاستهزاء في قصر هيرودس، ثم صدور حكم هيرودس ظهراً (١٩: ١٤) والاستهزاء بيسوع «الملك»، وأخيراً موته ودفنه عند الغروب (١٩: ٤٢).

ويفتقد القارئ في نصّ القديس يوحنا العديد من التفاصيل التي يقرأها في الأناجيل الإزائية. ففي الإنجيل الرابع لا وجود لأيّ إذلال يطال يسوع، ولا أثر لنزاعه في البستان، ولا لصلاته قبل توقيفه، ولا لمحاكمته أمام قيافا والمجمع. وبدلاً من صرخة يسوع «إلهي إلهي لماذا تركتني» كما ينقل الإزائيون، كانت كلمة يسوع الأخيرة «لقد تمّ». ولا يذكر القديس يوحنا انتحار يهوذا ولا اللصين اللذين صلبا مع يسوع.

وفي المقابل، يتوسّع الإنجيلي الرابع في خبر المحاكمة الرومانية، وفي الحوار الذي دار بين يسوع وبيلاطس، حيث يظهر يسوع بصورة الملك والقاضي، حتى إن محاولة الجنود الاستهزاء به تتحوّل إلى إقرار بملوكيّته: إنّهُ الملك المعذّب الممجّد.

وينفرد القديس يوحنا في إبراد الاستجواب اللاهوتي الذي قام به حنّان لیسوع (١٨: ٢٠-٢١)، وما دار حول لوحة الصليب (١٩: ٢٢-٢٣)، وشرح معنى اقتسام ثوب يسوع (١٩: ٢٣-٢٤)، ووجود مريم أم يسوع والتلميذ الذي كان يسوع يحبه عند الصليب

أحد الذين يحتاجون إلى المشاعل ليواجهوا النور! فهو صورة الظلمة التي تسكن كل إنسان، وقد استسلم لها في حين كان قادرًا على أن يكون التلميذ الحميم الأمين.

١٨: ٤-٩ رئيس هذا العالم في مواجهة الرب خرج الجند والخدام ليلقوا القبض على يسوع، ولكنه هو من خرج للقاءهم، فهو صاحب المبادرة دائمًا. فقد عاش يسوع رسالته وهو عارف بكل شيء (را. ١: ٤٧-٤٨؛ ٢: ٢٤-٢٥؛ ٤: ١٧-١٨؛ ٦: ٦، ٦١، ٦٤؛ ١١: ١١؛ ١٢: ٢٧)، وعارف بالآلام التي سيعاني منها (١٣: ١، ٣)، وها هو يتقدم في طريقه نحو الصليب والمجد بكامل حريته وقدرته، وكأنه ينتظر الحدث. فلم يفاجئه حضور يهوذا ومراقبيه، ولم يترك له مجالاً ليدلهم عليه بقبلة (را. مر ١٤: ٤٤-٤٥؛ مت ٢٦: ٤٨-٤٩؛ لو ٢٢: ٤٧)؛ بل بادرهم بالسؤال «من تطلبون؟» (ع. ٤). وفي سؤاله تذكير بالجملة الأولى التي وضعها الإنجيلي في فم يسوع «مَاذَا تَطْلُبَان؟» (١: ٣٨)؛ وعندها وجه يسوع سؤاله إلى اثنين من تلاميذ يوحنا-المعمدان اللذين كانا يريدان أن يتبعاه؛ وهنا لا شيء من ذلك. فالذين يقتربون، يريدون، على العكس، أن يعيقوا مسيرته وعمله. نلاحظ سلبية يهوذا وصمته، وكأنه قد ذاب في مجموعة المعادين، فلا يقوم بشيء خاص ولا دل مراقبيه على يسوع؛ فيسوع هو من يسلم ذاته: «لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذْهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي» (١٨: ١٠).

وتسبب جوابه «أنا هو» بتراجع المعادين وسقوطهم. فإن قول «كلمة الله» هو قول صاعق. ويتسبب برهبة الإنسان أمام ظهور المقدس. وهم يطلبون الرجل الناصري، ابن الناصرة (١: ٤٥)، لكنه أمامهم «الأول والآخِر» (رو ١: ١٧)، صورة مجد الله وبهاؤه، والمتكلم باسمه. فإن اعتقل يسوع فذلك لأنه أراد ذلك وهو القادر، وليس لأنهم انتصروا عليه. فإنه من يتمم الأمر إلى الغاية، فيبذل نفسه عن أحبائه (ع. ٨) لأنه الراعي الصالح (١٨: ١٠)، الذي يخلص خرافه (١٠: ١١، ١٥، ٢٨) من السارقين الذين يحاولون دخول الحظيرة، كما يحاول أن يفعل يهوذا ومن معه (١٠: ١). وكما تمت الكتب في أعمال يسوع وأقواله، تم يسوع في أحداث حياته كل ما قاله (ع. ٩)، (را. ٦: ٣٦، ١٠: ٢٨؛ ١٧: ١٢)، فتحوّلت كلماته إلى مستوى كلمات الله المقدسة، وتحوّلت التقاليد إلى كتب مقدسة.

١٨: ١٠-١١ سيف بطرس وكلمة الرب وفي أثناء عشاء الوداع قال يسوع «حَيْثُ أَذْهَبُ أَنَا لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَأْتُوا»، وقد أجابه بطرس «يَا سَيِّدُ لِمَاذَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَتْبَعَكَ الْآنَ؟ إِنِّي أَضَعُ نَفْسِي عَنْكَ» (١٣: ٣٣، ٣٧). وكان تدخل بطرس مفاجئاً لكنه في غير مكانه. فقد رفض أن ينفصل عن يسوع وأعتبر أنه ما زال في خدمته، فضرب خادماً عظيم الكهنة. وقد حمى يسوع خاصته إذ قدّم نفسه ليذهب هؤلاء؛ ولكن بطرس أراد بقوته أن يحمي معلمه ويدافع عنه بالسيف

أتيت «لأخلص العالم» (١٢: ٤٧). وإن آلام يسوع هي ساعة تمجيده. **١٨: ١-٣ يسوع وتلاميذه في مواجهة يهوذا** وفرقة أنهى يسوع كلامه الوداعي وصلاته (ف. ١٤-١٧) ف«قال يسوع هذا»، و«خرج مع تلاميذه» (ع. ١) من أورشليم إلى مسافة تسمح بها الشريعة (تث ١٦: ٧) إلى بستان في عبر نهر قدرون، في الوادي الذي يفصل شرق أورشليم عن جبل الزيتون. ولكن الإنجيلي لا يذكر اسم المحلة، كما يفعل متى ومرقس اللذان يتفقان على أنها بستان جثسيماني (مر ٢٦: ٣٦؛ مر ١٤: ٣٢). ويضع يوحنا أبطال النص في الزمان والمكان، فالوقت ليل يحتاج إلى المصابيح والمشاعل، وشخصيات الحدث تنقسم إلى فريقين: يسوع وتلاميذه من جهة، ويهوذا والجند وخدام «رؤساء الكهنة والفريسيين» من جهة ثانية. وتوجه موكبان نحو المكان الذي كان من عادة يسوع أن يلتقي فيه مع خاصته. ولكن بدلاً من التوقف عند الموكب الأول، موكب يسوع وتلاميذه، يتوقف الراوي عند الموكب الثاني المؤلف من رجال مسلحين. فبعضهم من اليهود، وقد انتدبهم رؤساء الهيكل والمجمع؛ وبعضهم الآخر من الوثنيين، أي من مجموعة تدل عادة على فرقة رومانية من ألف رجل؛ ولن نتوقف عند الصعوبة التاريخية التي يطرحها حضور فرق الاحتلال وعددها. ولكن ألا يعني ذلك أولاً أن الكاتب أراد كشف اشتراك إسرائيل والوثنيين في توقيف يسوع، وإبراز قدرة الكلمة الإلهية التي تقلب الأمور وتقوى على قوة الأسلحة وعنفها؟

وبين الموكبين رجل يشكل قاسماً مشتركاً، وكان يجب أن يكون في الموكب الأول، لكنه يقود الثاني. ويعرف هذا الرجل مكان يسوع، بما أنه أحد التلاميذ؛ لكن «الشيطان ألقى في قلب يهوذا بن سمعان الإسخريوطي أن يسلمه» (١٣: ٢) فانتقل إلى العمل في أثناء العشاء الأخير. وكان الراوي قد أكد أنه في هذا الوقت «دخل الشيطان في يهوذا» وأشار إلى أنه «كان ليل» (١٣: ٢٧، ٣٠)، ففهم القارئ أن قائد هذه الفرقة هو رئيس الظلمات، لذلك هو بحاجة إلى مشاعل ليرى بوضوح. فمن «يمشي في الليل يعثر: لأن النور ليس فيه» (١٠: ١١). وأما التلاميذ فليسوا بحاجة إلى مشاعل لأن من قال «أنا النور» ما زال معهم لوقت قصير (١٢: ٣٥).

ويهوذا هو أحد تلاميذ يسوع لكنه، ومنذ بداية الإنجيل، هو من سيُسلم يسوع (را. ٦: ٦٤، ٧١؛ ١٢: ٢، ٤، ٥؛ ١٣: ٢، ١١، ٢١؛ ١٩: ١١). وكان يعرف الأماكن التي يرتادها مع التلاميذ عادة (را. لو ٢١: ٣٧؛ ٢٢: ٤٩)، فقد «الجند» الرومان و«الخدام» اليهود ليمسكوه واتفقت بهذا السلطات السياسية الرومانية، والدينية اليهودية ليتخلصوا منه. فإنهم صورة «رئيس هذا العالم» الذي يأتي لمواجهة المسيح، لكنه يبقى غير قادر عليه (١٤: ٣٠-٣١). ففي يو ١٣: ٢٧-٣٠، خرج يهوذا وكان ليل، فإذا به يصبح

لشخصيتين هما: حَنان الذي كان رئيس كهنة بين سنة ٦ و ١٥ ق.م. والذي كان ذا سلطة وتأثير كبيرين في أثناء ولاية أبنائه الخمسة، وقيافا صهره الذي كان في هذا المركز بين سنة ١٨ وسنة ٣٧ ب.م. فلعِب بالتالي دورًا أساسيًا في الحكم على يسوع (ع. ١٤؛ را. ١١: ٤٧-٥٣)، ولكن موت يسوع ظلماً سيحوّل إلى خلاص العالم.

١٨: ١٥-١٨ بطرس ينكر يسوع مرة أولى في يو ١٣: ٣٦-

٣٨ أعلن بطرس ليسوع أنه مستعد أن «يتبعه» على طريق الآلام حتى الموت. وكان همّه أن يتبعه ليدافع عنه كإنسان فلا يخسر المعلم التاريخي. وها هو الآن يحاول أن «يتبعه» على طريق الألم. ولم يبقَ «خارجًا» ولكن في حين دخل «التلميذ مع يسوع» إلى حيث سيواجه يسوع «رئيس هذا العالم»، بقي بطرس «عند الباب خارجًا» (ع. ١٦). بينما «التلميذ الآخر» «الذي يحبّه يسوع»، (را. ١٣: ٢٣، ٢٥؛ ١٩: ٢٦-٢٧، ٣٤-٣٥؛ ٢٠: ٢-١٠؛ ٢١: ٢-٨، ٢٠-٢٤)، سيتبعه فعلاً إلى الغاية ليشهد عن معنى الاتّباع الحقيقي (١٩: ٢٥-٢٧، ٣٤-٣٥). أما بطرس فهو هنا صورة التلميذ الذي لم يدرك بعد إلا ظاهر الأمور؛ إذ بقي خارجاً فوصل إلى النكران. ولم تتناول الخادمة في سؤالها (ع. ١٧) مسألة إيمان بطرس، بل طرحت أمر انتمائه إلى «التلاميذ» (ع. ١٧). وفي حين بادر يسوع طالبيه بقوله «أنا هو» مقدّمًا نفسه لأجل تلاميذه، بادر بطرس بالقول «لست أنا» رافضاً الانتساب إلى من بذل يسوع نفسه لأجلهم، وجلس مع الجماعة التي رافقت يهوذا في اعتقال يسوع (ع. ١٨). فقد جعل بطرس نفسه خارج جماعة التلاميذ، ودخل جماعة من هم ضدهم!

١٨: ١٩-٢٤ أمام حَنان وهنا قلب المقطع، لكننا لا نجد فيه

محاكمة كاملة الشروط ولا استجواباً كاملاً، فكل ما نقرأ هو سؤال يسوع عن «تلاميذه» وعن «تعليمه». ويمكن أن ننظر سؤالاً يُتّهم فيه يسوع بأنه اعتبر نفسه «المسيح» المنتظر، أو «الملك» المخلص، أو «ابن الله»، فلا نجد شيئاً من ذلك، أو ربما انتظرنا سؤالاً يتناول أولاً «تعليمه» ثم «تلاميذه»، فإذا بالإنجيلي يعكس الترتيب. فالأتهام يطال في الحقيقة ليس يسوع وحسب (فالإنجيل كُتب بعد القيامة بوقت طويل)، بل تلاميذه والتعليم الذي يبشرون به. وهو بهذا اتهام لاستمرارية التعليم الذي أتى به يسوع وللبشارة التي ينقلها تلاميذه (را. ١: ٢٢، ٢٧؛ ٤: ٢؛ مت ٤: ٢٣؛ ٥: ٢؛ لو ٥: ١٥، ٣٢؛ أع ١: ١). ويأتي جواب يسوع في ع. ٢٠ ليستعيد القسم الأول من الإنجيل (ف. ١-١٢). فإنّ التعليم الذي يسأل عنه حَنان، أعطي «للعالم» في «المجمع» (را. ٦: ٥٩) وفي «الهيكل» (را. ٥: ١٤؛ ٧: ١٤، ٢٨، ٣٧؛ ٨: ٢٠؛ ١٠: ٢٢-٢٣) ولكل «اليهود». فقد علّم وتكلّم يسوع «علانية»، ولكنّ تعليمه بقي «في الخفاء» لأنهم لم يؤمنوا به ولم ينقلوه إلى سواهم. فإنّهم «العالم» الذي لم يقبل ما يناقض تعاليمه وقوانينه فحكم على يسوع. فإذا «العالم» يعرف ويعرف

(ع. ١٠) فقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة. ولم يفهم بطرس بعد، وكذلك التلاميذ، الطريق التي اختارها الرب. فأراد دائماً أن يمنع عن يسوع خطر هذا المصير المؤلم (١٣: ٣٦-٣٨)، لأنّه لم يدرك أنّ الرب هو سيّد الأحداث، وأنّه من يحوّلها بإرادته بحسب مشروعه لخلاص البشرية. وظنّ بطرس أنّه بسيفه يخلص الرب، في حين أنّ تصرفه هو بالحقيقة خطر حقيقيّ أمام تتيم مشروعه. فالكأس هي مشروع إلهي، وليس للإنسان أن يحكم على هذا المشروع، بل يجدر به التجاوب معه كما فعل الرب يسوع «الكأس التي أعطاني الآب ألاّ أشربها» (ع. ١١)؟

فإن الطريق الإلهية هي طريق المجد ولو ظهرت للبشر أنّها طريق الألم والموت.

١٨: ١٢-٢٧ يسوع أمام حَنان يتألّف هذا المقطع من أربعة

مشاهد يتداخل فيها حدثان، الأول هو مثول يسوع أمام حَنان، والثاني هو نكران بطرس. فبعد أن مضوا بيسوع إلى حَنان (ع. ١٢-١٤)، يصل بطرس إلى دار عظيم الكهنة حيث ينكر يسوع مرة أولى (ع. ١٥-١٨)، ثم يأتي مشهد مثول يسوع أمام حَنان والمضي به إلى قيافا (ع. ١٩-٢٤)، وأخيراً مشهد نكران بطرس مرة ثانية وثالثة (ع. ٢٥-٢٧). وتجرى الأحداث ليلاً كما عند الإزائيين (را. مر ١٤: ٥٣-٧٢؛ مت ٢٦: ٥٧-٧٦؛ لو ٢٢: ٥٤، ٦٣-٧١)؛ ولكنّ يوحنا هو الوحيد الذي يؤكّد أن حَنان هو من استجوب يسوع؛ في حين يذكر مرقس أنّ رئيس الكهنة كان قيافا زوج ابنته، ولا يذكر استجواب يسوع، أمام هذا الأخير (مر ١٥: ١). كما أننا لا نجد في يوحنا ذكراً للحكم بالموت (را. ١٤: ٦٣؛ مت ٢٦: ٦٥-٦٦؛ لو ٢٢: ٧١)، ولا للاتهامات الموجهة إلى يسوع، ولا لتعذيبه من قبل الجنود والاستهزاء به (را. ١٤: ٦٦؛ مت ٢٦: ٦٧-٦٨).

وقد جعل يوحنا من القسم الأول من إنجيله (ف. ١-١٢) محاكمة ليسوع من قبل اليهود، الذين اتهموه بأنه ضد الهيكل (٢: ١٩)، وبأنّه ليس المسيح (١٠: ٢٢-٣٩)، وحكموا عليه بالموت (١١: ٤٧-٥٤)، ورفضوا كل رسالته (١٢: ٣٧-٤٣). وهذا النص يعكس أيضاً محاكمة لتعاليم يسوع التي يعيش تلاميذه بموجبها، وليس محاكمة لشخصه بالذات. وكأنّ النص انعكاس لمحاكمة المجمع اليهودي لتلاميذ يسوع في زمن الكنيسة.

١٨: ١٢-١٤ المضي بيسوع إلى حَنان اجتمع العالم الوثني

واليهودي ضد يسوع. فكل من: «الجدد والقائد وخدام اليهود» هم صورة كل الذين رفضوا يسوع مرسل الله الآب، «فقبضوا عليه» (ع. ١٢) وكأنّ رئيس هذا العالم قد انتصر و«أوثق» الرب جاعلاً إياه في موقف العاجز غير القادر على التحرك. وظهر يسوع وكأنّه تحت رحمة العالم الذي يمضي به إلى السلطة الدينية أولاً (ع. ١٢-٢٧)، وإلى السلطة الدنيوية بعد ذلك (١٨: ١٨-١٩: ١٦). ففي ع. ١٣ ذكر

تعاليمه (ع. ٢١)، ويظن أنه قادر على محاكمته.

ثم يحول يسوع سؤال حنّان إلى تلاميذه «اسأل الذين سمعوا». فقد صار التلاميذ حاملين تعليم يسوع والمولجين بالإجابة عن تساؤلات العالم؛ فعلى «اليهود» أن يعلموا بأن التلاميذ هم «القائمون مقام» المسيح أمام العالم.

وفي العددين ٢٢-٢٣ ينقل الإنجيلي حدث لطم الخادم ليسوع، ليظهر براءة يسوع، وليبرز أنه من يملك الحقيقة، وأن له الكلمة الأخيرة في كل الأمور، من دون أي ذكر للإهانات التي تعرّض لها كما ينقل الإزائيون (را. مت ٢٦: ٦٥-٦٨؛ مر ١٤: ٦٥؛ لو ٢٢: ٦٣-٦٥). وينتهي الحدث بما يقوله يسوع ليس دفاعاً عن نفسه بل ليضع ظالميه أمام الحق. ويبقى ع. ٢٤ وكأنه لغز لجهة تاريخية. فبعد مثول يسوع أمام حنّان، يأتي ذكر إرساله إلى قيافا من دون التوقّف أمام محاكمته أمام المجمع الذي يرأسه هذا الأخير. واعتبر الإنجيلي أن عدم إيمان العالم صار جلياً أكيداً، وأن محاكمته للمسيح قد تمت، وأن الحكم قد صدر: «أرسله موثقاً». وفي كل الأحوال لا يذكر الإنجيل أي محاكمة رسمية ليسوع من قبل المجمع؛ بل مجرد تحقيقات انتهت بحسب القديس مرقس بتمزيق رئيس الكهنة ثوبه إعلاناً عن استنكاره للتجديف الذي اعتبر أنه صدر عن يسوع (مر ١٤: ٥٥-٦٥).

١٨: ٢٥-٢٧ نكران بطرس الثاني والثالث في حين كان بطرس واقفاً يصطلي (ع. ٢٥)، خرج يسوع موثقاً يأخذونه إلى قيافا، فأعاد الخدم طرح السؤال عليه «ألست أنت أيضاً من تلاميذه؟» وأعاد بطرس الجواب عينه «لست أنا». ولكن الأمور بدأت تصعب عندما تعرّف إليه نسيب ملخس الذي «قطع بطرس أذنه». فهو شاهد عيان رآه في البستان (ع. ٢٦)، ومرةً ثالثة أنكر بطرس أنه «كان معه»، فأنكر معلمه وكل علاقة شخصية بيسوع، وصاح الديك (ع. ٢٥).

ولا يذكر يوحنا ردة فعل بطرس عند صياح الديك (لو ٢٢: ٦٠-٦٢). فلقد تمّ ما قاله يسوع (١٣: ٣٨)، ولم يستطع بطرس أن يتمّ ما وعد به: «إني أضع نفسي عنك» (١٣: ٣٧)؛ بل سقط أمام أول امتحان فأنكر المسيح وعلاقته به، ولن يقدر على العودة إلى الإيمان إلا بمبادرة جديدة يقوم بها يسوع، موضحاً له مرةً جديدة معنى الاتّباع وبذل الذات (٢١: ١٥-١٧). وعند الصعوبة، ظهر بطرس وكأنه صورة معكوسة للمسيح. ففي حين قدّم يسوع نفسه بدلاً من تلاميذه: «أنا هو»، تراجع بطرس ولم يعترف بتلاميذ المسيح ولا بالمسيح نفسه «لست أنا». وأمام الخيار بين أمان العالم وصعوبة الإيمان بيسوع، اختار بطرس أمان العالم. وهذا هو الخيار المطروح أمام المؤمنين المسيحيين منذ البدء وحتى اليوم، والسؤال يبقى مطروحاً: ماذا أختار؟

١٨: ٢٨-١٩: ١٦ يسوع أمام بيلاطس بعد السلطات الدينية اليهودية، نرى يسوع أمام السلطات السياسية الرومانية (١٨: ٢٨-

١٩: ٢٦) التي ستحكم عليه بالصلب (١٩: ١٦-٢٢) تحت ضغط السلطات اليهودية. ويتقارب نصّ يوحنا حول المحاكمة المدنية مع ما ورد في إنجيل مر ١٥: ١-١٥، مع إضافة يوحنا لمشهدي باراباس، والهزء بيسوع «الملك». ولكن الأهم هو أن يسوع عند يوحنا يظهر سيّد الموقف، يناقش ويصحّح ويعلم معنى الملوكية.

ويبني يوحنا نصّ محاكمة يسوع أمام بيلاطس بطريقة لاهوتية واضحة تلعب فيها الأمكنة دوراً أساسياً. فنرى بيلاطس خارجاً (١٨: ٢٩)، ثم داخلاً (١٨: ٣٣)، فخارجاً (١٨: ٣٨)، وخارجاً من جديد (١٩: ٤)، فيخرج يسوع (١٩: ٥)، ويدخل بيلاطس مجدداً (١٩: ٩)، ويقود يسوع إلى الخارج (١٩: ١٣). وفي الخارج حيث العالم الرافض لرسالة الرب، يواجه بيلاطس اليهود، وفي الداخل هو أمام يسوع الذي يعلن رسالته، إذ يقتنع ببرأته لكنه لا يجد سبيلاً إلى الحقيقة. وفي النهاية، يلتقي اليهود وبيلاطس ويسوع لإصدار الحكم المبرم.

وبالإضافة إلى الأمكنة، يعطي الإنجيلي دوراً مهماً للأزمة. فبعد ليل التوقيف، والمثول أمام السلطة اليهودية، ونكران بطرس، يأتي الصبح (ع. ٢٨). وليست المحاكمة أمام بيلاطس سوى بداية ستؤول إلى الصليب وتتام الأزمة (١٩: ٣٠). وبني اليهود كل انتظاراتهم حول مجيء المسيح الملك، فإذا بهم يعلنون: «ليس لنا ملك إلا قيصر» (١٩: ١٥)؛ أما بيلاطس المختار بين الداخل حيث يسوع، والخارج حيث من يريدون قتله، فسيختار الاصطفاف مع «العالم»، ولن يعرف الحقيقة (١٨: ٣٨). ووحده يسوع الذي يظهر وكأنه الضحية، هو في الحقيقة المنتصر لأنه يعرف أنه «ذاهب إلى الآب».

١٨: ٢٨-٣٢ أمام بيلاطس: في الخارج اليهود يطالبون بمحاكمة يسوع ولم ترسل السلطات يسوع مع الجنود والخدم كما عند اعتقاله، بل اليهود أنفسهم هم الذين «جاؤوا بيسوع» (ع. ٢٨، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٣٨: ١٩: ٧، ١٢، ١٤)، ومع رؤساء الكهنة (١٨: ٣٥: ١٩: ٦، ١٥). فقد أرادوا أن يتوصلوا إلى حكم بشأن يسوع، فكان لا بدّ لهم من التوجّه إلى «دار الولاية» الذي ربما يكون في قلعة أنطونيا قرب الهيكل، أو في القصر الذي بناه هيرودس بالقرب من باب يافا الحالي.

و«كان صبح». فقد كان معروفاً في القانون اليهودي خطر إصدار الأحكام بالموت في أثناء الليل؛ والقانون مقدّس. وكما كان محظوراً دخول أماكن الوثنيين المنجّسين لئلا تنتقل عدوى النجاسة إلى اليهود الأطهار بخاصّة أن العيد الكبير اقترب، ولا وقت للقيام بطقوس التطهير قبل أكل الفصح ليلة العيد. وتأتي هذه النقطة لتشكل اختلافاً تاريخياً مع الأناجيل الإزائية، التي اعتبرت أن يسوع أكل عشاء الفصح مع تلاميذه قبل الصلب؛ في حين يقول يوحنا أن اليهود لم يكونوا قد أكلوا الفصح بعد، مما يعني بأن يسوع احتفل بعشاءه

ليهود تلك الأيام، الملك المسيح المخلص، الذي سينتهي عهد الاحتلال الأجنبي (را. ١٥: ٦: ١٨: ٣٣-٣٥: ١٩: ١٢، ١٩-٢٢)، وهو ما حاول يوحنا توضيحه للابتعاد عن المعنى السياسي (را. ١: ٤٩: ١٢: ١٣). أما بالنسبة إلى الرومان، فكان اللقب لا يعني إلا انتفاضة سياسية وثورة ضد الحكم القائم، تستحق لفاعلها الصلب. وقد فهم يوحنا وتلاميذ يسوع والمسيحيون الأوائل اللقب على ما أوضحه يسوع في أجوبته.

وعن هذا السؤال يجيب يسوع بسؤال، فيتحوّل من مذنّب في موقف الاستجواب، إلى قاض في موقف المستجوب. وفي سؤاله يحذّر يسوع بيلاطس من خطر الوثوق بكذب من يكذبون، فيجبره على العودة إلى ذاته والتساؤل عما يعرفه حقاً.

ونجح يسوع في إظهار بيلاطس لعجزه عن التمييز، وعلى الرغم من احتقاره لليهود، فقد أخذ مكانه إلى جانبهم، بعد أن أقرّ بأن الشكوى ليست منه بل من السلطات اليهودية الدينية والمدنية «أمّتك ورؤساء الكهنة» (ع. ٣٥: ١٨: ٣، ٢٨). ثم طرح سؤاله الثاني «ماذا فعلت؟» ما هو الفعل الذي استحقّ الشكوى ضدك؟ وبدلاً من التبرير، يجيب يسوع «مملكتي ليست من هذا العالم» (ع. ٣٦). وفي جوابه يؤكد أنه ملك، مع نفيه الشكوى ضده. فإنه ملك بالطبع ولكن ليس بحسب «هذا العالم»؛ فقيم مملكته وهيكلتها وهدفها لا تعود إلى هذا العالم، إذ إنّها مملكة إسخاتولوجية، لا علاقة لها بسياسة بيلاطس، ممّا ينفي كل أساس للشكوى. وهي مملكة لا علاقة لها بالحبس الوطني؛ بل هدفها إعلان «من هو الله» الذي لم يعرفه أحد إلا «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب» (١: ١٨). فإنّها مملكة «الآن ليست مملكتي من هنا» ولكنها هنا (ع. ٣٦).

وبعد إعلانه عمّا ليس بمملكته، يجيب يسوع عن السؤال الثالث: «أفأنت إذاً ملك؟» معلناً أنه ملك، وشارحاً معنى هذا الملك (ع. ٣٧-٣٨). ففي جوابه «لهذا قد ولدتُ أنا»، تأكيد على إنسانيته وتاريخية وجوده، أمّا في قوله «أتيت إلى العالم» فتأكيد، على أنه ليس من هذا العالم، وأنه أتى رسولاً للآب (را. ١: ١٤)، وهو الشاهد الحق، وكلامه موثوق به لأنه كلام الله (را. ١٤: ٦). وكل من يعرف هذه الحقيقة يمكنه دخول مملكة الحق إن أراد ذلك، وبيلاطس أمام خيار واضح: إمّا منطق العالم، وإمّا سماع صوت يسوع أي الإيمان به وبما يعلنه عن الله. ولكن النصّ يُختم بسؤال مفتوح: «ما هو الحق؟» وعرض يسوع الحقيقة أمام بيلاطس، ولكنه لم يسمع فلم يصل إلى الجواب. فإنه في خطّ اليهود الذين لا يفهمون لأنهم لا يريدون أن يسمّعوا (ع. ٨). فبيلاطس، واليهود هم في الوضع عينه، وقد اتخذوا قرارهم في إزالة الحق من طريقهم ليقبوا في ظلامهم.

١٨: ٣٨ ب-٤٠ خارج دار الولاية: يسوع وباراباس اقتنع بيلاطس ببراءة يسوع، فخرج يعلنها أمام اليهود (ع. ٣٨ ب) الذين

الفصحى قبل ذلك، فيكون يسوع قد صُلب يوم ١٤ نيسان يوم تحضير الفصح، لأنّه هو الحمل الفصحى الحق الذي «عظم لا يكسر منه» (١٩: ٣٦: ١. ١ كو ٥: ٧-٨).

وبقي اليهود خارجاً ولم يدخلوا إلى حيث هو الرب، فانقطعت العلاقات بينهم وبينه نهائياً. ولكن في الوضع ما يؤلم: انفصلوا عن الرب لأسباب دينية فكان ذلك انفصالا عن الله الحق!

وفي ع. ٢٩ بداية خبر محاكمة يسوع المدنية بواسطة ممثلها بيلاطس، الذي كان والياً على اليهودية والسامرة بين السنوات ٢٦-٣٦ ب. م.، وكان يسكن عادة في مدينة قيصرية وينتقل أيام الفصح إلى أورشليم تحسباً لأي طارئ أمني. وكان بيلاطس يتمتع بسلطات قانونية تامة تؤهله للنظر في القضايا وإصدار الأحكام، وهو ما يظهر من محاكمته ليسوع.

وعُرف بيلاطس باحتقاره لليهود وخشونته في معاملتهم، ممّا تسبّب في إقالته وإبعاده إلى روما، مما يؤكد أن السيناريو الذي يقدمه يوحنا في سرده للأحداث من حيث خروج بيلاطس ودخوله لمحاورة اليهود، هو أسلوب لاهوتي أكثر من كونه نقلاً دقيقاً لتفاصيل ما حدث. ويفتح بيلاطس المحاكمة بالسؤال: «أية شكايّة تقدّمون على هذا الإنسان» (ع. ٢٩)؟ فلا ينال منهم جواباً مباشراً: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلٌ شَرًّا لَمَّا كُنَّا قَدْ سَلَمْنَاهُ إِلَيْكَ» (ع. ٣٠: ١٩: ٧)؛ وهذا كان مجرد إعلان عن كونه «فاعل شر»، وعن «تسليمه»، وفي هذا إشارة ضمنية تعني انتظارهم إعلانه الحكم عليه بالموت، بما أن القانون لا يجيز لهم إصدار أحكام الإعدام. وعدم وجود سبب قانوني واضح، جعل بيلاطس يطلب منهم استعادة يسوع لمحاكمته بحسب الشريعة، ممّا أجبرهم على الإقرار بعدم قدرتهم «على القتل» (ع. ٣١) بالرغم من إرادتهم فعل ذلك (٥: ١٨: ٧: ١، ١٩، ٢٥: ١١: ٥٠-٥٣)، وهم في انتظار أن ينفذه الروماني. لو نفذ اليهود الحكم، لكان يسوع مات رجماً بالحجارة، في حين أنه أعلن «أنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب إليّ الجميع... مُشيراً إلى آية ميتة كان مزمعاً أن يموت» (١٢: ٣٢-٣٣). وبالرغم من أن يسوع سيَموت صلباً على طريقة الرومان، ولكنه سيّد كل الأحداث، وصلبه ليس سوى ارتفاع وخلص للجميع.

١٨: ٣٣-٣٨ في الداخل: استجواب بيلاطس ليسوع تفرّد يوحنا في سرد ما جرى بين بيلاطس ويسوع داخل دار الولاية، وقد رتب النصّ حول ثلاثة أسئلة يطرحها بيلاطس فيجيب عنها يسوع وتنتهي بتساؤل الوالي «ما هو الحق؟» (ع. ٣٨). وموضوع السؤال الأول، والثالث هو «ملك يسوع» (ع. ٣٣، ٣٧) ويأتي جواب يسوع عن السؤالين الثاني والثالث ليشرح معنى ملكه.

ويحدّد بيلاطس الشكوى ضدّ يسوع بموضوع واحد هو «زعمه أنه ملك اليهود» (ع. ٣٣)، وهو ما لم يرد على لسان اليهود الذين شكوه وسلموه (را. ١٩: ٢١). وكان لقب «ملك اليهود» يعني،

الشعب اليهودي، في حين أنه كان قد ذكر دور السلطات (١٨: ٣٥؛ ١٩: ٦، ١٥)، ودور اليهود (١٨: ٣١، ٣٨؛ ١٩: ٧، ١٤) في اتهام يسوع. ولم يؤدّ منظر يسوع المضحك إلى الاستهزاء؛ بل إلى التشدد والقسوة في المطالبة بصلبه، ممّا دفع بيلاطس إلى موقف ساخر: «خُذُوهُ أَنْتُمْ وَأَصْلُبُوهُ»، بعد تأكّده من أنه لم يجد «فيه علة» (ع. ٦: ١٨: ٣١). وفهم اليهود سخريّة الوثن من مُرائتهم، فهم الذين تمنعهم شريعتهم من القتل فيلجأون إلى الوثن لينفذ لهم رغبتهم في قتل بريء، محاولين ابتداء تهمة أخرى (ع. ٧).

ويوجد في الشريعة سببٌ يسمح بقتل كل من يجتدّف على اسم الله (لا ٢٤: ١٥-١٦)، وكان الصدوقيون يحكمون بالقتل من دون هوّادة على كل من يُذنب على هذا الصعيد. وهنا يلتقي يوحنا مع الإزائيين الذين يعتبرون أن «التجديف» كان من أهمّ التهم التي ألصقت بيسوع أمام المجمع (را. مر ١٤: ٥١-٦٤؛ مت ٢٦: ٦٣-٦٦).

وأعلن يسوع أكثر من مرّة أنه رسول الله وأنّه و«الأب واحد» (١٨: ١٠؛ ٣٣: ١٠) فاستحقّ على ذلك محاولة رجمه (٨: ٥٩؛ ١٠: ٣١). وقد وجد اليهود في ذلك ورقة ضاغطة ليتراجع بيلاطس عن موقفه، من دون أن يطلبوا رجمه بأنفسهم. وكان على بيلاطس، أن يردّ هذه التهمة الجديدة، لأنها لا تمتّ إلى السياسة بصلّة، بل هي تهمة دينيّة بحته يعود البتّ فيها إلى السلطات الدينيّة. ولكنّ المقصود الوحيد، كان التمسك بالمتهم للوصول به إلى الحكم بالموت لأيّ سبب كان.

وفي كل الأحوال، من دون أن يدري، حكّم «العالم» على المسيح «ملك اليهود» لأنّهم لم يؤمنوا بأنّه «ابن الله». فالمسيح هو الملك لأنّه ابن الله، وقد أدّى عدم الإيمان به إلى محاولة محوه من العالم.

١٩: ٨-١٢ داخل دار الولاية: «بيلاطس يستجوب يسوع ثانية» وفي تكرار للاستجواب الأول حول ملوكيّةه، يعود بيلاطس ليسأل يسوع عن مصدر سلطته، فلا ينال سوى الصمت (ع. ٨-٩)، ممّا يجعله يعلن قدرته، فيعيده يسوع إلى مصدر هذه القدرة (ع. ١٠-١١). ويختتم الإنجيليّ المشهد على نيّة بيلاطس إطلاق يسوع وإصرار السلطات اليهوديّة على قتله (ع. ١٢).

ولا يذكر القديس يوحنا إن كان خوف بيلاطس (ع. ٨) متأثراً من إمكانية اندلاع ثورة شعبيّة في أثناء الفصح؛ أو من ظنّه باحتمال أن يكون يسوع كائنًا إلهيًا؛ أو مجرد خوف على سلطته والسلطة الرومانيّة أمام تائر بيغي السلطة. وسأل يسوع عن هويّته «من أين أنت؟» والمقصود بحسب يوحنا إبراز أن مسيحيّة يسوع هي سبب صراعه مع اليهود (را. ٧: ٢٥-٢٩؛ ٨: ٢٤؛ ٩: ٢٩)، ولكنّ يبقى يسوع صامتا عن هذا الموضوع الصعب، الذي لا يمكن أن يفهمه من رفض سماع كلامه (١٨: ٣٧).

وأمام تذكير بيلاطس بسلطته المطلقة عليه (ع. ١٠)، جاء جواب

سيحوّلون إلى الفاعلين الأساسيين في القضية. وكان يمكن للوالي إطلاق يسوع بعد اقتناعه بعدم وجود علة عليه، ولكنه عرض على اليهود إطلاقه، وهو ما رفضوه مفضلين عليه إطلاق «اللس» باراباس (ع. ٤٠). ووقعوا ضحيّة عماهم، ووقع بيلاطس ضحيّة خنوعه وعدم سماعه الحق؛ وبقي يسوع وحده الأمين لرسالته إلى الغاية.

١٩: ١-٣ داخل دار الولاية: جلد يسوع والاستهزاء بالمسيح الملك وقبل إعلان الحكم النهائي، لا بل قبل انتهاء المحاكمة، ينقل القديس يوحنا مشهد جلد يسوع والاستهزاء بملوكيّةه. وربّما ظنّ بيلاطس أنه بذلك يروي ظلماً لليهود بالنيل منه فيتراجعون عن المطالبة بموته. وقد «أخذ» بيلاطس يسوع وكأنّه القادر على أخذ المبادرات، ثم «جلده» مظهرًا إيّاه رجلاً مذلولاً محتقراً أمام الجميع (ع. ١). وهذا ما يكمله مشهد الاستهزاء بملوكيّة يسوع (ع. ٢-٣) الذي يتضمّن أربعة عناصر: إكليل الشوك، وثوب الأرجوان، والسلام الملكي، واللطم.

ونجد مشهد الاستهزاء بيسوع في الأناجيل الإزائية أيضاً (را. مر ١٥: ١٥، مت ٢٧: ٢٦؛ لو ٢٣: ١٦-٢٢)، التي تبرز وجه يسوع البار المتألم الذي أسلم إلى الأمم؛ أمّا عند يوحنا فيظهر يسوع أمام اليهود ملكاً مكلّلاً (١٩: ٥)، وقد أعطي الثوب والقب الملكتين، ولم يُنزعا عنه بعد ذلك. وفي محاولته الاستهزاء بيسوع، أظهر العالم حقيقة يسوع: إنّه الملك غير المعروف والمرفوض. فإنّ ملوكيّة يسوع هي صورة عن لاهوت الصليب.

١٩: ٤-٧ خارج دار الولاية: «هذا هو الرجل» يتفرّد يوحنا بسرد هذه الواقعة، وسط صراخ اليهود «أصلبه» (را. مر ١٥: ١٣-١٤؛ مت ٢٧: ٢٢-٢٣؛ لو ٢٣: ١٨-٢٣) ويقف بيلاطس في الخارج من جديد (را. ١٨: ٣٨ ب-٤٠)، ومن جديد يعترف ببراءة يسوع، أمام قسوة اليهود وعداوتهم التي ستصل إلى الانفصال النهائي في الأعداد ١٢-١٥. وبأسلوب مسرحي واضح، ينقل يوحنا خروج بيلاطس للمرّة الثالثة إلى حيث اليهود (ع. ٤؛ را. ١٨: ٢٩، ٣٨ ب)، ليظهر أمامهم صحّة موقفه من براءة يسوع: «أُخْرِجْهُ إِلَيْكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً وَاحِدَةً» (ع. ٤). وفي إظهاره يسوع مذلولاً من دون كرامة، برهان على عدم وجود أساس لاتهامهم إيّاه بالمطالبة بالملك، فهي هو وحيد، محتقر، لا شعبيّة له، ولا رجال يطالبون بإطلاقه؛ فلا يمكن لضعيف كهذا أن يكون من الثوار، أو أن يشكل خطراً ما.

«هُذَا الْإِنْسَانُ» (ع. ٥) الذي تتهمونه. فكيف يمكن لإنسان كهذا يستحقّ الشفقة، أن يخيف السلطات؟

ولكنّ عبارة «هُذَا الْإِنْسَانُ» تحمل أكثر من هذا المعنى، فتحت مظاهر الإنسان المهان، يقدّم الإنجيلي الإنسان-الإله الذي أتى من الآب وإلى الله يمضي، هو الإنسان الذي يكشف حقيقة الله للعالم. وفي ع. ٦ تصوير لردّة فعل السلطات اليهوديّة من دون ذكر

ليحمل صليب يسوع (را. مر ١٥: ٢١؛ مت ٢٧: ٣٢؛ لو ٢٣: ٢٦). أمّا موضع الصلب فتلة «الجمجمة» خارج المدينة. ولم يتوقف يوحنا عند تفاصيل الصلب بل اكتفى بذكر الحدث، وكأنّه يهدف، لا إلى إبراز آلام الرب والظلم الذي لحق به، بل إلى ارتفاعه وتمجيده على الصليب. ويذكر يوحنا أيضاً مصلوبين مع المسيح لكنّه لا يقول بأنّهما لصان (را. مر ١٥: ٢٧؛ لو ٢٣: ٣٣)، فيسوع المصلوب ملك أخذ مكانه في الوسط، وليس بين اللصوص (ع. ١٨). ويعطي يوحنا مكاناً وأسعاً لمشهد لوحة الصليب، فالمصلوب هو «الناصري»، في إشارة إلى الناصرة، وهو «ملك اليهود». وما أراد به بيلاطس أن يكون لقباً يهزأ بالمصلوب، كان فعلياً إعلاناً لهويّة يسوع الحقيقيّة: صلب اليهود ملكهم! وتبرز هذه اللوحة المفارقة الكبرى في حدث الصليب: إنّ ما يظهر أمام العالم فشلاً ذريعاً لرسالة يسوع، ليس في الحقيقة سوى تنويع ملوكيّ نهائيّ له. وقد وعت السلطات اليهوديّة أبعاد هذه اللوحة فحاول المسؤولون تصحيحها لرفع المسؤوليّة عنهم (ع. ٢١-٢٢)، ولكن الحقيقة لا يمكن أن تتغيّر: يسوع هو الملك.

وقد كان يحق للجنود المسؤولين عن تنفيذ الحكم أن يستولوا على كلّ ما يملك المحكوم عليه (ع. ٢٣). وهذا ما تمّ مع يسوع على مرحلتين. في البدء اقتسموا ثيابه، ويذكر يوحنا أنّهم كانوا أربعة، ثم اقترحوا على قميصه المنسوج من دون خياطة (ع. ٢٤، را. مز ٢٢: ١٩)، فتمّت إرادة الرب (را. مر ١٥: ٢٤؛ مت ٢٧: ٣٥؛ لو ٢٣: ٣٤). وكان القميص لباس الكهنة، ممّا يشير إلى إمكانية اعتبار يوحنا يسوع الكاهن الأعظم الذي يقرب ذاته بدلاً من تقريب حمل الفصح، فإنّه كاهن ذاته، وهو المقرب والمقرب. ولكن يجدر بنا أيضاً الانتباه إلى إرادة الإنجيلي الرابع في التشديد على وحدة الكنيسة من خلال وحدة التلاميذ (را. ١٠: ١٦؛ ١١: ٥٢؛ ١٧: ٢١-٢٢)، فبعد أن تخلّى يسوع عن ذاته تماماً لأجلهم، هذا القميص يجب ألاّ يشقّ أبداً.

وانطلاقاً من حدث وجود النساء الأربع قرب صليب يسوع (ع. ٢٥)، يتقرّد القديس يوحنا بنقل كلام وجهه يسوع إلى أمه وإلى تلميذه الحبيب. ففي مقابل الجنود الأربعة الذين اقتسموا ثيابه، تظهر النساء الأربع كصورة لجماعة المؤمنين الذين لم يجعلهم الصليب يهربون أو يستفيدون مستهزئين. فقد مات يسوع مرتفعاً بين خاصّته؛ وبين هذه المجموعة يركّز الكاتب الاهتمام على شخصيتين هما: «أم يسوع» و«التلميذ الحبيب». وفي إنجيله، طالما ذكرهما الإنجيلي بهذين اللقبين وكأنّ لا اسم لهما، ليس لأنّه لا يعرف اسميهما، فالطريقة التي يقدّمهما بها تعكس طبيعة العلاقة الحميمة التي تربطهما بيسوع. ويتكلّم يسوع كملك من أعلى عرشه فيما هما يصمتان، فالمطلوب الوحيد منهما هو تنفيذ إرادة الملك الأخيرة، المتعلّقة بتنظيم العلاقات بين خاصّته في زمن ما بعد ارتفاعه. ودعا

يسوع يعارضه مذكراً إياه من جهة بأن مصدر هذه السلطة، هو من فوق، ومحدداً من جهة أخرى المسؤول عن موته (ع. ١١). فمصير يسوع ليس متعلّقاً بإرادة بيلاطس الذي يظن أنّه كليّ القدرة، بل بالله مصدر السلطة. وبالمقابل ليس يسوع ضعيفاً، بل حرّاً، له السلطان على حياته (را. ١٠: ١٧-١٨). والخطيئة الأعظم تبقى على «العالم» الذي رفض الإيمان والتمثّل بالسلطات اليهوديّة. فلقد كان على الوالي أن يأخذ قراره الحاسم (ع. ١٢)، فخضع لليهود وللمنطق السياسي: «لست محباً لقيصر» (ع. ١٢).

١٩: ١٣-١٦ الحكم على يسوع إنّهُ المشهد النهائي في المحاكمة، وكأنّه تكرر لما جرى في الأعداد ٤-٨. فيخرج بيلاطس ويقدم يسوع لليهود مُعلناً هويّته الحقّة (ع. ١٣-١٤)، فيصرخون طالبين صلبه؛ ويتكلّم بيلاطس ثانية فيكرّر اليهود موقفهم (ع. ١٥)، ويصدر الحكم (ع. ١٦).

فقد خرج بيلاطس ويسوع إلى ساحة «العالم» الراض كلام الله ووحيه، وجلس على كرسي الحكم! ويمكن للفعل اليوناني أن يعني «جَلَسَ» أو «أَجْلَسَ»، وكأنّ الكاتب قصد أن يترك القراء أمام حيرة وجوديّة. ففي حين يجزم المنطق بأن بيلاطس هو الذي يجلس على كرسي الحكم، يبقى السؤال مطروحاً: من هو الملك الحقّ والديان الحقّ؟ ويحدّد يوحنا الوقت بدقة: إنّها الساعة السادسة من يوم الاستعداد للفصح أي ١٤ نيسان، ساعة تحضير الخراف للتقدمة الفصحية في الهيكل. ويسوع هو الحمل المذبوح، لكنّه الواقف دياناً لخلاص العالم أجمع. ويقدمه بيلاطس للشعب مستهزئاً بهويّته «هوذا ملككم» (ع. ١٤). وهنا تستعمل السلطات اليهوديّة ضغطها على الوالي الحاكم مطالبة بصلبه (ع. ١٥). فعند هذا الحدّ يطرح بيلاطس سؤالاً فيه مفارقة أكيدة: «أأصلب ملككم؟» والمقصود، إنّهُ إن كان ملكاً فلا أحد يمكن أن يدينه، وإن لم يكن فلا تهمة عليه. ولكن اليهود، في جوابهم «ليس لنا ملك إلا قيصر»، فكتّلوا انتظاراتهم المسيحانية، كما قتلوا رجاء شعبهم، ففقدوا هويّتهم. ولم يلتزم بيلاطس بقناعاته، بل خضع لمشيتهم فكان الحكم المبرم (ع. ١٦): «أسلمه إليهم ليصلب»؛ «أسلمه للعالم».

١٩: ١٦-٣٧ صلب وموت يسوع يتألّف هذا المقطع من قسمين: صلب يسوع ١٦ب-٢٢، وموته ٢٣-٣٧. ويمكن تقسيم القسم الأول إلى جزئين: الأعداد ١٦ب-١٨ كلام عن طريق الآلام، والأعداد ١٩-٢٢ كلام عن اللوحة المكتوبة على الصليب.

وبدأ التنفيذ فوراً بعد إصدار الحكم «أخذوه ومضوا به» (ع. ١٦ب)، والكلام عن الجنود الرومان الذين حملوه الصليب مباشرة من دون إخضاعه إلى عذابات أخرى، على خلاف ما في الأناجيل الإزائية (را. مر ١٥: ١٦-٢٠؛ مت ٢٧: ٢٧-٣١). ولا نجد عند يوحنا ذكراً لسمعان القيرواني الذي يتكلّم الإزائيون عن تسخيره

ومشهد طعن يسوع هو مشهد خاصّ بالإنجيل الرابع، لا مقابل له في الأناجيل الإزائية. فبعد «أن أسلم يسوع الروح»، ينقل يوحنا حادثاً طلب اليهود من بيلاطس كسر سيقان المصلوبين للتعجيل في موتهم، ورفع الجثث قبل حلول العيد العظيم، تطبيقاً لأحكام الشريعة (تث ٢١: ٢٢-٢٣). فأرادوا أن ينهوا وجوده، فكان عليهم أن ينظروا «إلى الذي طعنوه» (ع. ٣٧). وفي حين كان لا يزال المصلوبان الآخرا على قيد الحياة حيث كسروا سيقانهما، كان يسوع «قد مات». ولتأكيد هذا الموت كانت «طعنة الحرب» (ع. ٣٤).

وفي ع. ٣٥ تأكيد على صحّة الشهادة الإيمانية والتاريخية التي نقلها الشاهد العيان، والتي أخبرها الكاتب في ع. ٣٤. فالحدث أكثر من تفصيل تاريخي، إذ أنّه شهادة إيمان تناقلها المؤمنون منذ البدء، وعليها تقوم الكنيسة. ويستند إيمان الجماعة المسيحية على ما «عاين الشاهد» لكي «يؤمن» المؤمنون.

فحدث الصليب والموت وفيض الروح محوريّ في الكرازة المسيحية، وصحّته أساسية في نقله، وهو ما يبرزه يوحنا بحيث تتأكد الجماعات من صدقية البشارة التي وصلتهم وأسسها الكتابية (ع. ٣٦-٣٧). وتأتي المراجع الكتابية في خر ١٢: ٤٦ وعدد ٩: ١٢، والكلام عن الفصح وذبح الحمل، ليؤكد أنّ المسيح هو الحمل الحق؛ وفي زك ٩-١٤ الذي يتكلم عن شاهد هو شهيد مرسل من قبل الله، وممثل له، ليؤكد على أن موته سيؤدي إلى إعادة ولادة شعب الله، وانبثاق روح محبة وتشفع على غير ما أراد القاتلون. فإنّ المسيح المصلوب، حاضر دائماً لجماعته بعد ارتفاعه.

١٩: ٣٨-٤٢ تكفين ودفن المسيح وهذا هو المشهد الأخير
من أحداث الآلام. ويبدو أنّه كان ليسوع العديد من التلاميذ الذين ظلّوا في الخفاء لخوفهم من إعلان الإيمان الذي يسبّب لهم الطرد من المجمع، وبالتالي التهميش الاجتماعي والديني، ومنهم «يوسف الذي من الرامة»، ونيقوديموس الذي أتى إلى يسوع ليلاً (را. ٣: ١-٢١؛ ٧: ٥٠-٥٢). وقد طلب الأول جسد يسوع من بيلاطس فاستجاب هذا الأخير (ع. ٣٨)، فأتى يوسف وأخذ الجسد ليلاً، لنلأ يلقى في الحفرة الجماعية المعدة للأشرا المحكومين بالموت. فإنّ التلاميذ الذين ما كانوا يجرون على الاعتلان، أعلنوا إيمانهم بكلّ جرأة أمام الصليب على الرغم من كل المخاطر!

وحمل نيقوديموس معه كمية ضخمة من الطيوب (حوالي ٣٣ كجم) لدهن الجثة قبل تكفينها.

فبعد ذلك «لفاه بأكفان» على عادة اليهود في ذلك، من دون إهمال أيّ تفصيل فهذا من واجب الاحترام تجاه الرب، ثم وضعاه

التلميذ إلى أخذ مكانه لناحية الاهتمام بأمّه، ابنة صهيون المؤمنة التي ساهمت منذ البداية في العمل لاكتمال الأزمنة المسيحية، وافتتاح زمن عرس حب الله لشعبه (٢: ١-١١). فبعد أن أطلقت حركة الشعب تجاه الرب، من خلال وضع ابنها في أجواء النقص الذي يعاني منها شعبها/شعبه، مستبقة الآية العظيمة في «الآية الأولى» آية قانا، ها هي تكمل دورها بأن تكون «المرأة» الشاهدة والمشاركة في هذه الآية العظيمة. ولم تعد مريم «أم يسوع»، بل صارت «المرأة»، صورة شعب الله المؤمن الحق التي ترافق التلميذ الحق ليولفاً معاً العائلة الفصحية الجديدة، شعب الله الجديد. وتمت الساعة عندما «أخذها التلميذ إلى خاصته» (ع. ٢٧). فإنها ساعة ارتفاع يسوع، وولادة عائلته الجديدة.

ومشهد موت يسوع نقرأه في الأناجيل الأربعة (را. مر ١٥: ٣٣-٣٩؛ مت ٢٧: ٤٥-٥٠؛ لو ٢٣: ٤٤-٤٦)، ولكن ما يلفت القارئ هو إغفال الإنجيل اليوحناوي بعض التفاصيل، وإدخاله أخرى لا نجدها إلا عنده. ففي الإنجيل الرابع لا وجود للعلامات الرؤيوية المرتبطة بموت يسوع من ظلام، وزلزال، وانشقاق لحجاب الهيكل، ولا ذكر لإعلان إيمان القائد الروماني، ولا لصرخة يسوع وإحساسه بالوحدة (را. مر ١٥: ٣٤؛ مت ٢٧: ٤٦)، ولا لصلاته الواثقة بأبيه (را. لو ٢٣: ٤٦)؛ بل تسمع منه كلمة واحدة: «قد أكمل» (ع. ٣٠)؛ ثم أنّ يسوع لم يلفظ نفسه الأخير بصرخة عظيمة، بل «أسلم روحه» (ع. ٣٠).

وفي ع. ٢٨ يقول يسوع «أنا عطشان»، وفي كلمته أكثر من تعبير عن حاجة ماسة إلى الماء، فإنّها تأكيد على معرفته بتتميم رسالته الخلاصية «لكي يتم الكتاب» (را. مز ٢٢). فهو المسيح الذي يعلم تماماً أبعاد مشروعه أبيه، وقد قرّر أن «يشرب الكأس التي أعطاه إياها الله» (١٨: ١١). وبناء على طلبه، يعطيه الجنود «خلًا»، أو بالأحرى خمراً فاسداً كان يشربه العسكر لثمنه الرخيص، وذلك على إسفنجة موضوعة على «زؤفا» وهو غصن نباتي لا يمكنه أن يحمل إسفنجة مبللة إلى علو من دون أن ينطوي، وكأنّ يوحنا قصد أن يكمل المشهد الفصحي. فالزؤفا هي الأداة المستعملة في رشّ عتبات الأبواب بدمّ الحمل، ويسوع هو الحمل الفصحي الحق الذي ذُبح في ساعة ذبح الحملان (ع. ١٤)، وهو الذي لم تكسر عظامه لتصحّ الذبيحة (ع. ٣٣، ٣٦)؛ إنّ حمل الله (را. ١: ٢٩).

وفي كلّ الأحداث يبقى يسوع هو السيّد. فهو من طلب أن يشرب فشرّب، (وحده يوحنا يشير إلى ذلك)، وهو من قال كلمته الأخيرة «قد أكمل» (ع. ٣٠). وتمت رسالة يسوع وكلّ ما أتى من أجله: فقد أعلن الله الآب وأخبر عنه العالم إلى الغاية، إلى الكمال؛ وعلى الرغم من كلّ شيء، فمنهاية حياته الأرضية ليست نهاية، بل كمال ووصول إلى الغاية وتتميم للوحي الذي أتى به.

هو الشاهد الأول على قيامة الرب. فمریم رأت الحجر مرفوعاً، والتلميذ رأى الأكفان، أمّا بطرس فرأى الحجر والأكفان والمنديل. ويشير يوحنا بوضوح إلى الترتيب الذي يسود القبر، ممّا يستبعد آية سرقة تمّت على عجل، أو أي تغيير سريع لمكان الجثة (ع. ٧). وفي حين بقيت مريم المجدلية وبطرس غير قادرين على فهم العلامة، فقد فهم التلميذ «وآمن» (ع. ٨). ففهم أنّ لعازر الذي قام كان بحاجة إلى من يفك أكفانه ويدعه يذهب (١١: ٤٤)، أمّا يسوع فليس بحاجة إلى أحد ليحرره من القبر. فقد رأى القبر الفارغ وآمن، حتى من دون أن يستند إلى الكتب المقدسة، التي كان بطرس بحاجة إليها ليفهم رمز القبر الفارغ (ع. ٩). فوحده الإيمان قادر على أن يفهمنا معنى فراغ القبر، للوصول إلى الحيّ القائم من الموت.

٢٠: ١١-١٨ ظهور يسوع القائم من الموت لمريم المجدلية

يدور المشهد الثاني من هذا الفصل أمام القبر الفارغ حيث تقف مريم تبكي، ويتألف من ثلاثة لقاءات: لقاء مريم المجدلية مع الملاكين (ع. ١١-١٣)، ثمّ لقاءها مع المسيح القائم من الموت (ع. ١٤-١٧)، ثمّ شهادتها أمام التلاميذ (ع. ١٨). ما نقرأه من لقاءات في هذه الآيات مقابل في الأناجيل الإزائية (را. مر ١٦: ٢٨-٩: ١٠؛ لو ٢٤: ٣-٨)، ولكن الحدث هنا فردي بطلته مريم المجدلية وحدها.

فكما كانت مريم المجدلية حاضرة عند الصليب، ها هي حاضرة عند القبر تبكي غياب الرب (ع. ١١). وصحيح أن يسوع مات، لكنّ الأصعب هو أن جسده أيضاً لم يعد له وجود، فقد اختفى الرب فعاشت مريم الحزن والبكاء اللذين أخبر يسوع تلاميذه بأنهم سيختبرونهما (١٦: ٢٠). ووقفت مريم خارج القبر، ولم تدخله لترى ما الذي حدث، ولكنها «نظرت ملاكين» (ع. ١١-١٢) واقفين بثياب بيض، دلالة على التجلي والمجد، عند الرأس وعند الرجلين كما أمام تابوت عهد الله (را. خر ٢٥: ١٧-٢٢؛ مل ٦: ٢٣-٢٨؛ عب ٩: ٥). فوجود الملائكة الذين لا يظهرون في إنجيل يوحنا إلا بعلاقتهم بيسوع (١: ٥١؛ ١٢: ٢٩) برهان واضح على أنّ القبر ليس مقرّ الموت بل مركز حضور الله (مر ٩: ٣؛ ١٦: ٥؛ رؤ ١: ١٠). ويقوم دور الملائكة على طرح السؤال على مريم من حزنها وبكائها، من دون أن ينجحوا في توضيح الرؤية عندها (ع. ١٣).

ووحده اللقاء مع يسوع سيغيّر الوضع (ع. ١٤-١٧). فقد كان على مريم أن تلتفت «إلى الوراء» لتتظر يسوع فهو ليس في القبر (ع. ١٤)، ولم تعرفه، فهو ليس الرجل التاريخي وقد عاد إلى الحياة التي كان يحياها من قبل، ولن يعرفه من يبحث عن الماضي. وطرح يسوع سؤالين على مريم تلميذته، يكشف من خلال الثاني السبب العميق لبكائها: «من تطلين؟» (ع. ١٥). ويوضح جواب مريم أنّها غير قادرة على الوصول إلى الإيمان بمفردها، فهي لا تطلب سوى

في «قبر جديد» لم يتدنّس بجثة من قبل قرب مكان الصلب، وذلك لضرورة العجلة بسبب «استعداد اليهود» للعيد.

ومات يسوع ودفن في قبر استعداداً للفصح الحقيقي!

٢٠: ١-٣١ يسوع القائم من الموت منذ البدء شكلت نصوص الآلام والقيامة في الأناجيل وحدة أدبية متكاملة لم تتفصل أبداً. وهذا ما حافظ عليه يوحنا وأبرزه بشكل واضح. فما إن أنهى خبر دفن المسيح في القبر (١٩: ٤٢)، حتى بدأ خبر اكتشاف القبر الفارغ (٢٠: ١). ويتألف هذا الفصل من خمسة أحداث هي اكتشاف مريم للقبر الفارغ (ع. ١-٢)؛ وزيارة بطرس والتلميذ للقبر (٣-١٠)؛ وظهور يسوع لمريم قرب القبر (ع. ١١-١٨)؛ وظهور المسيح القائم لتلاميذه (ع. ١٩-٢٣)، وإعلانه لتوما (ع. ٢٤-٢٩).

وفي هذا الفصل تأكيد واضح على تحقيق كل ما قاله يسوع في خطابات الوداع، من بكاء التلاميذ وحزنهم (١٦: ٢٠) الذي جسّدته مريم المجدلية أمام القبر، والذي سرعان ما سيتحوّل فرحاً (١٤: ١٨؛ ١٦: ٢٠-٢٢)، إلى الوعد بمجيء الروح المعزّي (١٤: ١٩-٢٤؛ ٢٠: ٢٢)، إلى إرسال التلاميذ كما أرسله الآب (١٧: ١٨؛ ٢٠: ٢١)، وصعوده إلى أبيه (١٥: ١٤-١٦؛ ٢٠: ١٧).

٢٠: ١-١٠ اكتشاف القبر الفارغ تكتشف المجدلية أنّ القبر

حيث وُضع يسوع فارغ فتخبر بطرس والتلميذ (ع. ١-٢)، اللذين يتسابقان للوصول (ع. ٣-٤)، ويدخلانه (ع. ٥-٩)، ثمّ يعودان «إلى موضعهما» (ع. ١٠).

وجاءت مريم «والظلام باق»، مع كلّ ما يعطيه يوحنا لرمزية الظلمة والنور (را. ع ١؛ را. ١: ٥؛ ٣: ٢؛ ٦: ١٧؛ ٨: ١٧؛ ٩: ٤؛ ١١: ١٠؛ ١٢: ٣٥، ٤٦؛ ١٣: ٣٠؛ ١٩: ٣٩). ولكنّه لا يذكر لماذا أتت مريم إلى القبر باكراً. فعلى عكس الإزائيين، أكد يوحنا أن نيقوديموس ويوسف الرامي طيّبا جسد يسوع، فلا حاجة إذاً إلى مجيء النساء حاملات الطيب بحسب مرقس ولوقا (مر ١٦: ١؛ لو ٢٤: ١)، وقد أكد متى أنّهنّ جئن ليزرن القبر (مت ٢٨: ١)؛ فكلّ ما يريده يوحنا هو الإضاءة على حدث اكتشاف القبر الفارغ من دون الدخول في التفاصيل.

وحملت مريم الخبر إلى بطرس والتلميذ الحبيب، اللذين أخذوا مكاناً واسعاً في نصوص الآلام والقيامة (ف. ١٨-٢١)، ولكنها لم تفهم من الأمر سوى إمكانية تغيير مكان الجثة أو سرقتها (را. مت ٢٨: ١١-١٥). وفي ركضهما إلى القبر (ع. ٣)، نلاحظ مسيرة واحدة للإثنين، سرعان ما تتحوّل في ع. ٤ إلى سبق تكتب الغلبة فيه للتلميذ الحبيب، ممّا يعني علاقة حميمة تشدّه إلى المعلم، تفوق تلك التي تربط بطرس بيسوع، هي التي دفعته إلى حماسة وشجاعة واندفاع أكثر ممّا فعل بطرس.

ولكنّ التلميذ يكنّ احتراماً كبيراً لبطرس، فوقف خارج القبر حتى وصوله، ليكون أول من وطئ أرض القبر الفارغ (ع. ٦)؛ فبطرس

«كما»، هي رسالة قدرة إلهية وخدمة حتى بذل الذات.

وبطريقة تختلف عما يفعل الإزائيون، يعتبر يوحنا أن يسوع أعطى الروح القدس عند قيامته مباشرة، بل عند ارتفاعه وتمجيده (١٩: ٣٠)، ويركز على أن إرسال التلاميذ مرتبط بقوة الروح القدس. وبتقديمهم يسوع ابن الله القائم من الموت للعالم، يسمح التلاميذ للبشر بقبول الغفران والوصول إلى الحياة الحقّة، فيكملون عمل المسيح تحت قيادة الروح القدس.

وأعطى الرب تعاليمه الأخيرة لكل تلاميذه، فجميعهم مرسلون ومرسلات، وجميعهم يقبلون الروح القدس أو يرفضونه، وجميعهم مسؤولون عن إيصال الغفران إلى الجميع، أو عن منعه إن لم يوصلوا الجميع إلى معرفة يسوع «الحق والحياة».

٢٠: ٢٤-٢٩ ظهور المسيح القائم من الموت لتوما بعد ظهور يسوع لتلاميذه، يبدو أن توما لم يؤمن بما آمن به الآخرون عند رؤيتهم الرب (ع. ١٩-٢٣)، فشك في شهادتهم. فقام يسوع بمبادرة لإيصاله هو أيضاً للإيمان الحق: بعد الشك (ع. ٢٤-٢٥)، وبعدها يأتي إعلان الإيمان (ع. ٢٦-٢٩).

فإنجيل يوحنا هو الوحيد الذي يتكلم عن توما أحد الاثني عشر. فعندما توجه يسوع نحو أورشليم لـ«يوقظ» لعازر، أعلن توما أنه مستعد للموت معه (١٦: ١١). وفي العشاء الأخير، عندما تكلم يسوع عن آلامه وكأنه ذاهب، قال له «يَا سَيِّدُ لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ فَكَيْفَ نَقْدُرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ» (١٤: ٥)؟ وهو أخيراً من يرمز إلى صعوبة إيماننا، من خلال شكّه في شهادة الآخرين الذين أكدوا أنهم رأوا الرب: هو من لا يؤمن إلا بما يرى.

وذكره الإنجيلي مرتين من قبل، في حالات من الفهم المغلوط لكلام الرب (را. ١١: ١٦؛ ١٤: ٥). ووحده كان غائباً عن اجتماع يوم الرب مع الجماعة، ثم رَفَضَ شهادة التلاميذ، وأراد أن يؤمن استناداً إلى خبرة فردية شخصية خاصة مع القائم من الموت. ثم أراد أيضاً برهاناً حسيّاً يفوق «ما رآه» الرسل، وأراد «أن يلمس» الجراح ليتأكد من أن الذي مات هو فعلاً حيّ وإلا «فلن يؤمن» (ع. ٢٥). وأراد توما أن يصل إلى الإيمان بحسب منطق البشر وطرقهم. وظهر له المسيح كما ظهر للتلاميذ: فجأة، والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط، ورمى عليهم السلام (ع. ٢٦). ويأتي الظهور دائماً يوم الأحد، في أثناء الاجتماع «الكنسي» (را. أع ٢٠: ٧؛ رؤ ١: ١٠). فوضع توما شبيه بوضع كل المؤمنين عبر العصور. فبادره يسوع من دون أن يترك له فرصة للشك ووضع الشروط (ع. ٢٧)، فيسوع هو العالم بما في القلوب والأفكار (را. ٢: ٢٤-٢٥). ودعا ليتأكد كما أراد، فيلمس بيده ليتأكد أن المصلوب هو الحيّ، ويتوقف عن عدم الإيمان، فيصبح مؤمناً؛ فإن الإيمان هو عطية من الرب، وقبول من الإنسان للعطية. لم يلمس توما الجراح، ولكنه رأى ما رآه التلاميذ، رأى المسيح

«جسد» الرب الذي اختفى. ولكن بناء على مبادرة القائم من الموت، وبكلمة منه تعرّفت مريم إليه. فلم يكشف لها هويته، بل ناداها باسمها، فأظهر لها أنه «يعرف خاصته» (را. ١٠: ٣-٤، ٢٧)، فالتفتت إليه وكأنّها تعود عن غيها، فتغيّر مسارها لتجيبه «رابوني» وتعلن أنها عرفتة، ولكنها لم تزل عند مستوى الرابي الأرضي. ولذلك يوضح يسوع الغموض، فيمنعها من «الإمسك به» لأنّ عندها رسالة عليها إتمامها. فعلى مريم أن تقبل غياب يسوع الجسدي، وتذهب لتخبر التلاميذ «إخوة» يسوع بقيامته. وأحدثت القيامة تغييراً في هوية التلاميذ. فهذه القيامة هي «ارتفاع» إلى الآب وعودة إليه، وبالتالي لم يعد بإمكان أحد أن يلتقيه كإنسان في الزمان والمكان. فإنه الآن عند الآب (١: ١)، فتحوّلت بالتالي علاقاته مع تلاميذه. وقد تمّ الكشف الذي أراده يسوع عن أبيه، وأرسى معهم بقيامته علاقات أخوة، انطلاقاً من أبوة الله لهم: إنّها البشري السارة.

وهكذا ينتهي المشهد بشهادة مريم الفصحية: لقد «رأت الرب» (ع. ١٨؛ را. ١ كو ٩: ١).

٢٠: ١٩-٢٣ ظهور المسيح القائم للتلاميذ تتمحور هذه الأعداد حول موضوع كيفية الوصول إلى الإيمان الحقّ. فإنه الحدث الثالث في هذا الفصل، ويأتي تحقيقاً لوعده الرب: «آت إليكم» (را. ١٤: ١٨)، ويتألف من ظهور المسيح لتلاميذه (٢٠: ١٩-٢٠)، وتعليمه (ع. ٢١-٢٣) المتضمن إرسالهم (ع. ٢١)، وإعطاءهم الروح القدس (ع. ٢٢)، والقدرة على الغفران (ع. ٢٣).

وقد تمّ الحدث «عشية ذلك اليوم» (ع. ١٩) أي «أول الأسبوع» (ع. ١). وفي «غياب يسوع»، وبحالة من الخوف والانقطاع عن العالم، الذي يرفضهم ويكرههم (را. ١٥: ١٨-٢٥)، يأتي يسوع يوم الأحد إلى جماعته الملتزمة بحثاً عنه هو القائم من الموت. فلن يجد التلاميذ ربّهم فعلاً إلا ضمن الجماعة الكنسية. ووحده يوحنا يشدّد على أنّ خوف التلاميذ كان «من اليهود» (را. ٧: ١٣؛ ٩: ٢٢؛ ١٢: ٤٢؛ ١٦: ٢؛ ١٩: ٣٨). و«وقف» يسوع «في الوسط»، فهو القائم القادر أن يحضر بين تلاميذه ساعة يريد وحيث يشاء، بواسطة روحه القدوس. ويرمي عليهم السلام، فيمحي الخوف (را. ١٤: ٢٧)، ثمّ يكشف نفسه لهم: إنّ المصلوب المطعون هو القائم من الموت، معطي الخلاص، فعرفوه وفرحوا (را. ١٤: ٢١). فالمسيحيّ المؤمن بالقيامة هو التلميذ الذي لا ينفكّ يتحوّل من الحزن إلى الفرح (را. ١٦: ٢٠-٢٢). وبدأت الأزمنة الجديدة التي تقوم على مسؤولية يتحمّلها تلاميذ القائم من الموت، فيرسلهم «بسلام» (ع. ٢١)، وتتحقّق بقوة الروح القدس (ع. ٢٢) والقدرة على الغفران (ع. ٢٣).

فكما أرسل الآب ابنه ليعلنه للعالم، يرسل يسوع تلاميذه يمثلونه لتكمل البشارة مسيرتها. ورسالة التلاميذ هي عينها رسالة الابن:

ابن الله (را. ١١: ٢٧). فإنّه من كشف لنا حقيقة الله لأنّه هو الله. وفي النهاية يؤكّد يوحنا أنّ في هذا الإيمان وحده الحياة الأبدية (٣: ١٥) أي الحياة بالملء. وحياة يسوع هي الآية الحقّة، لأنّه انكشف حقيقة الله في شخص يسوع الناصري!

يتألّف الفصل من مشهد ظهور يسوع على بحيرة طبريا (ع. ١-١٤)؛ وحواره مع سمعان بطرس (ع. ١٥-٢٤)؛ وخاتمة (ع. ٢٥).

٢١: ١-١٤ ظهور يسوع على بحيرة طبريا يتألّف النصّ من ثلاثة أقسام: مقدّمة تعرض إطار الحدث (ع. ١-٣)، وأعجوبة الصيد الوفير (ع. ٤-٨)، والأكل مع التلاميذ (ع. ٩-١٤).

تُعرّف مقدّمة الحدث (ع. ١-٣) القراء بأبطال الخبر وإطاره. فللمرّة الأولى يستعمل الإنجيل الرابع عبارة «أظهر»، للدلالة على ظهور يسوع القائم من الموت. فالعبارة عنده تختصّ بإظهار يسوع لأبيه، وكأنّه في ظهوره لتلاميذه يُظهر أباه. والإشارة إلى بحيرة طبريا تربط الحدث بحدث إشباع الجموع في الفصل ٦. أما لائحة التلاميذ فتضمّ سبعة شهود، يظهر فيها: ابنا زبدى للمرّة الأولى في هذا الإنجيل، وتوما الذي كان بطل الحدث الأخير، وثنائيل الذي يربط هذا الحدث بأول الإنجيل (١: ٤٩). ويبدون في هذه القصة كأنهم على غير معرفة بظهور المسيح السابق (٢٠: ١٩-٢٣). وفيها يعود التلاميذ إلى حياتهم القديمة مع اعتبار بطرس رئيساً للمجموعة، بحيث يأخذ بنفسه المبادرة للعودة إلى الصيد (ع. ٣). ولكنّه صيد من دون نتيجة، وهذا ما يسمح للرب بالتدخل، لتحقيق الأعجوبة (ع. ٤-٨).

وفي أثناء صيدهم الليلي، «وقف يسوع على الشاطئ» (ع. ٤)؛ فلم يعرفوه لأنّ هويّته ما بعد القيامة لم تتكشف لهم تماماً بعد. وسيُعرّف إليه أولاً التلميذ الحبيب، ثمّ بطرس، وأخيراً مجموعة التلاميذ. وناداهم يسوع «يا غلمان»، أو بالأحرى يا «أولاد» (ع. ٥)، والعبارة تدلّ في المعجم اليوحناوي على أعضاء الكنيسة المؤمنين بيسوع (را. رسالة يوحنا الأولى). وفي غياب المسيح ليس عندهم شيء يؤكل! لكن في تدخله يصبح معهم صيداً وفيراً (ع. ٦). فالمسيح هو من يخلق الحياة الوفيرة حيث حالة النقص التام. وهذا ما يمنحنا الرجاء في العالم، إذ للكنيسة وعد بأن المسيح يستطيع أن يخلق بها ولها الحياة الأفضل والأوفر في هذا العالم. فمهما بلغت شدة التحديات التي تواجه الكنيسة أو العالم، فالمسيح سيخلق الوفرة والنصرة.

وللنصّ دلالات رمزيّة كثيرة منها:

- التلاميذ مجتمعون في سفينة واحدة، يرمون منها الشبكة التي ستجمع سمكاً كثيراً ومختلفاً (ع. ١١). إنّها حالة الجماعة الكنسيّة المرسلّة والتي تذهب للعالم بالرسالة مع وعد بصيد النفوس الوفير. - «التلميذ الذي كان يسوع يحبّه» هو من عرف المسيح أولاً (ع. ٧: ١٣: ٢٣: ١٩: ٢٦: ٢٠: ٢). وهذا قد يكون إشارة

القائم من الموت. ولن يستطيع المؤمن أن يحصل على أكثر من ذلك. فإنّ المسيح الحيّ لم يعد بمتناول حواسنا، إذ إنّ موضوع «الرؤية الإيمانيّة» فقط.

وآمن توما فأعلن إيمانه (ع. ٢٨)، واعترف فكان اعترافه ختام الاعترافات وأقواها، فهو الوحيد في العهد الجديد الذي اعترف بيسوع «إلهي»، بعد أن أعلن أنّه «ربي» الذي عاد إلى الآب بعد تواضعه حتى الصليب، على ما قال بولس (في ٢: ٩-١١).

وصار توما الناطق باسم كلّ المؤمنين الذين صدّقوا أن يسوع هو الله، ويمثّل أباه في هذا العالم ويكشف حقيقته، فاستحقّ الطوبى التي تميّز بين من رأى، ومن لم ير القائم من الموت. فالإيمان الحقّ هو الذي لا ينتظر الرؤية ليتمّ، فإنّه الذي يقوم في غياب الرب. واليوم، في غياب الشهود العيان لقيامة الرب، يذكرنا يوحنا بأنّ ظهور المسيح لتوما لم يتمّ إلاّ لأنّه شكّ ولم يؤمن، وأنّ ما ينتظره منّا الرب هو إيمان مبنيّ على كلامه وعلى قوّة الروح القدس.

وحمل توما شهادته كالتلاميذ الآخرين: يسوع هذا الذي يراه، هو ذاته المعلم الذي تبعه على طرقات هذا العالم، وهو الحامل جراحات الصليب. وثبّت الإنجيلي إلى الأبد شهادة مريم المجدلية وشهادة توما لأجل قرائه «لكي تكون لكم إذا آمنتم حياة باسمه». فإنّها الرسالة الأخيرة: آمن لتحيّا. فإن كان يسوع قد أعطى ذاته ليراه بعضهم، فليس ذلك ليكون موضوع تأمل، بل لكي نبدأ بدورنا المسيرة.

٢٠: ٣١-٣٠ خاتمة الإنجيل تشكل هذان العدداً خاتمة الإنجيل الرابع ومفتاح قراءته؛ فيهما يعلن الإنجيلي السبب اللاهوتي والعمل الذي دفعه إلى كتابة إنجيله. فبعد الطوبى «للذين آمنوا ولم يروا» وقرأ الإنجيل منهم، يأتي ع. ٣٠-٣١ كدعوة ليكتشف المؤمنون في الإنجيل أساساً لإيمانهم من جهة، ومفتاحاً لقراءة ما سبق من جهة أخرى.

ولا يذكر يوحنا أسماء من يوجّه إليهم الكلام، فهو يتوجّه إليهم بجمع المخاطب: «لتؤمنوا»، و«لكي تكون لكم إذا آمنتم»، وبهذا يمكن أن نفهم أنهم قارئو الإنجيل، وهو يدعوهم ليزيدوا إيمانهم ويعمّقوه على أسس أكيدة.

ففي ع. ٣٠ يؤكّد يوحنا الطابع الانتقائي لإنجيله، فهو لم ينقل كلّ ما قام به يسوع بالتفصيل، ولكنّه اختار بعض «الآيات» بحسب هدف محدّد. والآيات في المعجم اليوحناوي هي ما يرمز إلى أبعد من المحسوس الظاهر، وبالتالي فإن كلّ ما عمل يسوع وعلم هو آيات بالتأكيد، اختارها لتشكّل «كتاباً» إلى جانب «الكتب» المقدّسة. وكُتبت الآيات في الماضي لتقرأ اليوم، ويؤمن القراء «اليوم»، أي في كلّ زمان ومكان، إيماناً صحيحاً فتكون لهم الحياة. وفي ع. ٣١ تأكيد على أنّ الإيمان الصحيح يقوم على الإيمان بأنّ يسوع الإنسان التاريخي الناصري (٤: ٢-٣) هو المسيح مُنتظر الشعب اليهودي وهو

يونا» يدعو إليها الرب كما دعاه أولاً (را. ١: ٤٢).

وتقوم هذه المسؤولية على رعاية قطيع الرب، على القيام بدور الرب «الراعي الصالح» بالذات، ومحبة الخراف كما يحبها الرب تمامًا (١٠: ١١-١٨؛ ١٤: ٢١)، مما سيؤدي به إلى مصير الرب والمعلم: الاستشهاد (ع. ١٨-١٩؛ را. ١٣: ٣٦)، والصلب. (يعتبر التقليد المسيحي أن بطرس مات مصلوباً على عهد نيرون سنة ٦٤ في روما). وبهذه الميتة «يتمجد الله» لأنها برهان على أمانة التلميذ حتى الغاية. وأما قوله لبطرس «اتبعني»، فهي دعوة إلى الرعاية على خطى المسيح وتأکید على أن هذه المسؤولية ما هي سوى تلبية لإرادة الرب من جهة، وتوضيح أن بطرس صار بعد القيامة حاضراً لاتباع يسوع، ما لم يكن قادراً عليه قبلها (١٣: ٣٦-٣٧).

ويأتي ع. ٢٠ ليقدم القسم الثاني من الحوار بين يسوع وبطرس، والمتحور حول مصير التلميذ الحبيب (ع. ٢٠-٢٤). وكأن بطرس صار التلميذ الحميم الذي يسأل عن الآخرين، في حين كان التلميذ الحبيب هو من يقوم بهذا الدور من قبل (١٣: ٢٤-٢٦)، ولكن هذا الأخير لا زال من «يتبع المسيح»، في حين أن بطرس احتاج إلى دعوة ثانية لذلك (ع. ١٩، ٢٢). وهو لا يزال «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» (ع. ٢٠؛ را. ١٣: ٢٣)؛ ومصير هذا التلميذ فمرتبط بإرادة الرب، الذي «إن أراد» يبقى التلميذ حاضراً لجماعة التلاميذ حتى مجيئه سيفعل. وإن مصير التلميذ لا يرتبط ببطرس، المدعو مرة أخرى إلى اتباع المسيح، بل بالرب نفسه.

يأتي شرح قول الرب في العديدين ٢٣-٢٤ لتوضيح ما كانت الجماعة اليوحناوية قد فهمته، من أن التلميذ الحبيب لن يموت قبل انتهاء الأزمنة. فربما كان هذا التلميذ قد مات عند كتابة هذا الفصل، مما أدى إلى تشكيل الجماعة في كلام الرب. فالمطلوب أن تفهم الجماعة المؤمنة أن المقصود هو أن الرب هو السيد وهو الذي يحدد كيفية حضور التلميذ في جماعته. هذا ما أكدته التلميذ الشاهد الحق، وهذه هي الحقيقة (ع. ٢٤). إن ما هو مكتوب في هذا الإنجيل مستند إلى شهادة حقة وصادقة، فهو بالتالي كلام الرب وحضوره في الجماعة.

٢١: ٢٥ خاتمة بينما كتب ع. ٢٤ في صيغة جمع المتكلم، يعود ع. ٢٥ إلى صيغة المتكلم المفرد، وفيه عودة إلى الخاتمة الأولى (٢٠: ٣٠) للتأكيد على غنى ما قام به يسوع، واستحالة الإحاطة بكامل هويته.

الأخت باسمه جوزف الخوري

للمؤمن المثالي الذي يعرف «الرب» في كل الحالات، وينقل المعرفة حتى إلى بطرس رئيس مجموعة التلاميذ. فرغم أن بطرس حاول الوصول للرب فائتزر احتراماً، ورمى نفسه في الماء مستعجلاً الوصول إلى الرب (ع. ٧)، إلا أن التلميذ الذي أحبه يسوع هو الأسرع في ٢٠: ٤!

- تحول بطرس من الآن إلى محور علاقة المحبة مع الرب، وليس التلميذ الحبيب (را. ع. ١٥-١٧). ولكن بفضل هذا التلميذ المحبوب، وبفضل بطرس استطاع التلاميذ جميعاً الوصول إلى يسوع على الشاطئ مع صيدهم الوفير (ع. ٨).

- فبعد أن أطعم يسوع الجموع كلها في ف. ٦، ها هو يحضر مائدة خبز وسمكاً لتلاميذه بعد قيامته (ع. ٩). فقد نفذ بطرس الأمر الذي أعطاه يسوع لكل التلاميذ (ع. ١٠)، ف جذب شبكة الصيد الوفير، رمز رسالة البشرى (را. مر. ١٦: ٢٠؛ لو. ١١: ١٠). وهو المسؤول الأول عن هذه الرسالة الشاملة. وترمز الـ ١٥٣ سمكة كبيرة وصغيرة للوفرة والاختلاف، وتجمعهم شبكة واحدة قادرة على جمعها وتوحيدها من دون أن تتمزق. وبطرس هو من يقوم بالمهمة، في حين أن الرب هو من يقوي ويغذي، مع أن هويته ما زالت غامضة غير واضحة المعالم (ع. ١٢).

- وظهور يسوع لتلاميذه ثلاث مرات (ع. ١٤)، ينفي شك أي أحد في قيامته.

٢١: ١٥-٢٤ يسوع وبطرس والتلميذ الحبيب بعد الأعجوبة

(١١-٤)، يأتي حوار بين يسوع وبطرس (ع. ١٥-٢٤)، ويشرح فيه دور بطرس ودور التلميذ الحبيب، بعد أن كان الموضوع قد طرح بخفر في الأعداد ١-١٤. ويوضح يسوع في الأعداد ١٥-١٩ مصير بطرس، في حين تتناول الأعداد ٢٠-٢٤ مستقبل التلميذ الحبيب.

وفي هذه الأعداد تأكيد لأولوية بطرس (كما في، ٢٠: ٦-٧؛ و٢١: ٢-٣، ٧، ١١). فهو المتحدث الأول مع يسوع، وهو شريكه في الرعاية، في حين يأخذ التلميذ الحبيب دور من يتبعهما (ع. ٢٠). ويتوجه يسوع إلى بطرس بثلاثة أسئلة يجيب عنها هذا الأخير بثلاثة إعلانات عن حبه (ع. ١٥-١٧)، وكأن في ذلك صدى لنكرانه يسوع ثلاث مرات (١٩: ١٥-١٨، ٢٥-٢٧) ومحوراً لهذا النكران. فالمطلوب من بطرس محبة تفوق محبة الآخرين. إذ إنه التلميذ الذي اكتملت محبته للرب، فصار قادراً على تحمل المسؤولية التي سيلقيها على عاتقه: إنه دور جديد، دعوة متجددة «لسمعان بن